

## حديث الشهر

### الثقافة الجادة وعالم اليوم :

خبر صغير كبير الدلالة ، مر عليه الناس مروراً عابراً ، ولم يحط به علما أكثرهم ..

فقد رفضت الحكومة البريطانية في الشهر الماضي أن تبني مسرحاً قومياً في لندن ، تلحق به ثلاث فرق تمثيلية من الطراز الأول ، تعمل إحداها في لندن ، وتطوف الثانية بالجزر البريطانية عامة ، على حين تقوم الثالثة برحلات دائمة في بلاد العالم المختلفة .

رفضت حكومة بريطانيا هذا المشروع الثقافي الكبير بحجة أنه سيتكلف - ابتداءً - مليونين من الجنيهات ، ويتطلب أربعة ملايين أخرى في كل عام . وهذا مبلغ وجددت الحكومة أنه سيبطلها ويشق كثيراً على دافعي الضرائب تحمله ، فقررت - ببساطة - أن تتخفف منه بحجج مختلفة ، منها أن المسرح القوي المقترح فكرة غير شعبية ، لم تطالب بها الجماهير العريضة ، ومنها أن فرق الأقاليم أحق بالإتفاق عليها ، من فرق كبرى في لندن ، التي تحظى فعلاً بخدمات مسرحية كثيرة ، تحرم منها عواصم الأقاليم .. !

وقد علّقت صحيفة الأوبزيرفر على هذا المنطق المعوج تعليقاً لاذعاً فقالت إن بلداً يتفق مائة وخمسين ألفاً من الجنبات فقط على شئون الدراما ، في الوقت الذي تحظى فيه فرقة الكوميدي فرانسيز وحدها بإعانة

سنوية قدرها ثلاثمائة ألف جنيه ، خليق أن يستكثر مبلغ المليون جنيه كصاريق ابتدائية ، والأربعة ملايين السنوية بعد ذلك .

ثم نشرت الصحيفة إحصاءات تبين منها أن بريطانيا ذات التاريخ المسرحي الرائع - بريطانيا التي أنجبت أكبر عقيدة درامية في العالم ، والتي يتنوع تاريخها المسرحي تنوعاً خلاقاً وفعالا بحيث يمكن أن تقدم مسارحها دائماً تراثاً عبقاً ومسلماً في الوقت نفسه - بريطانيا هذه هي أقل دول العالم الغربي إنفاقاً على المسرح . أقل حتى من دول صغيرة مثل هولندا وبلجيكا ، ولتدريج ... ! في حين يرتفع الإنفاق على المسرح في دول غربية أخرى ، فيبلغ في حالة ألمانيا الغربية ثمانية ملايين ونصفاً من الجنيهات !

...

لماذا كل هذا التخلف في بريطانيا ، وهي ليست دولة فقيرة بحال من الأحوال ؟

لقد وقف مندوب بريطانيا في مهرجان العرائس الدولي الذي أقيم في بوخارست في العام الماضي يتلقى منى نياً الأموال التي تنفقها جمهوريتنا الفتية على الثقافة عامة ، وعلى النشاط المسرحي خاصة ، وهو مذهول .

لما قلت له إننا تنفق أكثر من عشرة آلاف

أبداناً فقط ، وإنما هم أرواح كذلك ، وأن الروح محتاجة هي الأخرى إلى الغذاء والكساء ، ووافقوا على مضض : ثم راحوا يطالبون بأن يكون الغذاء نافعاً والكساء رقيقاً مهالكاً ، بحجة أن هذا هو ماتطلبه الجماهير وما تطيقه .

وفي بريطانيا قام سير تايرون جاترى ، أحد المديرين السابقين لفرقة « أولد فيك » يرد بعنف على مُزَيِّنِي مطالب الجماهير والمتحدثين باسمهم بلا دعوة ولا استئذان ، فأوضح أن المشاريع الثقافية الكبرى لا تحظى عادة بحماس الجماهير . وأحياناً لا تظفر بمجرد رضاها ، لأن نتائج هذه المشاريع لا تبده العين أو العقل وعلى هذا ، فلو أننا شئنا أن نقتل أحد هذه المشاريع فلنحس استفتاء شعبياً بشأنه . وستكون النتائج عجباً من العجب . سيقول بعض الناس : أزيلوا المتحف القومى من مكانه ، فإن الأرض المقام عليها لا تقوّم المال ، ولو أننا إثنين عليها مكاتب أو إدارات للشركات التى تفتدى الاقتصاد القومى ، لكسبنا مئات الألوف من الجنيهات .

وسيطالب فريق آخر بالتزام الحسد الأدنى من الاتفاق على الجامعات ، بحجة أن خريجي الجامعات ليسوا إلا قلة متحلقة من الناس ، تسبّك الكثير من أموال دافعي الضرائب ، بينما الكثرة التى تستخدم وتبنى وتصنع ، لا يهتم من الخدمات التعليمية إلا التعليم العام ، الذى يكتفى حاجتها وزيادة .

الحقيقة أننا في ميدان الإنشاءات الثقافية الكبرى محتاجون إلى قيادة واعية واسعة الأفق تنظر إلى الناس لا كما هم ، ولكن كما ينبغي أن يكونوا ، إن الذين ينصرفون عن النشاط الثقافي والتقى ، لا يفعلون هذا لأنهم أعداء للثقافة أو لأنهم لا يبالون بها بل لأنهم لم يتدربوا على هذا الإقبال ، ولم يمكنوا ، من أن يمارسوه ، وعلى هذا فن واجب القيادة الثقافية الرشيدة ، أن

جنيه على مسرح العرائس لم يصدق أول الأمر ، ثم لما أكدت له أنني صادق ، وأني أتحدث بصفة رسمية ، استعادنى الرقم ، وثأكد منه ، ومضى يسألنى : هل مسرحنا مسرح دائم ، وهل سننقى عليه باستمرار ، وهل يتقاضى أفراد رواتب ثابتة .. الخ ..

ولما قلت له إننا ننقى أكثر من ربع المليون جنيه على النشاط المسرحي ، والإنشاءات ، وإننا ماضون بعزم في سبيل إرساء دعامة قوية لنهضة مسرحية كبيرة في بلادنا ، وإن حكومتنا لا تبخل علينا بالمال والرجال ، وإنها تضع تحت تصرفنا إمكانيات كبيرة ، منها النقد الأجنبي العزيز ، وحق استخدام الخبراء الأجانب - لما قلت له كل هذا تأمل الأمر طويلاً ثم قال : لا غرو أن يتقدم مسرح العرائس عندهم هذا التقدم السريع الذى لا يكاد يصدق . لقد تعلم في عامين ما عجزت بريطانيا عن أن تفعله في عشرة أعوام .

إن سبب تخلف بريطانيا في ميدان الإنشاءات المسرحية ، وخاصة الجديد منها ، كالعرائس والفنون الشعبية والسيرك ، راجع إلى أن الحكومة هناك تتعاضى عن حقيقة واضحة لم يعد مفر من مواجهتها ، ألا وهى : إن الفنون لن تقوم لها قاعة بعد الآن إلا إذا تعهدتها الدولة تعهداً كاملاً فتحبها كافة ما تطلبه من مال ، ووجهها الوجهة التى تخدم فيها المصالح العميقة للشعب وأقول المصالح العميقة لأن المفرضين وهواة التشويش على الحقيقة يرددون دائماً بيزاء كل مشروع ثقافى جليل لا تظهر نتائجه فوراً لعيونهم التى تتغاضى أو لا ترى : أين هذا من مطالب الناس الأساسية ؟ الناس محتاجون إلى الغذاء والكساء ، فلنخصص كل قرش لتوفير هذين ، أما ما عداهما فهومن الكماليات فإذا تصدى لهم من يذكرهم بأن الناس ليسوا

تحت تصرف من يشاء من الناس ، المخلصين منهم والمزيفين ، الجادين والمهرجين .

هناك الصحيفة اليومية الكبرى التي توزع ملايين النسخ كل صباح أو كل مساء .

وهناك محطة الإذاعة والتليفزيون التي يعد عملها بعشرات الملايين .

وهناك الطبعات الشعبية الرخيصة من الكتب القيمة ، وهذه أيضاً تباع عشرات كثيرة من الملايين .

وهناك الملايين فوق الملايين يغشون دور السينما يوماً بعد يوم .

وهذه كلها أجهزة ثقافية عملاقة ، بمعنى أنها تستجيب لمطالب من يقوم بإدارتها ، فإن وقعت بين أيدي الجادين فهي جادة ، وإن استولى عليها المزيفون وتجار الثقافة ، فهي مزيفة مستغلة مثلهم .

وإذن يكون من واجب المثقفين المخلصين أن يسعوا إلى هذه الأجهزة سعياً ، ولا يتركوها تقع غنيمة في أيدي أعدائهم . عليهم أن يوالوها بإنجاحهم ويعملوا على أن يحصل هذا الإنتاج على نصيب متزايد من وقت هذه الأجهزة ومساحتها ، وعلمهم أن يطالبوا ويلحوا في طلب أن تكون هذه الأجهزة في أيدي تسيء المصالح الحقيقية للجماهير ، وليس مصالح قلة قوية وغنية وكافرة بكل ما هو ثقافي .

هذا هو الموقف الحافل بالإمكانات الذي يجد فيه المثقفون المخلصون أنفسهم في أجزاء كثيرة من العالم .

إن عليهم أن يعملوا ثقافتهم إلى الناس حملاً ، ويستغلوا في هذا ما وضعه العلم الحديث في أيدينا من تسهيلات كثيرة ، ثم يكن يعلم بمثلا أو ما يقرب منها المجاهدون الصابرون في القرون الماضية ، الذين كان سييلهم إلى نشر كتاب ليس مجرد دعوة الناس إلى شراؤه - كما تفعل اليوم - ، بل كانوا ينسخون الكتاب بالحرر ودمع العين ، وأعصاب المخ ، ليضمنوا أن

تليح لهم الثقافة وأن تربطهم بها ، وأن تدرهم على التمتع بلون بمسد آخر من ألوانها . إذ ذاك يرتفع الوعي الثقافي عند الناس إلى الحد الذي يصعب فيه على المزيفين والمفتحمين أن يقتنوا الناس بأنهم أجساد ولا أرواح ، وأن هذا هو الاتجاه الطبيعي الذي لا غبار عليه ، وأن ما دونه حذلق وسفسطة وانفصال عن الشعب ومشاكل الشعب .

كأنما الشعب كتلة من الصخر الصلب ، لا تتغير ولا تتطور ، ولا ترقى أبداً عن مستوى الأرض .

\*\*\*

على أن للمساءلة وجهاً آخر ينبغي أن نتفحصه لتكامل الصورة ، وتصيح أقدار على إبراز الواقع .

إن ثمة انفصالاً واضحاً بين « القيمة » في الثقافة وبين درجة الإقبال الشعبي عليها . بمعنى أن الأعمال القيمة لا تحظى دائماً بإقبال الجماهير ، بل إن هذه الجماهير قد لا تفهمها أحياناً .

فإذا فعل أنصار القيم الجادة العميقة بإزاء هذا الوضع المتناقض الخطر ؟ هل يقفون مكتوفي الأيدي لا يفعلون شيئاً لتصحيح الوضع ، أم هل يكتفون بالسخط على المزيفين والانتهازيين الذين يستغلون تحيزات الجماهير ، ويستغلون ميل الناس إلى الراحة ، فيقدمون لهم الفث المريح ؟

كتب الكثيرون في هذا الموضوع في الشهور الماضية ، وطالب فريق لا بأس به منهم بأن يترك أنصار الثقافة القيمة المنصّات التي يقفون عليها في وقار ، ليبشروا بقرينهم الجادة ، وأن يتحركوا طويلاً وفي مجالات عدة ، ليستكشفوا الأرض التي يقفون عليها ، فإن تغيراً كبيراً قد طرأ عليها منذ أقيمت منصّاتهم وتنابرهم .

هناك حقائق ثقافية كبرى في عالم اليوم ، يحسن بالمثقفين الجادين أن يسارعوا إلى الاستفادة منها . هناك المنابر الشعبية الكبرى التي أنتجها العلم الحديث ووضعها

تتسع دائماً أمام الإنسان ، وتتكشف في ذات الوقت الرقعة الحرة التي يعمل فيها خياله — الرقعة التي لم ينفذها العلم اليقيني بأرقامه ومعادلاته ، ووثوقه الشديد .

وهذا أمر يقلق بال الأدباء والفنانين . فهم يقولون : إذا كان العلم سيتولى تزويدنا بالخبر اليقين عن كل شيء ، فإذا بقي للخيال ؟ ماذا يبقى للأدب والفن ؟

لقد رد برناردشو على هذا السؤال مراراً ، فقال : لن يبقى لها شيء ! سيأتي وقت تنظرفيه الإنسانية إلى الفن والأدب مثلما ننظر نحن الآن إلى أكاذيب الأطفال البيضاء ، وإلى التمثيليات الصغيرة التي يصنعونها من طومر بلعاهم .

ولذا السبب حدد «شو» فترة «خلود» أعماله بخمسين عاماً .

هل يحتفى الفن والأدب إذن في عالم الغد ؟ من الصعب التكهن برأى ، وإن كان في ظني أن الإنسان سيظل يفتي دائماً طالما هو يعمل . . . ومضى قدراً للفناء أن يستمر ، فسيبقى الفن بطريقة

أو أخرى

على الراعى

يصل ما فيه من معرفة إلى دائرة أخرى من الناس قد تكون أوسع من دائرتهم ، وربما كانت أضيق !

## هل يضيع الفن في الفضاء . ؟

كان برنارد شو يقول دائماً : إنني أطمح في الخلود . أى إنني آمل أن تبقى أعمالى في ذاكرة الناس ووعيهم خمسين عاماً بعد وفاتى . وهذا هو الحد الأقصى للخلود في العالم الحديث . . !

ولم يكن شو متواضعاً كما تعلم ، ولكنه كان يضع في اعتباره السرعة المذهلة التي تتغير بها الأشياء والقيم من جيل إلى جيل ، وهي سرعة قد تفاقمت أخيراً ، بعد أن أخذ الإنسان يترك الأرض ، ويخلق بأجنحة من الصلب ، تدفعها روح من الوقود في أجواز الفضاء .

وليس هذا التحليق في جوهره شيئاً جديداً على الإنسان ، فقد ظلت روحه تخلق دائماً منذ أن ترك عهد الحيوانية الأولى ، وأخذ ينير كنهه وعقله معاً بالنار والنور المتبعثين من اكتشافاته وفنونه .

ولكن الجديد أن التحليق يتم هذه المرة بالجسم أيضاً . إلى جوار الروح والخيال . ومعنى هذا أن رقعة اليقين



# الزعيم السياسي قائد فكرى

## جاسم أحمد سيكوتورس رئيس جمهورية غينيا

### ترجمة الأستاذ فوزى سليمان

المادية والمعنوية ومدى ما يعاينه من أنواع الظلم الاجتماعى والاقتصادى ، وكيف ينعكس هذا على تكوينه النفسى فتتحلل شخصيته ، ويهار تراثه ، وتضطرب قيمه ومبادئه ، ويستشف رغبته فى التحرر من هذا الواقع المرير . والانتقال من حال إلى حال معناه تغيير فى الأوضاع المادية وفى القيم والمبادئ والتقاليد وسائر مقومات الحياة الثقافية .

ولكى ينجح الزعيم السياسى فى قيادة الجماهير لا بد له أن يرتبط بواقعهم هذا ، وأن يعبر عن آمالهم تلك ، وأن يقودهم بأمانة وصدق فى الطريق إلى تحقيق هذه الآمال . وهذا يكون قد تحمّل مسؤولية تطوير الأوضاع الثقافية فى الوقت نفسه الذى تحمّل فيه مسؤولية تطوير الأوضاع المادية ، لأنها كما قدمنا عناصر متكاملة فى مجال واحد .

ولن نرضى عن الجماهير ، ولن تتبعه ، إلا إذا كان هو نفسه خاضعاً للقيم والمبادئ التى يدينون بها . وإن هذه القيم وهذه المبادئ هى التى تشغل تفكيره وتحدد أهدافه وجميعها تنبع أصلاً من واقع حياة الناس . وبهذا تتحدد الصلة القوية بين الكفاح السياسى والكفاح الثقافى ، ولا مكان لأحدهما بغير الآخر .

...

وتختلف ثقافات الشعوب باختلاف واقع كل منها والظروف المشكّلة لهذا الواقع ، ولعل هذا هو سبب اختلاف الثقافة العربية عن الثقافة اللاتينية مثلاً ، فقد

لعله من القول المعاد أن الثقافة من أهم مقومات حياة الناس ، فى مرآة حياتهم ، تروى واقعهم ، وتصور آمالهم ، وتشجّد همهم ، وتدفع بهم إلى الأمام .

والقائد السياسى الذى ارتضاه الناس زعيماً يعبر عن آمالهم ، ويقودهم فى طريق المستقبل ، لا بد أن يكون واعياً بكل القيم والمبادئ الفكرية التى تشكل حياة شعبه ، والتى من خلالها يتحرك للأمام .

وقد يكون من السهل على الشعوب التى تتمتع بحريتها واستقلالها أن تمارس نشاطها الفكرى ، وتعبّر عن قيمها ومبادئها وسائر اختلاجاتها فى حرية وبسر وقد تساعد هذه الحرية وهذا اليسر على تطوير هذه القيم وهذه المبادئ . ولكن الحال على عكس ذلك تماماً فى الشعوب المستعمرة والمغلوبة على أمرها ، فهى لا تستطيع أن تعبر عن خلجات نفسها ، ولا تستطيع أن تبرز قيمها ومبادئها الفكرية ، وقد فرض الاستعمار عليها ستاراً كثيفاً فنع تطورها ونموها . وقد يجعل هذا مهمة القائد السياسى والفكرى على درجة كبيرة من الصعوبة ولا يذللها أمامنا سوى فهمنا العميق الدقيق لطبيعة العلاقة الوثيقة التى تربط بين عناصر الكفاح السياسى وعناصر الكفاح الثقافى داخل الوحدة الحالية التى تنبثق من واقع حياة الناس .

فالقائد السياسى إنسان على درجة كبيرة من الوعى والنضج الذى يؤهله لأن يدرك مقومات حياة شعبه

الاستعمار السياسى والاقتصادى والنفسى، واستمدوا أسس ووسائل ومقومات هذا الكفاح من واقع الحياة الإفريقية بمقوماتها المختلفة وأهمها التراث الثقافى، وأنجبهوا بهذه المقومات وهذه القيم من خلال الحركة القومية الكبرى نحو المبادئ والمفاهيم الإنسانية ذات الطابع الإفريقى والإنسانى .

لا يتم التحرر بمجرد الخروج من تحت سيطرة البلد المستعمر ونيل الاستقلال الرسمى، وإنما لا بد من التحرر الكامل من الروح الاستعمارية التى تحرس الدولة المستعمرة عادة على شئها فى نفوس أبناء المستعمرات والى تمكن لها من الشعب المستعمر إذ تحمله إلى شعب خاضع مستسلم فاقد الثقة بنفسه وقدراته منحلٌ خلقياً، فارغ العقل، فاقد الثقافة، منهار القيم .

وإذن فعل المكافحين فى سبيل الاستقلال الكامل أن يعملوا على خلق ونشر الجو النفسى الملائم لتطور المطلوب لأنه سبيل الفراع الناتج عن خلخلة القيم التى يشها الاستعمار وربطاً عليها طوال مدة إقامته فى بلادنا ويساعد على التجهيد لغرس القيم الجديدة .

على الشعب أن يعى القيم القابضة التى غرسها الاستعمار فيه حتى يسبل عليه الخلاص منها ويتفهم، وعلى أسس من واقعة الانجهاات التى يتحدد وفقاً لها مستقبله .

• • •

والواقع أن استخلاص الشخصية القومية من برائن الاستعمار وطغيان الشخصية الاستعمارية فن قائم بذاته وبحاجت لمهارة فى الأساليب لكى تقاوم الانجهاات التى أدت إلى تزييف واقعنا النفسى، والى جرّدت فضائلنا من القيم وقضت على مقومات حياتنا الأصلية فى سبيل القضاء على ذاتيتنا ومحو شخصيتنا القومية . ولقد كانت هذه هى الخطوط العريضة التى رسمها الاستعمار لسياسته فى بلادنا فقد وضع له منذ البداية أن استعاره لبلادنا

خضعت كل منها لألوان من التفكير ومن النظم ومن الظروف المادية والتكنولوجية والاجتماعية مما أدى إلى أن تأخذ ثقافة كل منها شكلاً محدداً وطريقة فى التعبير خاصة، أى أصبحت لكل منها شخصية مستقلة محددة تتقدم بها فى مجال الأدب والثقافة العالمية .

وتتم الدول الاستعمارية بناء ثقافياً ضخماً يتكامل مع إمكانياتها العلمية والاقتصادية وقيمها الأخلاقية والأدبية ترز به سيطرتها وتدافع به عن سيادتها على الشعوب الأخرى .

وللشعوب المستعبدة - بالمثل - قيم ثقافية ومبادئ وأخلاقيات ذات طابع مخالف، إذ تسودها الرغبة فى التحرر والكفاح فى سبيل الاستقلال والمساواة والتطلع إلى مستقبل أفضل .

والمستويات العلمية والنظم الاقتصادية والاجتماعية والقيم الفنية والأدبية التى وصل إليها العالم الحديث تتطلب السمو بالبشرية إلى مستوى إنسانى رفيع من حيث القيم والمبادئ، وإذا كان العالم الاستعمارى لم يصل بأسباب التقدم إلى غاياته الإنسانية المنشودة بل إنه استخدمها فى تبرير وتأييد أطماعه التى لا تمت إلى القيم الإنسانية بصلة .

ونظراً إلى أن حضارة الشعب ومستوى تقدمه الحقيقى تقاس بمدى ما يقدمه للعالم من مشاركة فعالة فى إقامة صرح القيم الإنسانية السامية مثل مبادئ المساواة والتضامن والوحدة والأخوة بين الناس فإن على قادة إفريقيا السياسيين فى هذه المرحلة الحاسمة من تحررها وتطورها ونزوعها نحو الكشف عن نفسها وبلورة شخصيتها التى حاول الاستعمار عبثاً القضاء عليها، عليهم أن يوجهوا القيم الفكرية الإفريقية النامية نحو غاياتها الإنسانية والحضارية السليمة، وأن يساعدوا الشخصية الثقافية لإفريقية على الظهور . ولن يتم هذا إلا إذا ارتبطوا ارتباطاً واعياً بالكفاح الإفريقى ضد

والتاريخ البشرى يدل بما لا يدع مجالاً للشك على أن التراث البشرى من علم وفن وثقافة وخلق ومن قيم ومبادئ وتقاليد ، هو نتاج البشرية كلها وملك للبشرية كلها، وأن نسبتة إلى شعب بعينه أو جنس بعينه لون من ألوان الحق وقصر النظر ، فقد سبق أن أخذ الغرب عن الشرق ليأخذ الشرق من الغرب ثم . . . وتدور عجلة الزمن لتزيد من تفاعل الفكر البشرى كله ماضيه وحاضره وشرقه وغربه .

\*\*\*

والواقع أن الاستعمار لم يعد يؤكد شخصيته وسيادته باستعراض الجند أو بتضجير القنابل الذرية كما تفعل فرنسا في صحراء الجزائر وإنما هو يعتمد أساساً على تحطيمه للشخصية القومية للبلد الذى يستعمره فقد بثّ فينا منذ حل معاني تفرقه وعظمته فأصبحنا وفي دمائنا إيمان بعظمته وبعجزنا أمامه . . . وهذا التاريخ الطويل الذى خطط له الاستعمار من قديم وحاربنا في قيمنا ومبادئنا وعاداتنا وأخلاقنا وثقافتنا هو العدو الأول الذى يجب أن يتجه إليه كفاحنا . . . كفاحنا الثقافى إلى جانب كفاحنا السياسى العام .

لقد نشأنا ونحن ندرس في المدارس الاستعمارية في بلادنا تاريخ فرنسا وحروب الغال وحياة جان دارك وتاريخ نابليون وأشعار لامارتين ومسرح مولير ، والتنظيم الإدارى لمقاطعات فرنسا كما لو كانت إفريقية بلادنا بلا تاريخ، وبلا واقع جغرافى، وبلا حياة ثقافية وبلا قيم وبلا أخلاق . . . وبلا وجود . . .

هكذا كانت تتحكم العقيلة الاستعمارية في تشكيل عقيلة الأجيال الناشئة في المستعمرات، ولم يكتفِ الاستعمار بهذا بل حرص على أن يشعر أبناءنا في كل مرحلة من مراحل حياتهم وتربيتهم أن الأوروبي صاحب الفضل عليهم في تعليمهم وتنوير عقولهم، ورفعهم إلى هذا المستوى الحضارى الذى يعمون به، وأنه لولا الاستعمار لظلوا في

لن يدوم طويلاً إلا إذا تمكّن من القضاء على الشخصية القومية لنا فلم يكن أبداً من باب المصادفة أن يسمى الاستعماريون الفرنسيون الترويج — وهم في قمة مجدهم الاستعماري — نظرية « العقيلة البدائية » وإعطائها ثوباً علمياً براقاً .

وكلنا يعرف الصورة التى قدسها عليها العالم الفرنسى ليني بريل فقد صاغ النظرية بحيث تنطبق في مضمونها على الشعوب الإفريقية السوداء فتحدثت عن الشعوب ذات التطور الناقص والتى لا تسمح لها إمكانياتها بأن تتعدى مرحلة معينة من مراحل التطور البشرى ، ونسى أو تناسى من تبعه من العلماء والساسة ممن روجوا لهذه البضاعة — نسوا أو تناسوا أن الاستعمار قد عمل جاهداً على وقف التطور الحضارى في المستعمرات . . . ونسوا أو تناسوا أن هذه الشعوب التى ينعتونها بالانحطاط والقصور كانت ذات حضارات زاهرة باهرة ، وذات تراث عريق وقيم إنسانية ربما كانت تعار من حيث الدرجة والمستوى الإنسانى على القيم التى يتشدق بها الرجل الأوروبي نفسه . وإن هذه الحضارات وهذه القيم وهذا التراث لا يحتاج لمهارة علمية كبيرة لكشفه بقدر ما يحتاج للأمانة العلمية والروح الموضوعية غير المتحيزة في البحث والعرض والتقييم، ولعل هذه السياسة الاستعمارية الخبيثة قد نجحت في وقف تطورنا وفي نشر عقدة الاستعمار بيننا وامتدت جذورها في حياتنا بشكل ينذر بالخطر، ويدل على أن كفاحنا السياسى والثقافى ليس هيناً وأن تغلبنا على هذه الأوضاع ليس سهلاً .

ومع ذلك أفليس من الحق أن ننصت إلى ترثات الرجل الأبيض وأكاذيبه الخبيثة عند ما يدعى أنه صاحب القيم والمبادئ الحضارية الإنسانية وأنه صاحب العلوم والفنون والآداب والأخلاق ، وأنه معلم البشرية في العصر الحديث . . .

دياجير الجهل وظلام التأخر، والجاهلية القبلية، وأن واجبهم يقتضى - لصالحهم ولكي يصبحوا فعلا جديرين بالانتساب للعالم المتحضر - أن يتابعوا الرسالة فيخلصوا أنفسهم بأنفسهم من كل ما فيها من آثار وغفلات إفريقية بائسة، وأن يربأوا بأرواحهم وعقولهم عن هذا العالم المظلم المتأخر القاتى وأن يزعوا على قدر ما يستطيعون إلى الارتباط بمقومات الحياة الأوروبية وأن يتشبهوا بهم إن لم يكونوا مثلهم .

وقد استطاع الاستعمار هذا المنطق أن يؤثر في عقلية بعض أبنائنا فأمنوا بأن تتطور بلادهم مرتبط بوجود الاستعمار ، وأن دخول الاستعمار لبلادهم كان حادثاً سعيداً نتج عنه التقدم الذى حققته بلادهم وأصروا على أن اكتساب المعرفة الحققة والعالم الكامل يتطلب التكرار التام للقيم والثقافة والتراث القومى والفن فى الثقافة الغربية .

...

ولست أدرى كيف كان سينتهى بنا الحال غداة حصولنا على استقلال بلادنا؟ غيباً لو لم تكن قد حسبتنا لهذا اليوم عدته، وأعددتنا في تنظيماتنا الوطنية معهداً لتخريج الإداريين الذين يستطيعون الإشراف على الشؤون الإدارية ويكونوا الأداة التنفيذية لحكم البلاد وبغير هذا كنا واجهنا موقفاً عصياً وكان من الممكن أن يقلت زمام الحكم من أيدينا خاصة إذا أخذنا في اعتبارنا المؤامرات التى يصر المستعمر على أن ينهى بها فترة استعمار له بلد من البلاد والتى يأمل من وراثتها أن يعود فى حكم هذه البلاد أو على الأقل وضع العراقيل أمام الحكام الوطنيين لاثبات أنهم عاجزون بدون الرجل الأبيض .

هذه الرغبة الشريرة في إبقاء شعب المستعمرات في حالة دائمة من التأخر هى التى تميز في الواقع وتحدد اتجاهات وطبيعة التعليم في ظل الاستعمار . لقد أرادوا

ويعود بنا هذا إلى الحديث عن عالمية العلم وإنسانية الثقافة ودولية الحضارات فلم يحدث أن سمعنا ولن يحدث أن نسمع عن هندسة صينية أو كيمياء فرنسية أو طبعة إنجليزية ... إلى غير ذلك ؛ إنما توجد في العالم كله هندسة واحدة وكيمياء واحدة وطبيعة واحدة وهكذا ...

ولم يختلف الثنائى حتى الآن على أن العلم والثقافة التى تملأ جوانب العالم كله حضارة ونوراً هى بلا قومية . . لأنه إنتاج الفكر الإنسانى في صورته العامة العالمية، ولا يمكن أن يكون غير ذلك ونحن نسخر من المحاولات الغبية التى يحاول بها البعض أن يثبت أو يرد أصول علم من العلوم أو كشف من الكشوف أو مبدأ من المبادئ إلى دولة بعينها ، وهى عبث لا يضيف إلى العلم جديد .

ومع ذلك فإن الاستعمار في الوقت الذى يزهو فيه علينا لأنه يقدم لنا العلم والحضارة الإنسانية إنما يحون مبادئ وأخلاقيات هذه الحضارة التى يدعيها لنفسه من

ومع ذلك فإن الاستعمار في الوقت الذى يزهو فيه علينا لأنه يقدم لنا العلم والحضارة الإنسانية إنما يحون مبادئ وأخلاقيات هذه الحضارة التى يدعيها لنفسه من



تراثه القوي ليطورة من خلال ما تعلم . إن قيمة ثقافتك لا تظهر إلا إذا تحولت إلى نشاط وظيفي يخدم التطور الاجتماعي وأدت هذه الثقافة إلى أساليب وأنماط سلوكية وتقاليد وعادات ...

إننا لا ننكر فضل المفكرين الأوروبيين الكبار على الإنسانية والحضارة البشرية ، ولكن الذي يحدث أننا نفرق في دراسة تراث المفكرين الغربيين وإنتاجهم ونفسى تراثنا وإنتاجنا القوي الإفريقي ..

كم من شبانا قضوا معظم شباهم يدرسون ديكرات وبرجسون وغيرهم من فلاسفة الغرب ، ولم يفكروا أو بعبارة أدق لم يسمح لهم الاستعمار أن يفكروا في الفلسفات القومية وحضاراتنا الأصلية وقيمنا وتراثنا .. كم منهم يعرفون المفكر الوطني الحاج عمر ...

وطالما أننا نفكر بهذا الأسلوب الذي يقبنا الخارج وطالما أننا نفكر من خلال قوالب ومفاهيم الثقافة الاستعمارية فلن نستطيع أبداً أن نستقل بشخصيتنا وننكث أفكارنا وتصرفاتنا وفقاً لمفاهيمنا القومية في حين أن طريق القومية والشخصية الإفريقية هو طريق نهضتنا الوحيد .. الشخصية الإفريقية القائمة على الملامح التي يحددها واقع حياتنا والممتدة جذوره إلى تراثنا وثقافتنا الأصلية، وأن تتطور بهذا التراث وهذا الواقع وهذه القيم والمفاهيم إلى المستوى الحديث، وأن نستخلص ثقافتنا الأوروبية لتحقيق هذا الغرض لا العكس .

إن الفرد ابن بيئته، ولذلك احتفظ الفلاح الوطني في قرانا بخصائصه الإفريقية الخالصة على عكس الموظف والعامل الذي يعيش في المدينة ويتأثر بالجو الذي خلقه المستعمر حوله ، ولقد بذل المستعمر جهداً كبيراً في القضاء على القوميات الإفريقية للشخصية الوطنية وأهم اهتماماً بتكوين العقيدة الاستعمارية عند سكان المدن

للمعلم الإفريقي أن يظل دائماً في مستوى منحط حتى لا يتخرج على يديه إلا مستويات أكثر انحطاطاً وضعفاً .

...

ولقد أراد المستعمر أن يزيد الإفريقيين شعوراً بضعفهم وعجزهم فعلى في تقدير درجاته العلمية ووضع العراقل أمام الإفريقيين حتى لا يحصلوا عليها وتظل دائماً أملاً بعيد المنال ، وحتى إذا سمح للقليل من أعوانه ، ومن ثبت له إخلاصهم له بالحصول عليها كان ذلك مريراً لرفعهم فوق طبقات الشعب الأخرى ... ولطالما أدت المنافسة بين بعض الشباب الإفريقي على تقدير الدرجات العلمية التي حصلوا عليها من بلاد المستعمر إلى ألوان من الشقاق والخلاف وبلدت بينهم الفرقة والحسد بدلا من التجمع والتكامل لمكافحة الاستعمار والمستعمرين .

ولقد لجأ المستعمر إلى سياسة إنشاء درجات علمية خاصة بالوطنيين وشهادات ممتازة للأوروبيين فلا يتساوى الطبيب الأبيض مع الطبيب الملون ولا المهندس ولا المحاسب ولا المعلم وهكذا ، وبذلك استخدم طبقة المعلمين الملونين في تنظيم وتشغيل جموع العمال الوطنيين الذين يعملون في المناجم والمزارع المائلة التي استولى عليها الرجل الأبيض ، وهذا ما حدث في الكونغو وأنجولا وموزمبيق وغيرها من المستعمرات ، وفي الوقت نفسه احتفظوا بهم في مستوى أقل من نظرائهم الأوروبيين .

والواقع أنه يجب علينا أن نتخلص من الوهم القائل إن الثقافة التي تلقاها على يد المستعمر هي طريقنا إلى الارتفاع بمستوانا ومستوى شعوبنا ، وإنها سبيلنا إلى فتح أبواب المستقبل وطريق الحرية والاستقلال . ويجب أن ننظر إلى الموقف نظرة موضوعية خالصة فكم من شبانا الذين تعلموا في مدارس المستعمرات وتغنوا بثقافة المستعمر استطاع أو حتى حاول أن يبحث عن

ولكن الفلاح ظل في قريته النائية وفي بيئته الإفريقية الخالصة ومع تراثه الإفريقي الصميم .

وعلى المكافحين في سبيل الحرية والاستقلال أن يبذلوا جهداً كبيراً للقضاء على الروح الاستعمارية بين سكان المدن من المتعلمين ، وأن يهتموا بدراسة التراث الإفريقي القوي من منابعه الأولى في القرية وعلى قدر ما نتجبه إلى دراسة واقعنا الإفريقي وعلى قدر ما نطوِّع تفكيرنا لهذا الواقع وعلى قدر ما ندرس مشاكلنا في ضوء هذا الواقع من خلاله ، على قدر ما تكون الحلول التي نصل إليها سليمة وطبيعية لأنها نابعة من هذا الواقع وعلى قدر ما يتقبلها الناس ببساطة ويستجيبوا لها في طبيعة؛ لأنها نابعة من واقع حياتهم ومتشقة مع تاريخهم ونسيج حياتهم وعلى قدر ما يؤدي هذا إلى تطور سليم في القيم والاتجاهات والأنماط السلوكية وبهذا نصل دائماً إلى حلول إفريقية من خلال واقع إفريقي وبتفكير إفريقي ومقومات إفريقية ، وهكذا نستعيد شخصيتنا القومية ونسير في طريق التطور السليم البناء .

كم من الشباب فقدوا ذوقهم القوي وتذوقهم لرفصاتنا الوطنية وأناسيئنا الشعبية في حماسهم للتاجير والفالس والمغنين الأجانب، وكانت لهذه النزعة آثارها الخطيرة لأن إنسانية الفرد تتكون من تفاعل إمكانياته مع بيئته خلال تاريخه وتراث قومه ونتيجة لهذا التفاعل وهذا النمو، تتكون شخصيته وقيمه وذوقه وتكتسب الأشياء دلالاتها ويصبح قطعة حية من مجاله الحيوى أما تعلقه بالنوع الأجنبي والثقافة الأجنبية مع عدم وعي بلوقه وثقافته القومية فيؤدي إلى انزله عن مجاله الحيوى وعن بيئته الاجتماعية مما يؤدي إلى انحراف في نمو شخصيته الإنسانية وقيمه واتجاهاته وتفقد الأشياء دلالاتها الحقيقية عنده، ويصبح غير قادر على التفاعل أو النمو أو التطور .

من هنا جاءت أصالة الفلاح الإفريقي ، وجاء

انحراف السائرين في ركب الاستعمار من فقدوا قوميهم وشخصيتهم الإفريقية ، ولم يكتسبوا الشخصية الأوروبية الكاملة ، ولن يتيسر لهم أن يكتسبوا أبداً لأنهم ليسوا أوروبيين .

ولإفريقية شخصيتها الكاملة ولا يمكن أن تفهمها إلا من داخلها والنظر إلى العادات والتقاليد والقيم الإفريقية من الخارج يفقدها دلالتها تماماً .

ولإفريقيا خصائصها الجماعية، وفيها أقوى مثل التضامن الاجتماعي والأخوة والمساواة وهي قيم إنسانية لعل البشرية في حاجة إليها الآن، وعادات وتقاليد الإفريقيين تنبع من هذه الاتجاهات وفصلها عنها يفقدها معناها . ولم تحاول الدول الاستعمارية أن تنهضهم طبيعة الحياة الإفريقية من داخلها لأن الروح الاستعمارية تتميز أولاً وقبل كل شيء بالانانية ولا ترى غير نفسها ، أليست الحضارة الأوروبية التي أدت في مراحلها الأخيرة إلى الاستعمار هي نفسها التي أنتجت نظرية الفن للفن ، وهي تمثل اتجاهاً قوياً انفرادياً خطيراً أبعد ما يكون عن الروح الإنسانية وأليست هي نفس الحضارة التي امتلأت بنفسها فلم تعد ترى في الوجود ثقافة ولا فكرياً ولا علماً ولا فناً إلا إذا كان أوروبياً، وهي نفسها التي خلقت في بلادنا العظيمة من أذئاب الاستعمار الذين لا يرون إلا ما هو أوروبي ولا يطربون إلا لما هو أجنبي . . . امتصوا منطق الاستعمار . . . منطق السيادة وأصبحوا ينفونهم سماً يقتل الروح القومية والشخصية الوطنية ولم تعد لأغانينا وموسيقانا الشعبية في نظرهم أية قيمة إلا إذا صيغت في قوالب وأشكال غربية ، وفنوننا عندهم فنون تقليدية وتماثيلنا وأقنعتنا وتراثنا القديم أشكال تتضمن تعبيراً جمالياً مخلوفاً ولا شيء أكثر لأن هؤلاء الإفريقيين وبفضل النظرة الأوروبية الاستعمارية التي تنهوا فقدوا القدرة على إدراك أن الفنون الإفريقية ، هي بالدرجة الأولى فنون ذات وظيفة ودلالة اجتماعية ، وذات قيمة

وسيتلوقين فنوننا وآدابنا وسيدركون القيم الإنسانية لتأليدنا . . . وعندئذ فقط سيجلون أن علمهم الغربي وثقافتهم الأوروبية قد أصبحت ذات نفع وأنها أدوات تنفيذ في عملية تطوير حياتنا دون أن تصبغها بصبغها وسيجلون أن الحلول التي تعرض لهم لمشاكل حياتنا وكفاحنا حلول تابعة من واقع حياتنا، وأن الناس ستقبل هذه الحلول ببساطة . . . وسيجلون أكثر من ذلك أن العمل الثوري الكامل لا تكفي فيه المفاهيم الديمقراطية وشعارات الحرية، وإنما العمل الثوري مشاركة أهلية للجماهير في حياتنا ومعايشة مشاكلها والارتباط بها ثم التعبير عنها والكشف عن حلولها والانطلاق الجماعي بها . . .

ولا يخفى أن نكتب نشيداً ثورياً لنشارك في ثورة العمال الإفريقي بل يجب أن نمارس هذه الثورة مع الناس، وعندئذ تأتي الأناشيد طوعية من تلقاء نفسها . . . يجب أن تكون جزءاً حياً نابضاً من إفريقية تفكر بفكرها وتنفض بفنها وعنصرأ نشطاً من عناصر الطاقة الشعبية المتحركة نحو الحرية والمناضلة في سبيل الاستقلال، ولا مكان لفنان أو مفكر جدير بهذا الاسم خارج هذا الكفاح . . .

ولقد عانى الرجل الإفريقي طويلاً من احتقار الرجل الأبيض ومن إقصائه عن المجالات الدبلوماسية وتسخير عبيداً يشقى ليقدم لهم ثروات بلاده غنيمة باردة، وقد آن لهذا الرجل أن يثور لكرامته وأن يثار لإنسانيته المهذبة وأن يطالب بثروته المنهوبة وأن يهب مكافحاً في سبيل استقلاله وحرية .

وكفاح الرجل الأسود ليس كفاحاً عادياً فقد استعد له الاستعمار الذي استمر استعباده واستحل استغلاله وبدأ يضع المراقيل أمام ثورته فصوره في صورة المجلس العاجز الضعيف بحكم تكوينه وخلفته، والذي تقصر به طبيعته عن بلوغ شأو الرجل الأبيض في

نفعية ولا يمكن فهمها خارج هذا المعنى وهذا الإطار . . .

...

إن أهم ما يميز الفنون الإفريقية هو مضمونها المستمد من واقع حياتنا، والذي يعبر عن هذه الحياة ويوظف فيها وإن أعمال المفكرين والفنانين والكتاب وغيرهم لا قيمة لها إلا بقدر ما تكون ذات وظيفة ودلالة في حياة الناس وإن العمل الفني هو عمل متكامل يضم الفكر والعمل والأمل في حياة الناس . . .

والفنان الذي لا تمتد جذوره في بيئته التي هي بيئة الناس الذين سيكتب لهم محكوم عليه بالانزلال وموت فنه إذا صح أن نسميه فناً .

والمفكر الذي يفصل عن تراثه وشخصيته القوية وفارغه وبيئته ويربط فكره وثقافته وثقو المستعمر مفكر محكوم عليه بالعزلة وبالموت الأدبي والاحتجاجي .

وليس معنى هذا أننا فقدنا إلى الأبد ذلك الثمر من المتفنين الإفريقيين الذين تأثروا بالعقلية الاستعمارية، حقاً أنها مهمة صعبة أن نحاول ردّهم إلى أصولهم الإفريقية بعد أن تشكلت شخصياتهم واكتسبوا ألواناً من السلوك والعادات والتقاليد وأنماط التفكير الغربي وقيمه ومبادئه بحيث تكونت لهم طبيعة ثانية حجبت إن لم تكن هدمت الشخصية الأصلية ذات الجنور الإفريقية .

والطريق السليم هو الارتباط بالجمال الإفريقي السليم والذي يضطرهم إلى إعادة التكييف وتكوين عادات وألوان من السلوك وأنماط فكرية وقيم تنفق والجمال الإفريقي الذي تقرر أن يتنجسوا فيه ليمودوا لأصلهم . . . وتكامل الإنسان مع بيئته الأصلية ليس أمراً شاقاً وأن يعود الإفريقي إلى إفريقية ويعيش حياة إفريقية ليس عملاً مثيئاً . . . وعندئذ فقد يتاح لهم أن يروا الأمور على حقيقتها . سيرون مشاكلنا وسيلمسون الخيوط الرئيسية للشخصية الإفريقية التي عمل الاستعمار على تقطيع أوصالها منذ حطّت أقدامه على أرضها . . .

يبحثون فيه اليوم عن القيم والاتجاهات الإنسانية التي  
عجزت حضارتهم أن توفرها للإنسان .

لقد ظلت إفريقية قروناً تستمع وهي ترسف في  
قيودها إلى أنبياء الحرية ورسل الإنسانية ينطلقون من  
مختلف بقاع العالم ، واليوم تنفض إفريقية عن نفسها  
أغلالها ، وتتقدم إلى المجتمع الإنساني عاقدة العزم على أن  
تشارك في بناء مستقبل البشرية على أسس من الأخوة  
والمساواة والعدالة والتضامن الاجتماعي والتعاون الدولي  
ولعل الرجل الإفريقي اليوم أقدر من غيره على الشعور  
بأهمية هذه القيم كأهداف تسعى إليها الإنسانية لتحقيق  
السلام والاستقرار والسعادة لبني البشر . وهو أقدر من  
غيره لأنه عاش قروناً في ظلام الظلم والعنف والاستبداد  
وظل طوال هذه القرون يتطلع إلى الحرية وإلى المساواة  
**وإلى الكرامة الجديرة بالجنس البشري** ، فهو خير من  
يعرف أهمية هذه القيم والأهداف لتحقيق سعادة الجنس  
البشري والاستقرار والسلام على الأرض .

ولعله بفضل تراثه الحضاري القديم القائم على  
التعاون والتضامن والسلام والذي لا يعرف الأنانية ولا  
الفردية العمياء .. لعله يحكم هذه القيم التي تكون الملامح  
الأولى للشخصية الإفريقية أقدر من غيره على تقديمها إلى  
عالم اليوم ، ليرسم من خلالها خطوط مستقبل البشرية .

الحضارة والتقدم ووضع أمامه حاجزاً من العنصرية  
المادية والمعنوية وكان في حربه هذه ندلاً وضيقاً ضيق  
الأفق ... أما ضيق الأفق فقد خبرناه عند ما تحدثنا عن  
أنانية حضارة المستعمر وامتلاكها بلداتها وقصورها عن  
رؤية ما عند غيرها .

وأما نلالته وجبنه فلأنه لم يردد عن أن يسحق  
قسماً من إخوته بني البشر ويحكم عليهم بالإعدام الأدبي  
ويسلبهم حقهم في الحياة الحرة الكريمة ، ويقضى على  
شخصيتهم القومية في سبيل أطاع مادية حقيرة .. إنها  
مسئولية كبيرة وجريمة ينوء بها ضمير الرجل الأبيض  
وحضارة الرجل الأبيض أن تكتفل قوى الحضارة  
الغربية لتحطيم مجتمعات بشرية كاملة .

ولكن بفضل صلابة الأحرار وكفاحهم أمكن  
القضاء على عصر القوة الفاشية والبربرية البيضاء . ولم يعد  
في وسع دولة استعمارية اليوم مهما كانت أن تعرض  
سيطرتها على دولة صغيرة بالقوة كما كان الأمر قديماً  
ولقد نما الرأي العام العالمي وازداد وعي الإنسان  
ومطالبته بالحرية والمساواة والعدالة والكرامة والسلام .

واليوم يحاول علماء الغرب التمسح في إفريقية ومجد  
إفريقية ونحجب بعثاتهم القارة المتقبة عن حضاراتها  
القديمة وتراثها العريق الذي عملوا فيه تمزيقاً وتشويهاً ،



# دفاع عن الجريّة

بسم الله تعالى

أن يكتب دفاعاً ، اتصف بالانضاع والمهانة ، عن أمير ألماني انغمس في الأخطاء والخطيئات ، ولكنه كان مرشحاً في خلال بضع سنوات ، أن يصبح ولياً للعرش في المملكة المتحدة (إنجلترا) .

...

في العشرين من يونيو سنة ١٨٣٧ مات ملك بريطانيا «وليم الرابع» في قصر وندسور . ولقد وقع في عصره إصلاحات عديدة في قانون الانتخاب . أما «هنوفر» ، وهي مسقط رأس أسرة «جولف» الحاكمة في بريطانيا منذ سنة ١٧١٤ ، وكانت مرتبطة والمملكة المتحدة برابط شخصي ، فقد وضع لها دستور تشريعي في سنة ١٨٣٣ ، دستور حديث يضمن الحقوق ، ويعين المسؤوليات . وكان من حسنات هذا الدستور أنه أخضع المالية لمراقبة برلمانية ، وزاد إلى سلطة الهيئة التشريعية ، ولكنه ، مع هذا ، لم يتناول مركز الملك واختصاصاته بأى تحوير أو تبديل .

كانت وراثة العرش في «هنوفر» خاضعة للقانون السالى<sup>(١)</sup> ، وهو قانون يحجب النساء من ولاية العرش . فلما مات «وليم الرابع» ، أدى موته إلى انحلال الرباط الشخصي الذي كان يربط «هنوفر» بالمملكة المتحدة . حدث هذا باعتلاء الملكة «فكتوريا» — بنت عم الملك المتوفى ، وكانت عذراء لم تزوج — عرش بريطانيا .

(١) Salic Law : نسبة إلى قبيلة جرمانية كانت تؤلف جزءاً من الفرنجة . وأول من ذكرها المؤرخ «أميانوس» في القرن الرابع الميلادي .

سبعة رجال ، كلهم أساتذة في جامعة صغيرة ، ترفعوا جميعاً عن الانغماس في سياسيات عصرهم . غير أنهم لم يلبثوا أن انحذوا صفّاً واحداً ، ولأول مرة في خلال قرن كامل ، مسوقين بدافع من ضمائرهم ومشاعرهم ، محتجين على الأساليب غير المشروعة التي اتخذت وسيلة إلى الانتقاص من دستور بلادهم .

ومن غير أن يفكروا قليلاً أو كثيراً في سلامة أنفسهم ، عبروا بصراحة عما كان يساور كل مواطن مستقيم الفكر من مخاوف وانفعالات . وكان بعض من هؤلاء السبعة ، من العلماء الذين يمثلون مجدارة غاية ما يصل إليه الشفح ، كل في مجاله العلمي .

غير أن صيتهم الذائع عند مواطنيهم ، لم يكن راجعاً إلى فرائضهم العلمية وحسب ، ولكن إلى استقامة أخلاقهم وصلابة عودهم . ولقد توصلوا بشجاعتهم الأدبية ، أن يصيحوا أبطال الساعة في أمة تؤمن بالقول المأثور : «إن كرامة الإنسان فوق العرش» . ذلك بأن الصفات الخلقية التي اتصفوا بها ، كانت نادرة في تاريخ تلك الأمة .

كانت صيحة الأساتذة السبعة راجعة إلى انتهاك حرمة الدستور في «هنوفر» ، ذلك الانتهاك الذي لم يقتصر أثره الشير ، عند نهاية العقد الثالث من القرن التاسع عشر ، على الأمة الألمانية وحدها ، ولكنه شغل الأذهان في بقية أمم أوروبا جميعاً . لقد كان ذلك الانتهاك مبعث همّ مقيم ساور الدوائر السياسية العليا في أوروبا ، وحفز «الميرستون» ، وزير إنجلترا الكبير ،

مجلس اللوردين<sup>(١)</sup>، كما كان في الوقت ذاته ، السيد الأعظم لحافل «أورانج» ، تلك الحافل التي كان يساور الناس منها الشك في أنها تسعى إلى استبدال «وليم الرابع» «تقديس» بـ «كبرلند الرجعي» . ولما نوقش هذا الأمر في مجلس العموم ، تنصل الدوق منه محتجاً بأن شيئاً من ذلك لم يصل إلى علمه ، وأنه جاهل كل الجاهل بهذه الخطة وأشباهاها . غير أنه بالرغم من تأكيدات هذه ، حمل على أن يحل هذه الحافل . وليس هنالك من دليل قائم على أن الدوق كان على علم بمخطط هذه الحافل ، ولكن من المحتمل أن أغراضها كانت متمشية مع رغباته وميوله . ذلك بأنه كان يعمل للملك «وليم الرابع» حفيظة في نفسه ، ويكن له حقداً في قلبه ، لا لأنه أدخل إصلاحاته الكبيرة على قانون الانتخاب لا غير . بل لأنه عندما أراد الملك أن يعين نائباً لولاية «هنوفر» اختار أخاه الأصغر دوق «كبرديج» ، متخطياً له .

بوصف أنه أمير من البيت المالكي ، كان قد أبدى في ظل الرصاية وفي حكم الملك «وليم الرابع» . وجهة نظره في الإصلاحات الدستورية في «هنوفر» . ولكنه لم يصارح بذلك ولم يجهر به . واقتصر ذلك على مذكرات شخصية أبدى فيها معارضته عند اجتماع مجلس الطبقات في سنة ١٨١٤ ، والإصلاح الدستوري الأول في سنة ١٨١٩ .

وعندما أخذ رأيه شكلياً بوصفه ولياً للعهد في سنة ١٨٣٣ ، عارض في نشر محاضر البرلمان ومخصصات أعضائه ، ولكنه برر القانون وهذا أخاه به . وإجابة لرغبته أصبحت المواد الخاصة بنشر المحاضر ومخصصات الأعضاء . غير أنه بالرغم من موافقته ظاهرياً ، فإنه أفضى سراً بتعليقات مضادة على الدستور الجديد ،

في حين أن عرش «هنوفر» قد علاه حاكم قضى أكثر أيامه في الريف . وكان ذلك لأول مرة في مدى ثلاث وعشرين ومائة سنة . ذلك الحاكم هو «إرنست : دوق كبرلند» ، أخو الملك المتوفى ، وكان في السادسة بعد الستين ، متخذاً لنفسه لقب «إرنست أوجست : ملك هنوفر» .

كان «إرنست أوجست» «أفرد أولاد الملك» جورج الثالث ملك بريطانيا ، وهم ثلاثة عشر عدداً . هذا بالرغم من أنه كان عجولاً يتقصه ضبط النفس ، جاهلاً ، محترقاً للعلم ، حتى لقد كان يبتع مبعوثيه السياسيين بأنهم : «البهايم الذين هم بمثابة مفاسد الأقدام في حقائق الجبر» ، كذئاباً خواناً مأكراً مسرفاً متلاعفاً ، مستغرقاً في الدنن ، مغموراً منذ شبابه في مشكلات وفضائح من كل لون وضرب ، تراوح بين فضائح حب ، وفضائح قتل ، لم تفسر أسبابها ولم تعرف بواطنها . هذا ما وصفه به مؤرخو الإنجليز : «وما يتبعه» معاصروه .

درس عند صباه في جامعة «جوتنجن» ، فلم يتقن حتى اللغة الألمانية . ولكنه برز في الفروسية وركوب الخيل ، قاد كتيبة من القصران في مغزاة الأراضي المنخفضة ، فأبدى شجاعة ورباطة جأش بالغين ، لم يدانها من شيء إلا جبروته وقسوته ، حتى إن القائد الألماني «شيرنهورست» لم يسهه إلا أن يبدى امتعاضه لإزاء ذلك ولا تخفيه .

كان أكبر ما يفخر به أن عذبله الملك «فردريك وليم» ملك بروسيا ، قد أقامه قائداً للواء «الموسار» . أما من حيث المزاج فقد كان حشن الطبع ، بهيمياً متكرراً ، مصعباً خده للناس ، كما أن ملاحظته كانت جافة معبرة عن خبيثات في نفسه . غير أن مظهره كان محسوساً بالفخامة والوقار ، به حسن هندامه وأناقته .

ظل الدوق بعض الزمن زعيماً لقلة المحافظين في

(١) ما يكتبه الصحفيون «مجلس اللوردات» وهو غثا شائع بينهم .

دستور «هنوفر» ، كأنما هو من صنع الدهاوين والوسقة .

دعا «الدُّيَّات»<sup>(١)</sup> للاجتماع في التاسع والعشرين من يونيه . وكان من المتوقع ، عند جمهور الناس ، وبناء على مواد الدستور ، أن يفتتح الملك مجلس «الدُّيَّات» بكتاب يفضي فيه باعتلائه العرش ، ويؤمِّن الدستور . ولكن الأمور جرت على العكس من ذلك ، صمدت لإرادة ملكية تقضى بتعطيل اجتماع المجلس ، وأجلَّ اجتماع المجلس ، الأول والثاني بغير جلبة . وبعد ذلك بقليل أعلن تعيين «فون شيل» رئيساً للوزراء . وفي الوثيقة التي أعلن فيها ولاءه ، ضرب الملك بخط يده على العبارات التي تشير إلى احترامه الدستور والحفاظة عليه . وبذلك بدأ حكمه بانتهاك صارخ لحرمة الحقوق العامة .

كان من رأى «فون شيل» أن يفض مجلس «الدُّيَّات» فوراً ، غير أن «إرنست أوجست» رأى أن هذا الإجراء قد يحدث أزمة غير مأمونة العواقب في تلك البرهة . ذلك بأنه كان يلعب الزمن حتى يحصل على قرض قيمته ثلاثة ملايين «تالر» ، فتردد لهذا في تنفيذ ما يبت عليه النية ، وأرجأه حتى حين .

ولقد أخذ الناس همّ مقيم من جراء تعطيل مجلس «الدُّيَّات» ، وتنصيب «فون شيل» رئيساً للوزراء . وبعد أيام من الشك والريبة ، وتعديداً في الخامس من يولييه ، أصدر الملك ثانياً إراداته الملكية ، معلناً أنه يعتبر أن الدستور غير ملزم له ، لأنه ناقص في كثير من الاختيارات ، وأنه يحتاج إلى إعادة النظر فيه . بل كان في هذه الإرادة إشارة ملتوية ، تنظر إلى أن «فون شيل» والملك كليهما ، يرومان العودة إلى الدستور الرجعي الذي صدر في سنة ١٨١٩ ، وكان

لأنه لم يجد من الشجاعة ما يمكنه من إبداء رأيه جهره . ذلك بأنه لم يشأ أن يزج بنفسه في مأزق ، مرتبطاً بذلك حتى يعلى العرش .

ولقد فرح الشعب الإنجليزي واعتبط كل اغتيال عندما أعلن بعد وفاة الملك «وليم» أنه تحلّص منه بوصفه ملكاً ، فضلاً عن الأمل في أن يغادر إنجلترا أولاً وأخيراً . ومن أجل ألا يفقد لقبه ومركزه باعتباره أميراً بريطانياً ، وعرضت مبلغ ٢١,٠٠٠ جنيه سنوياً ، أعلن مقسماً بالولاء للملكة الصغيرة ، قبل أن يغادر البلاد إلى مقر ملكه .

أما أهل «هنوفر» وكان علمهم بحاكمهم الجديد أقل من علم الإنجليز به ، فقد ابتهجوا بأن أصبح لهم ملك خاص ، بعد مرور أكثر من قرن من الزمان ، يستقر عندهم ، ويقم بين ظهرانيهم .

هبط الدوق ولاية «هنوفر» في الثامن والعشرين من يونيه ، مُظهراً قليلاً من الاكتراث وقليلاً من الاستجابة لمثل ظرفه . وفي اليوم التالي مباشرة هاجس الناس بأن الملك الجديد ، كان في الساعات المتأخرة من ذلك اليوم ، يعقد اجتماعاً وزعيم الحزب الأرستقراطي «هرفون شيل» .

كان «شيل» في القرن الثامن عشر ، من طراز «كوبسلينج»<sup>(٢)</sup> في القرن العشرين ، انحاز اختياراً في العصر نابوليوني إلى «مجلس الدولة» الذي ألقاه «جيروم بوناپرت» وكان أخوه «نابوليون» قد نصبه ملكاً على «هنوفر» . ذلك بالرغم من عقيدته الثابتة في «شروعية الولاية وفي اعتلاء العروش . وبعد سقوط «نابوليون» صمى حينئذ حتى استطاع أن ينحاز إلى الدوائر القائلة «شروعية الولاية» ، وارتد بعد ذلك رجعيّاً من أحبب الرجعيين . ولقد ثبت في عهد الملك «وليم الرابع» بأنه اعترف في محادثاته مع الدوق ، بأن

من الولايات مثل ساكسوني وبافيا وبادن ، تدخل  
«الدييات القدراني»<sup>(١)</sup>. غير أن ملك «هنوفر» قد  
بادر فاعل أن لا يسمح بتدخل حكومة من الحكومات  
في الشئون «هنوفرية» بكتة مجلس من مجالس «الدييات»  
وأخذ القلق يمتد عبر حدود ألمانيا . ففي فرنسا بدأ  
الحديث عن وقوع ثورة ألمانية أشبه بثورة يوليو  
الفرنسية . وأراد رئيس وزراء بريطانيا ، لورد  
«بالمستون» ، أن يقوم ببحوث مستفيضة في  
«هنوفر» ، ليتبين مدى صلاحية الدستور . غير أن  
الملك «إرنست أوجست» رده بجفاء قائلاً إنه سوف  
لا يلقى بأية معلومات من أمر لا علاقة له بأية حكومة فيرلمانية .  
ولقد اعتذر «بالمستون» لجلالته ، كما أن الحكومة  
الفرنسية ، وكانت قد عمدت إلى تأليب الدول الغربية  
الجبراً ، قد ارتدت عن ذلك الموقف ، لما أن رأى  
الملك «لويس فيليب» أن ذلك سوف يثقل من ورائه  
الاضطراب بهذه الزلزل ، كما أنه سوف يقوى الحركة الراديكالية  
في كل البلاد

...

في أوائل شهر أغسطس ، ذهب الملك إلى  
«كارلسباد» مستجماً . وجرت بينه وبين «مترنيخ»  
محادثة في قصر «كونجوزورث» ، ناقش فيها ذلك  
السياسي الفذ ، ظروف السياسة في «هنوفر» مع  
الملك . واتفق كلاهما على معالجة الموقف باللين وأخذ  
الأمور بالهودة والاعتدال ، ليحولاً بذلك دون عرض  
الأمر على «المجلس القدراني» . ذلك بأن الحكومات  
المتتالية ، كانت قد أعلنت في مؤتمر عقد في «فيينا»  
سنة ١٨٣٤ ، بأنها تؤيد كل التأييد ضرورة احترام  
السامير وعدم الاعتداء عليهما ، وأضاف «مترنيخ»  
إلى ذلك ، أن كل ما من شأنه أن يقوى دعائم النظام  
الملكي ومبدأ الملكية ، أمر مرغوب فيه مرحب به ،

يصفى على الحاكم حريات أكبر واختصاصات  
أوسع ، وبخاصة فيما يتعلق بالمسائل المالية .

لم يوقع في هذه الإرادة غير الملك ووزيره الأول  
«فون شيل» . فلأنهما لم يأبها حتى بأن يطلب من بقية  
الوزراء التوقيع معهما في تلك الوثيقة . وتوقع الناس  
أن يعارض الوزراء فيها ، غير أنهم لم يبدوا إلا  
اعتراضات تنقصها الحرارة وينقصها الإيمان ، بل  
قالوا إن الدستور سوف لا يتغير منه إلا توافه لا قيمة لها . أما  
الملك «إرنست أوجست» فقد رفض هذه الاعتراضات  
في كتاب قصير أرسل به إلى «فون شيل» في السابع  
من يوليو . ولم يكن ذلك الكتاب وثيقة سياسية لا  
غير ، بل كان وثيقة أدبية أيضاً . فقد جاء فيه :

«أما وقد اطلعت على الاعتراضات ، فإني أتمنى أنه ما يخل  
بوقاري ، أن أترك تلك الأمور حقيقة رأي وغباني ، ولذلك  
أعلن أن الإرادة التي صدرت مني ، سظل قائمة» .

...

علت صيحة الغضب من جانب الصحافة الألمانية ،  
عند ما أذيع فحوى تلك الإرادة الملكية . فإذا ساع في  
«هنوفر» أن يكون من حق الملك انتهاك حرمة  
الدستور ، فلا شك في أن الدستور سيصبح العوبة في  
جميع الولايات الألمانية . وفوق كل هذا ، فإن ذلك  
الاعتداء الصارخ ، قد اتخذ من جانب «نقيل» وأغد  
على البلاد ، يحاول أن يصبح من حقه أن يقرر ما إذا  
كان الدستور صالحاً أو غير صالح . وظهرت في  
الوقت ذاته نشرات ورسائل أجمعت على مجاهدة ذلك  
«الكبرلندي» . أما أقوى تلك الرسائل ، فرسالة  
كتبها وزير الدولة «جرسوف» لم يطبع منها غير خمس  
وعشرين نسخة ، وظهرت غفلاً من اسم كاتبها .  
ومضت أقوى الصحف الألمانية وأذيعها وأوسعها  
انتشاراً ونفوذاً ، تهاجم «إرنست أوجست» بغير  
هراة .

وطلب كثير من مجالس «الدييات» في كثير

(١) مجلس النواب القدراني في الاتحاد .



أن يفوز الملك برضى الجمهور ، خفضت الضرائب المباشرة بمقدار ١٠٠,٠٠٠ « ثالر » .

إن مثل هذا الانتهاك الصارخ للدستور لم يكن متوقفاً ، فظل الناس في حيرة ، لا يعرفون ماذا يفعلون . وسدى ما توقع الناس أن يتخذ الوزراء الذين هم في الحكم ، أية خطوة كانت . غير أنهم ظلوا صامتين ، واستمسكوا بمناصبهم . أما موقف الموظفين المدنيين ، فكان من أنكذ ما يتصور . ذلك بأنهم كانوا قد أقسموا بالولاء للدستور ١٨٣٤ ، وما لبثوا أن رأوا أنفسهم ، وبمحض إرادة الملك ، في حل من قسمهم بالولاء ، من غير أن تصدر بذلك إرادة برلمانية .

\*\*\*

كان هذا بالذات موقف أساتذة جامعة «جوتنجن»- جوتنجن أوغسطينا القديمة ، التي اكتسبت بالزمن قداسة وشرفاً ، فكانت من أضرق الأكاديميات الحرفانية . لقد ارتطموا بقضية عظيمة ، قضية هل هم أحرار في أن يقسموا بالولاء للملك وللدستور المعاد ، من غير أن يحلهم البرلمان من قسمهم الأول ؟ مع ذبوع هذه الإرادة الملكية ، نبتت فكرة في اللوائح الأكاديمية بأن خطوة ما ينبغي أن تتخذ ، حتى يعرف الملك أن إرادته هذه ، قد فرست على الفيدر العام ضريبة فادحة ، وأوقعت في نكد مرير . وكان الأساتذة « ألبرخت » و « جرفينوس » و « دالمان » أول من رأوا بوضوح أن هذه الخطوة لا يد من أن تتخذ ، وعماء على أن يضموا إليهم لإخوانهم الأساتذة ، وكانوا بعد متقسمين في الرأي .

وبعد أن نوقش الموقف من جميع نواحيه واحتمالاته ، كتبت مذكرة ، وقّع فيها سبعة أساتذة وتقدموا بها إلى مجلس الجامعة . وبلغت هادئة لا يوافقها ضعف أو خضوع ، بين الأساتذة أن القانون الأساسي الصادر في ٢٦ من سبتمبر سنة ١٨٣٣ ، لم ينتصر من الاختصاصات الملكية شيئاً ، وأنه حل العكس من ذلك عمل على إقراعه يوضع

واختتم حديثه بأنه يرغب في أن ينجح الملك في إصلاح الدستور ، مع مراعاة كل الاعتبارات التي ليس من مراعاتها يد . وكان « إرنست أوجست » يود أن يستميل بقية الدويلات الفيدرالية ، وأمرء ألمانيا الجنوبية ، أو على الأقل يضمن سلبتهم الودية . غير أن بعونه إليهم ، لم تفز بطائل إلا قليلاً .

\*\*\*

وانقضى الصيف . غير أن أحداً ما لم يستطع أن يتكهن كيف يستطيع الملك أن يخرج من المعركة التي أشعل نارها . وكان الكساد قد عم أنحاء البلاد ، إذ راجت الأقاويل وعمت الإشاعات ، بأن إلغاء دستور سنة ١٨٣٣ ، وهو قانون البلاد الأساسي ، أصبح أمراً مفروضاً منه مقطوعاً به .

أما الحقيقة فإن « إرنست أوجست » كان قد وقع في ذلك الحين على الرجل الذي كان مهيئاً لأن يصوغ الأسباب القانونية المبررة لتحطيم الدستور ، بالرغم من أن لجتنتين كانتا قد تعاقبتا للبحث عن تلك الأسباب . فقررنا أن الدستور صحيح وأنه صالح قانوناً من جميع الوجوه .

كان ذلك الرجل قانونياً ألمانياً اسمه « لايس » . وكان كهلاً هدته الأيام . بل كان زميل « فون شيل » في خلع « جيروم بونابرت » فخبيل إليه أن في ذلك الأمر فرصته للموتية ، بعد أن ظل متعطلاً سنين عديدة . وكان من رأيه أن الدستور أصبح بغيره قانون ، لأنه منذ سنة ١٨٣٤ لم يفر الدستور بموافقة « ول العهد » (١) وأن الملك قد عدل من بعد ذلك في سودة الدستور . وبناء على ذلك الرأي ، فض مجلس « اللديات » في ٣١ من أكتوبر سنة ١٨١٩ ، وفي اليوم التالي عطل القانون الأساسي ، وأعيد دستور سنة ١٨١٩ مرة أخرى . ومن أجل

(١) كان إرنست أوجست ولياً للعهد في إنجلترا . ولما عرض عليه دستور هنوفر عدل فيه .

وإن «الدييات القنولية» لم يستثن في أي ظرف ، شيئاً من ذلك ، وأن ألمانيا قد أصبحت على أن دستور «هنوفر» نموذج بالحكمة والاعتدال والتبصر .

وجاء في المذكورة أن الموقعين فيها لا يستطيعون ، ما لم يخالفوا ضايرهم ، أن ينسحبوا في أمر جليل كإلغاء القانون الأساسي ، بحكم القوة ، وأنهم فوق ذلك ، متدينون بتسليمهم المستور ، وأنهم يرفضون أن يشتركوا في الانتخابات الجديدة لتأليف مجلس «الولايات» (١) ، أو يقبلوا مقاعد فيه ، وأنه لا يتسنى لهم أن يعترفوا بشرعية جمعية تتعصب بحيث يمكن انتخابها منافساً لقانون الأساسي . وذكروا في ختام المذكورة أنهم ظفروا ، في كل ظرف ، بحلولون طلبهم من التطرف السياسي ، وأن نشاطهم ، يوصف أنهم ملطبن وأسائله ، كان يركن دائماً إلى استغلالهم الثالث . فلذا ما ظهروا أمام طلبهم بأنهم رجال يحضرون في أيمانهم ، ولعمري هذه القبة القلعة ، فإن كل ما يشهدون بتصالحهم من غير ، سوف يلعب ولا ذلك سوى ، ولا يخلت من وولاه أثرًا واختتموا مذكرتهم قائلين : ماذا ينسى الولاء عن جلالة الملك ، إذا صدر عن رجال حشراً بأيامهم ؟

ولقد وقع في هذه الوثيقة التاريخية سبعة أساتذة هم فردريك شاول دلمان : الأستاذ في القانون الدستوري ، وأصبح مشروح القانون الأساسي ، وولف إدموند البرست : أستاذ القانون الألماني ، وجاكوب جريم : أستاذ الميثولوجيا الجرمانية والتاريخ ، وولف جريم : أستاذ الميثولوجيا الجرمانية والتاريخ ، وجورج جوتفريد جريفنوس : أستاذ الأدب ، وجورج أوجست ليواله : أستاذ فقه اللغة ، وولف إدموند فير : من المؤرخين (علماء التاريخ الطبيعي) .

كان أحدهم من مواطني «هنوفر» ، هو «ليواله» ، أما الآخرون فمن ولايات جرمانية متفرقة . كان الأخوان «جريم» من مختارية «ميس» ، و «جريفنوس» من «هيس دالمشاد» ، و «دلمان» من «مكلنبج» ، و «أبرغت» من «بروسيا الغربية» ، و «فير» من «ساكسون» البروسية . ولم يكن منهم من أخذ بضلع في السياسة من قبل ، بل إنهم جميعاً قد وقفوا أعمارهم وجهودهم على الدراسات العلمية .

(١) States-General ، يتألف من النبلاء والأكليروس والعامة .

من الواقع أن «دلمان» ظل يضع سنوات عضواً في «الدييات» مثلاً للجامعة ، ولكنه ناصر الحكومة دائماً . ولما تقدم الأحرار إلى المجلس ليقرر العفو عن ثوار سنة ١٨٣٩ ، قام «دلمان» غاضباً وهاجم الأحرار قال : «إن الانتفاض على أي شيء حبيب لبي البشر ، والمخرج على كل غروب الولاء» ليس ما يثير الإحباط . وليس في هذه قلنا من بحرية مطلقة للقيمة . وإن الإنسان ليفسر بالأغراض الخيرية . وإذا يكون الحكم على المرء جزءاً من وسائله . وإلى لأعتقد أن السياسة لا يمكن أن تنفصل عن الفضائل . أما إذا كنت على غير الحق فيما أعتقد ، فإني سوف لا أصغر بساعة واحدة في سبيل السياسة »

لم يترك «دلمان» من شك في أن يحمل الأوجسية لروح المحافظة على روح الإصلاح ، على اعتناء الانتمسك بالمحافظة ، سالة تسبق وقوع الإصلاح بالنفس . أما بقية الموقعين في الوثيقة ، فلا شك في أنهم كانوا جميعاً من المحافظين تفكيراً وفعلًا ، فعملوا بذلك عن الروح الراديكالية كل البعد .

وانشغلت أخبار معارضة هؤلاء السبعة الأساتذة في كل ألمانيا انتشار النار في الهشيم . وبعد أيام قلائل نشرت الصحف نص «الوثيقة» . وما إن نشر ، حتى اختفى كل أثر للخوف والتردد في «هنوفر» . وانضم إليهم هيئات أخرى تحتج وتعترض . وهتف الطلاب لأساتذتهم وحيوهم مؤيدين . وشعرت الهيئات المشرفة على الجامعة بقلق معنت ، وطلب المشرف عليها من الأساتذة أن يسحبوا وثيقتهم غير أنهم رفضوا .

وثارت ثائرة الملك عند ما وصله خبر ذلك الاعتراض ، وصرح بأن من المسلم به ، أن مطالبه ، والأساتذة منهم خاصة ، يخضعون لإرادته بغير قيد أو شرط . وقال إن عليهم ذلك ، بالرغم من أنهم أقاموا احتياجه على أسس تتعلق بالنفس والكرامة ، عمل ثوري وبمثابة خيانة وطني .

ولقد قام في ذهنه بداة ، أن يلعب إلى «جوتنجن» ليقض على الحركة بالقوة ، ولكنه عدل عن ذلك ، ورأى أن ينتقل إلى قصر «روذنكرن» بقرية من الجملعة ، ولا يبعد عنها أكثر من ساعات قلائل شيئاً على القدمين ،

إذا اجبوا على لقاء المستور ، إذ لا لوجب أن يستقبلوا من مناسبتهم . أما المقال الثاني فتأيد للكلمة التي ألقاها وفد الجامعة بحضور الملك في قصر «روذنكرخن» ، مع النص الكامل لها ، ثم ذكرت الجريدة أن أعضاء الوفد قد تكلموا على أعتابهم ، وانشقوا كلية كل زملائهم . . وكان نشر هذا المقال موضع استنكار عم جميع أنحاء ألمانيا . وطلب وكيل الجامعة أن يصح الوضع علانية ، ولكنه منع من ذلك .

انفرد اثنان من الأسئلة السبعة - وكلاهما من أعضاء مجلس الجامعة ، وكانا يعرفان تفصيل ما حدث في المقابلة الملكية - بأن نشرنا مقالا في جريدة «كاسلر زيتونج» أثبتا فيه أن «هنوفرش زيتونج» قد شوهت القضية ، وأنها روجت لأكوبة تتالفتها صف ألمانيا .

بعد فترة وجيزة بدأت إجراءات المحاكمة تلقاء السبعة العلماء . ففي الرابع من ديسمبر مثّلوا أمام مجلس تأديب الجامعة ، وسئلوا عن حفظ كل منهم في الاشتراك في إذاعة نص وثيقة المعارضة . ولقد علقت أهمية كبرى على مسألة لم تدّر أبداً في أذهانهم . فمن قبل ذلك اليوم ، وفي الثاني عشر من نوفمبر تحدّثوا ، أي بعد كتابة الوثيقة بيوم واحد ، نشرت جريدة إخبارية اسمها «رسول كاليجلاني» الفرنسية ، أن سبعة أساتذة من جامعة «جوتنجن» قد رفضوا أن يوقعوا في رسالة موجهة إلى الملك ، يطعنون فيها ولازم له . فهذا الخبر ، وبخاصة ذكر «سبعة أساتذة» بالذات في سياقه ، أحميا في ذهن المسؤولين فكرة أن هنالك علاقة بين تلك الجريدة وأساتذة الجامعة .

قرر جميعهم أن ليس لهم من علاقة بالذات الفرنسية ، كما ذكر الأستاذ «جاكوب جريم» في دفاعه ، أنه حتى صحيفة التلمن عشر من نوفمبر ، لم يكونوا يعرفون كم منهم سوف يوقعون في الوثيقة ، أخمسة أم سبعة أم أكثر من ذلك وذكر بعضهم أنهم كتبوا عدة نسخ من وثيقتهم ، وألحقوا عليها بعض أصفياتهم ، أو أرسلوا بها إلى خارج «جوتنجن» .

وما إن انتهى المجلس من سماع أقوالهم ، حتى بادروا

لبعض حباه هناك مع الأسئلة . وعن طريق نائب مدير الجامعة أوعز إلى مجلس الجامعة الأعلى ، أن يتوجه وفد يمثل عند الملك ، واتفق أن يرأس الوفد الأستاذ «برجان» نائب المدير وعميد كلية الحقوق ، وسلفه في ذلك المنصب ، وعمداء بقية الكليات ، ليحادثوا الملك في الموقف .

إن احتجاج الأسئلة السبعة ، لم يناقش فيه عند ذلك ، ولم ينتق الوفد تعليقات بما يفعل أعضاؤه ، لو أن الأمر قد عرض للبحث .

وصل أعضاء الوفد إلى ذلك القصر ذات يوم في أواخر نوفمبر ، فاستقبله أحد رجال البلاط ، هو ابن الوزير «فون شيل» ، فسألم: هل أعدوا كلمة يلقونها في حفرة الملك ، وإلا سوف لا يظنون أنه فاعل رئيس الوفد كلمة رفضها رجل الحاشية بحجة أنها غير كافية . وبدلاً من أن ينصرف الوفد من غير أن يقابل الملك ، أجمع الأعضاء على أن تعد كلمة أخرى يبررون فيها من قنهم بوليا الملك الطبية ، ويؤكدون فيها أنهم سوف لا ينجسوا بل آراء أومتارح لا تلتق ومنهجهم هذا .

كانت هذه الكلمة مرضية ، فوافق عليها «شيل» الصغير ، وسمح لرجال الوفد أن يمثلوا لدى الملك ، وأن تتلى كلمتهم . وفي أثناء الحديث أشار الملك إلى وثيقة الأسئلة السبعة ، وأكد أنه كرمأ منه ومنأ ، سوف لا يعاقب الجائدة ، ولكنه سوف يقتصر من الضتين وصرف الوفد غير الأستاذ «برجان» الذي ظل في حفرة الملك بعض الوقت . وعند عودة الوفد إلى «جوتنجن» لم يفض أحد من أعضائه بما وقع جهرة ، بل ظل الأمر حديثاً يتناقل سراً .

\*\*\*

في أوائل ديسمبر نشرت صحيفة شبه رسمية اسمها «هنوفرش زيتونج» مقالين تناولت فيهما موقف الأسئلة السبعة ، ومجاذبات قصر «روذنكرخن» أما المقال الأول فيقول إن موقف الأسئلة غير مشروع ، لأنهم

كان هذا الأمر الاستبدادي ، انتهاكاً جديداً لحزمة القانون . ولم يكن صحيحاً أن هؤلاء الأساتذة قد شقوا عصا الطاعة . بل إنهم باعتبارهم موظفين مدنيين ، لم ما لبقية المواطنين من حق أن يعبروا عن رأيهم في أعمال التاج . وفوق هذا وذلك ، كانوا ملزمين بأن يدافعوا عن الدستور ، تلقاء ما أقسموا على ذلك من قبل .

\*\*\*

في سنة ١٨١٩ صدر قانون فدرالي ، بين بوضوح كل الحالات التي يصح معها فصل الأساتذة والمعلمين من وظائفهم . وليس في هذا القانون حالة واحدة يمكن أن تنطبق على هؤلاء الأساتذة . فلهم لم يظهروا عجزاً في كتاباتهم أو القيام بمهامهم ، ولم ينشروا تعاليم خبيثة ، من شأنها أن تعرض أمن الدولة .

لقد عم الاستياء جميع الأساتذة والطلبة والمواطنين في بلدة « جوتنجن » ، عند ما أذيع أن السبعة الأساتذة قد فصلوا من وظائفهم ، وأن ثلاثة من أقرهم إلى القلوب قد أبعدها من البلاد . وكان الطلبة قد وقفوا في صف الأساتذة منذ أن نشر نص وثيقتهم ، فضلاً عن أنهم نقلوا منها نسخاً وزعوها في الناس . ووصف « دلمان » بأنه رجل « الكلبة والقتل » ، ووقعت مصاصمات بين المواطنين ورجال الشرطة . ومن أجل أن تتفادى الحكومة أحداثاً أخرى ، أرسلت سبعائة من الجنود إلى « جوتنجن » . ولقد قال الأستاذ « ايوالد » فيما بعد ، إن هؤلاء الجنود قد تصرفوا كما لو كانوا قد خرجوا منتصرين من معركة كبرى على عو عنده شيد المراس ، ومشوا مستعرضين قوتهم في شوارع المدينة صائحين صائحين .

وتحوّل كثير من رصفاء الأساتذة السبعة إلى تأييدهم . فإن كثيراً منهم قد شاركوهم وجهة نظرهم في مرسوم ١٥ من نوفمبر . غير أنهم آثروا السكوت لأنهم لم يجسروا على الإفضاء بآرائهم . وخشى آخرون — كالأستاذ « جاوس » العالم الطبيعي ، والفيلسوف

السبعة إلى رفع مذكرة جديدة أنهاها إلى وكيل الجامعة كرروا فيها ما جاء بوثيقتهم الأولى ، ونقضوا كل شئ ساور موقفهم من حيث اتصالح بما نشرت الصحيفة الفرنسية ، واختتموها قائلين : « إن الآراء التي انطوت عليها الثورة الفرنسية ، ليست من آرائنا في شيء . وليست الثورة الفرنسية هي التي خفنا أن نكذ وأن نعمل لنرفع عن كراحتنا وبطريق التعبير الصريح عن إيماننا الذي هو رسالة ضمير ووجدان ، قديماً أديباً ، بنا منه خشية وخوف ، يشرع بظلمة كثير من زملائنا ومواطنينا ، عن لا يصبرون على الجهر بما يشعرون به . إننا لم نخط علناً بالرسالة ، بل اجتهدنا في أن نفتح ذوى قربانا وأصنافنا وزملائنا ، إننا لم نعمل إلا ما يجب أن يعمل بطريق قانوني مشروع . وليس في هذا شيء من التصورية الفرنسية » .

\*\*\*

بعد ثلاثة أيام وفد على مراقب الجامعة ضابط من فرقة « الدراجون » وسلمه رسالة محتومة ، فيادر هذا إلى دعوة الأساتذة السبعة إلى اجتماع يعقد في أصيل ذلك اليوم ، وكان الرابع عشر من ديسمبر . وهنالك تسلّم كل منهم قراراً يفصله من الجامعة بأمر ملكي موقع فيه من الملك ومن الوزير الأول « فوك شيل » . وجاء في ذلك الأمر أن الملك قد صحت إرادته على أن يمنع من المصادقة القانونية فيما يخص بالنشر في الصحف ، ولكنه « استجابة للترامات مقدسة » ، حد إلى إجراء حاسم تلقاء الذين وقفوا في ذلك الاحتجاج ، لينفاد بذلك نتائج سلطة ذات بال . وأنهم نقضوا فرض الطاعة لحاكمهم الشرعي وسيدهم . وأنكروا أن الملك الذي عيّنهم في مناصبهم والذي أقسموا على خدمته ، هو وحده الذي له أن يفرجهم من قسمهم ، وأن الواجب الذي فرضته عليه العناية الإلهية ، يحتمه من السباح لرجال لهم مثل تلك الآراء ، أن يباشروا وظائفهم بوصف أنهم مسلمون ، وإلا فإنه يخشى أن تصبح التواضع التي ترسو عليها الدولة ، مهددة لمسلمة .

أما الأساتذة الثلاثة الذين اعترفوا بأنهم أساطوا بعض أسدائهم بصيغة الواقع ، فقد أمروا أن ينادوا البلاد في مدى ثلاثة أيام ، فإن لم يفعلوا سوف تتخذ لتفادهم إجراءات المصادرة جزاء ما ووجوا القويقة بالنشر ، وأنهم سوف يحتجزون في مكان ما في « هوفز » . هذا مع التصح لإدارة الجامعة بأن تصرف لهم مرتباتهم حتى يوم الفصل .

« جريم » حادث خروجه من « هنوفر » في رسالة له عنوانها « حول طردى » فقال : « اختلط كثير من الفلاحين بالطلبة » ليروا الرجال الذين ذاع صيتهم بسرعة في أنحاء ألمانيا . « وتقدم قلاح صغير السن خيول يستغنى من وراء جده التي تملكته نحو « جريم » وقالت - « صالح هذا السيد . إنه لاسى » ويقول : « وأين وميت هذا الوصف ؟ في وطني ومسطع رأسى » الذى قيلنى ، ورفض صاحبه .

• • •

بانهاك حرمة الدستور ، لم يربح ملك « هنوفر » من شيء إلا الشك والحقد ، يعتلجان في قلوب أهل ألمانيا أجمعين . ولم يتكشف عمله نقاء السبعة العلماء إلا عن صيت عريض تلقوه من يدى الملك سائفاً هيناً بين يوم وليلة . لقد مجدهم الكتاب والشعراء . ونشرت صحيفة قصة في ثوب أسطورة وقمت في سنة ١٨٣٧ ، قصت فيها حكاية الملك الأحق والعهد المتلك والسبعة الأوفياء ، والثلاثة المبعدين . وانتهت القصة بأن يصبح الطفل الذى يستمع إلى القصة : « ستيفل » طي حفاً مكن ؟

وقامت مظاهرات للتعبير عن التأييد والعطف في جميع أنحاء ألمانيا ، بله الكتب والرسائل التي عبر فيها كاتبوها عن معاني الإعجاب والثقة ، حملت إليهم من أركان الدنيا الأربعة . وأرسل أساتذة جامعة « كييل » كتاب تقدير إلى زميلهم « دالمان » . وأيد اتحاد « المينج » الأستاذ « ألبرخت » مؤاظهم . وأبدوا نحوه أعظم مظاهر العطف . وأضفت جامعة « كونيغزبرج » درجات الشرف عليه وعلى زميله « فير » . وأطلق أحد أصحاب السفن اسم « دالمان » على إحدى سفنه . وصنع أصحاب مخازن لعب الأطفال لعبة تمثل توديع الطلبة لأساتذتهم في « فزنهاوفن » . وعلى الصحف وأنابيب الماء رسمت صور العلماء السبعة الذين أقدموا على أن يواجهوا الملك بكلمة الحق . وتألفت في « ليبزج » جمعية ، سرعان ما امتدت فروعها إلى جميع أنحاء ألمانيا ، لجمع الاكتتابات التي يمكن

« هيربارت » ، والأستاذ « هوجو » - أن يشتركوا في الاجتماع ، غدية أن تقف صيلة العمل للشر ، وتضطرب الحياة الأكاديمية الماددة ، إذا ما أعنت الجملات بفسل في السيلة . في حين أن آخرين تكصوا عن التأييد خصوصاً باعتبار أن أقل من هذه قيمة . لقد عشوا - كما قال الأستاذ « چاكوب جريم » فيما بعد - أن نصف الأحداث يهتفهم وراحتهم ، في حين ينشد الآخرون مصالحهم القنعية .

• • •

في اليوم السابق على فصل الأساتذة من وظائفهم . أرسل سنة من أساتذة الجامعة رسائل إلى رؤساء تحرير صحف ألمانية مختلفة ، استذكروا فيها الاعتداء على كرامة رصفائهم على صفحات جريدة « هنوفرش زيتونج » ، وأيدوهم ببيانات هادئة رصينة ، في موقفهم السياسى . وخوفاً من أن يتطور الموقف تطوراً سيئاً ، عدل الملك عن اتخاذ أى إجراء تلقاء هؤلاء السنة . وبالرغم من ذلك فإن الوزير « فون شيل » قد عاود الكرة ، فنشر في هذه الجريدة ألهامات التي أقيمت عن الأساتذة السبعة صحة من جميع الوجوه . - am - الجسسى أن جريدة « كاسلر زيتونج » قد نشرت في اليوم نفسه ، ويتوقع أولئك الذين شهدوا اجتماع القصر الملكى في « روذنكرخن » ، مقالاً أبان عن كذب الوزير وفساد قوله ، وغيباته لسمعية .

كان الأجل الممنوح للأساتذة السبعة ينتهى يوم الأحد . وخشية من أن يقوم الطلبة بمظاهرات في « جوتنجن » صدر الأمر إلى حوذية المدينة ألا يتقلوا شيئاً إلى خارجها . ومن أجل أن يؤدوا واجب التوديع لأساتذتهم ، قصد مئات من الطلبة في الصباح الباكر إلى قرية « فزنهاوفن » ، على حدود إقليم « هيس » . وسبق الثلاثة « دالمان » و« جريفنوس » و« چاكوب جريم » سوق المحرمين ، ومن حولهم حرس شديد ، إلى تلك القرية . حيث قابلهم طلبتهم بهتافات مدوية . وكان الفئدنى القائم عند الجنود مزدهماً بالناس . ولقد وصف

أو مجتمعين في مسألة الدستور وموقفهم منه . قال « دالمان » في إحدى رسائله : « أريد أن أترك البلاد رجلاً شريفاً ، إلى أرض مبتأناً أن أكذب على ملايكي أو أعصمهم عن الحق . إن ألمانيا الآن في الميزان . فلذا كان من المين أن يتسلم الدستور كما لو كان لعبة صبيان ، يلزم من أن صلاحية جميع عليها ، وأن يتبع ذلك تحت سبع « ألبات الفولاذ » ويصره ، فإن مال ألمانيا ، حالاً ومستقبلاً ، يكون في مهب الأعداء »

أما عن الأسباب التي حملته على أن يقاوم إرادة الملك ، وأن يحتج على مرسومه ، فإنه قال في رسالة عنوانها « انضمام التوضيح » : إن سالفه لم يكن الاحتفاظ بوتلفته ، ولا الاحتذاء على القانون الأساسي ، ولا أن يفتل إلى مترك السياسة ، ولكن حصل على ذلك بوحى من ضميره . وقال « جاكوب جريم » في رسائله « حول طردى » ، وقد نشرت في « سويسرا » أيضاً :

« الجهد سدد يسود ويبقى . إن العالم مليء برجال يفكرون باستقامة ويعملون بأمانة . ولكن عند ما يدعهم دامي السيل ، فتنطرب قلوبهم وتنطرح بالرب والشكوك وتوثق . وفي التاريخ وقائع كثيرة إلى رجال أجوار نبلاء ، أقنعوا على الجهر بالقول الحق في موازنة الملك ، رغلاً ما نشر أوتوفم ، وكثيراً ما يبورون وتلف نفوسهم . غير أن أسياسهم تظل باقية ، فلا تجور ولا تنتشر » .

وقال في مقدمة رسائله : « إن « دوق كيرلند » وله في أوسع بلاد العالم حرية ، وأكثرها أئناً وأسمداً حالاً ، وتشرب روح الدستور البريغاتي منذ نعومة أظفاره . فما ينبغي له إذن ، أن يشعر بكل الانطباعات التي تخلفها في الذهن تلك النطقة ، وذلك التنظيم المبرك الأطراف التي يمارسه السلطان البريغاتي على كل إنسان كائناً من كان ، وبالأحرى على كل مواطن من المواطنين . ما من شيء هناك يكون أفضل في الشعور ، وأشد إيلاساً لشعور ، وأجمل في الاستشارة والانتصام ، من أن تتبكت حرمة الحقوق العامة التي تقوم المنظمات المدنية سارماً أميناً عليها » .

ولقد ذاعت هذه الرسائل ذيوماً كبيراً ، وأيدت روح المقاومة تلقاء ملك « هنوفر » ، واعتداله على الدستور . وعلى حين غرة ظهر منبه جديد أيد من حركة التحرر والخلّاص من استبداد العرش ، والفث في عضد السلطان الفردى . فلان هذه الأحداث حملت برنس « مرنينخ » أن يكتب إلى مثله في « هنوفر » قائلاً « لم أشك ساعة واحدة في أن اللاجئين السياسيين على اعتناق أولاهم ،

طريقها أن تحفظ هؤلاء العلماء بكرامتهم المعاشية ، بعد أن انقطع عنهم دخلهم الحلال ، وحرمو من حقوقهم المدنية ، حتى تنبأ لهم فرصة العودة إلى الحلال السوية .

\*\*\*

كان الناس في مملكة « هنوفر » أكثر تحفظاً ، خشية أن يثيروا غضب الملك . ولكن موظفاً كبيراً قد صرح جهرة قائلاً : « إننا لا نخشى أن نعارض الملك . . . إن سبة أسئلة قد فعلوا ذلك من قبل » . وقال آخر في استقالته « إننى مسدد لأن أوقع في أية وثيقة . . . لنا إلا كلاباً ضعفاً » وحاول البعض أن يتخلصوا من ولائهم للدستور ومن حساب الضمير قائلين بأن التزامهم قبل الملك ، كانت سابقة في الزمن على التزامهم نحو الدستور . وحاول آخرون أن يتخلصوا من شكوكهم ، فقالوا إن الملك هو الذى أدخل في القسم الذى يقسمه موظفو الدولة ، الولاء للدستور واستمراره . ولكن لم يتناصر « إرنست أوجست » ووزير « فون شيل » غير قلة منهم . وكان كل رجعى يحاول الانتصاف من شأن هؤلاء الأساتذة ، موضعاً للانتقام الجمهور وحققه . أما القسم البلجيد الذى طلبه الملك من موظفى الدولة أن يقسموا به ، فقد أقسم به كثير منهم مع الإشارة إلى صلاحية القانون الأساسى لبلاد ، وإلى توليده . وأقسم قضاة محكمة « رسل » العليا . وتبعهم قضاة المحاكم الأخرى ، قسماً مشروطاً بتحفظات . ولقد خشي الوزير « فون شيل » غضبة الرأى العام ، فأقنع عن طرد الموظفين أو محاكمتهم . بل ذهب إلى أكثر من ذلك ، بأن مضى يخفى اعتراضاتهم ، ويحاول أن ينسأها . ولقد أرضى الموظفون أنفسهم بأن توهموا أنهم قاموا بواجب الاحتجاج على الموقف ، وعبروا عن منطقتهم عليه .

أما السبعة العلماء ، فاتخذوا موقفاً آخر . فضى غضبون بضعة الأشهر التى تلت طردهم ، ظهر في « سويسرا » وفي « ساكسونى » وغيرها من البلاد ، منشورات يبررون فيها موقفهم ، ويناقشون ، فرادى

ثلاثة رجال ، كان يعلم حق العلم أنهم سوف لا يدينون الأستاذ «يسلر» .

وسمحت جامعة «ليزج» لبعض منهم أن يحاضر بها ، فاثبت الملك أن حظر على الطلبة الهنوفريين أن يطلبوا العلم فيها . ولم يكن بهذه الجامعة منهم غير طالب واحد . وتقديراً لغضب الملك لم يعين الأستاذ «ألرخت» أستاذاً في جامعة «ليزج» ، بل سمح له أن يلقي محاضرات خاصة ، مما كان سبباً في أن يسمى «الأستاذ الخاص» . ولم يستطع أن يشغل وظيفة مدنية إلا من بعد ذلك بسنين عديدة .

لقد كان من الفضل الكبير أن تسمح السلطات في «ساكسوني» أن ينشر باسم هؤلاء السبعة بيان يتناول حقيقة الموقف ، بعد أن رفع منه كل الانتقادات التي وجهها الأستاذ «دالمان» إلى معارضيه وخصومه . واتخذ بلاط «الدانمرك» موقفاً مؤيداً لموقف الملك . فإن مساعدة جامعة «كييل» عند ما أقدموا على كتابة رسالة تأييد للأستاذ «دالمان» ووصفائه زجروا ووجه إليهم أعنف اللوم ، وأمر المراقبون في إقليم «شلفيج هولشتين» أن يتخذوا حيطتهم حذراً أن «يصد من الرأى العام صوت مرفوع» قد يكون سبباً في إحباط ما يسعى إليه الملك «إرنست أوجست» . ويفسد تدبيراته . وكذلك فعلت حكومة «هيس» . فلما رفضت أن يعطى للأستاذ «جرفينوس» وظيفة ثانوية ، هي وظيفة «حازن المحفوظات» .

وكان هنالك أمل في دوائر حكومة «بروسيا» أن يسمح الملك «فردريك وليم الرابع» بتعيين أربعة منهم في وظائف جامعية ، هم الأخوان «جريم» والأستاذ «دالمان» والأستاذ «ألرخت» . وانصلت «بيتينا فون أرني»<sup>(١)</sup> بولي العهد عن طريق المشرع المعروف

ولففين لم يعملون سوى ابتداء قيام الثورة ، يستغلون من مظاهر التلق في ملكة «هنوفر» وسيلة إلى أغراضهم .

فقد عمد لاجشو «هنوفر» إلى إصدار منشورات في صورة كتيبات ورسائل في «سويسرا» احتجاجاً على موقف الملك واعتدائه على الدستور ، وكان من أثرها أن تجددت المظاهرات في شهر مارس من سنة ١٨٤٨ في «جوتنجن» ، تؤيدها أخريات في أنحاء متفرقة من «هنوفر» .

• • •

في أثناء هذه الحركة ظل «إرنست أوجست» ثابت اليقين في أن أعداءه سوف يخفضون ويقبلون عن موقعهم . قال ذات يوم للعالم الكبير «اسكندر فون هومبولد» : «إن الأساتذة واللويسات والفاضلات في الفناج (١) ، يمكن لئال أن يفرحوا» .

أما لقاء السبعة العلماء ، فقد كان واحداً مخدوعاً عن الحقيقة ، حتى لقد ثار ثورة عارمة على أعمال هذه المبرزين . كما ساهم أو «السبعة الشباب الملاحين» كما وصفهم ، فعمل على أن يضارهم بكل ما لديه من قوة وسلطان ، عامداً إلى أن يمنع تعيينهم في جامعات أخرى ، وأن يوق نشر رسائلهم التي ينشرونها دفاعاً عن موقعهم .

فقد كان «دالمان» لاجشاً في «ليزج» ثم في «جينا» . وشرح للأستاذية في جامعة «مكلنبج» . غير أن الملك أشار إلى البلاط في «شفين» و«أوسترتز» أن هذا ما لا يروق في نظره ، فأستقط الرشيع .

ونشر الأستاذ «جيورج يسلر» رسالة يؤيد فيها الأساتذة السبعة . فبادر «إرنست أوجست» بأن طلب من أرشيدوق «مكلنبج» أن يعاقبه . ومن أجل ألا يقضب الملك ، ألف الأرشيدوق لجنة تحقيق من

(١) كاتبة ورائدة من والدات الحركة النسوية في ألمانيا في أواخر القرن التاسع عشر .

جرح» أن يزور أعاء ، وكان قد بقي في «جوتنجن» ،  
فصدر أمر رسي بأن يعاد من حيث أتى . ولما أراد الأساتذة  
«الملائن» و «جرفيتوس» و «جاكوب جرح» بعد عشر سنوات  
من تاريخ موقعهم التبادل ، أن يزوروا جاسنهم ، أتت «إرنست  
أوجست» إلى وزير التعليم بأن أمر الإصاحا ما يزال قائماً .

\*\*\*

من أجل أن يثبت السبعة العلماء أن أمر إقصائهم غير  
قائم شرعاً ، عمدوا إلى رفع دعوى يطالبون فيها  
بمرتبات نصف سنة . غير أن «إرنست أوجست» ،  
جرباً على أسلوبه المعروف ، حاول أن يقلد يد القانون  
عن إضفاء الحق على مستحقه ، فأوعز إلى الإدارة  
القضائية ، عن طريق «ليست» صفيه وحيمه ، أن  
ترفض إعطائهم إذناً بالخصومة . غير أن رئيس تلك  
الإدارة رفض أن يدعن لتلك الإعفاء . ولقد غشى  
«إرنست أوجست» تلقاء ذلك ، أن يعتمد الأساتذة  
إلى اللقى في دعوائهم القضائية ، ولما أن يسيطروا الأمر أمام مجلس  
المدات المعدل . ولكن يتفادى الملك هذا الموقف ، ارتد  
لدى «مجلس علم القضاء» ، وبذلك ينتهى الأمر . ولقد  
تأجل اتخاذ ذلك القرار حتى سنة ١٨٤٦ ، عندما تيسر  
تأليف مجلس للدولة يرضى أطماع الملك ، قضى بأن  
الطرد ومنع صرف المرتبات ، أمران يدعنان في اختصاصات الملك ،  
وعلى ذلك ينهى للإدارة القضائية أن ترفض إصدار إذن بالخصومة .

\*\*\*

بقدر ما أضفى على هؤلاء الأساتذة من صيت  
وتشاريف ، خسرت جامعة «جوتنجن» بإقصائهم  
عنها الشيء الكثير .

إن «جورجيا أوغسطينا»<sup>(١)</sup> القديمة قد فقدت  
الكثير من جاهها وعظمتها وسمعتها ، ولم تسترد مكانتها  
الأولى من بعد ذلك . غادرها الطلبة الأجانب لأن طرد  
الأساتذة ، كان خسارة يعسر تعويضها . وعيناً ما حاول  
مجلس الجامعة المرة بعد المرة ، أن يؤذن بعودة الأساتذة

(١) جامعة جوتنجن ، كما صيت منه تأسيسها .

«سافيني» ، وكاد الأمر يتم ، لولا أن وقع ما يؤسف  
له . فإن أمر التعيين كان من اختصاص الوزير «فون  
زوخوف» ، وهو ممن عارضوا اعتداء «إرنست  
أوجست» على الدستور ، ولكنه كان يعتقد في الوقت  
ذاته أن اعتراض الأساتذة السبعة ، تدخل غير مستحب  
وتقحم في السياسة العليا للدولة . وكان يعلم فوق ذلك  
أن «الملك فريدريك وليم» يحاول ألا يأتي شيئاً  
يغضب «إرنست أوجست» ، فنع نشر كل ما له  
علاقة بالأساتذة السبعة أو يصدر عنهم من بيانات . ومن  
أجل أن يعمل «زوخوف» على إصدار أمر التعيين ،  
أرسل إليه سياسى معروف من الأحرار نسخة من  
كتاب «أليش» ، الذى أرسل به إلى الأستاذ  
«البرخت» . ولقد استثم «زوخوف» ربح الخطر  
يساور الدولة من أعناء مختلفة ، وبلاحتها من جهات  
متفرقة ، فوافق بعد إغراء ، أن يكتب رداً على  
الكتاب . وكان رداً أكسبه معابة قال :

«ليس من حق الحكوم أو من المحكوم عليه أن يزدل لرجال لها حق  
بمقتضى وجهة نظره المحددة الضيقة مروان يزدل بشروريتها علانية ،  
وبقسوة تشوبها الكبرياء» .

لم يشذ عن القاعدة إلا «وليم» ملك «فورتمبرج» .  
فإنه تحدى آل «جوليف» وتصدى لبعضهم ، فعين  
الأستاذ «اوبولد» في جامعة «توبنجن» . وسرعان  
ما صدر الأمر إلى المتوفقين ألا يدرسوا في تلك  
الجامعة .

بعد سنة من ذلك التاريخ ، التقى الملكان في  
اجتماع برلين ، فسأل «إرنست أوجست» الملك  
«وليم» ، وهو من جرمان الجنوب : «لماذا وظف في  
الجامعة أستاذاً طرده مو ؟ فأجاب «وليم» : «لهذا السبب  
بالذات» .

وهكذا عمل «إرنست أوجست» بطريقة لا تحلق  
ملكاً ، حتى يشعر السبعة الطرداء ، بقوة وجبروته . -  
قبل إنه بعد إقصاء الأساتذة بضعة أسابيع ، أراد جاكوب



١٨٤٠ ، ويعبر ثماني سنوات أصبح «جاكوب جريم» عضواً في الجمعية القومية في «فرانكفورت» . وعاد المستشرق «أبولد» إلى جامعة «توبنجن» بعد إقامة قصيرة في «لندن» ، وظل حتى بعد ثورة ١٨٤٨ أستاذاً بها . وبالرغم من أنه غير يهودي ، فقد اشتهر بكتابه «تاريخ الأمة الإسرائيلية» . وبعد أن اندمجت «هونفر» في مملكة «بروسيا» سنة ١٨٦٦ ، رفض أن يقسم بين الولاء للملك «وولف» واضطر من أجل ذلك أن يستقيل من منصبه مرة أخرى . ولقد استطاع الحزب الهونفري المناصر لأسرة «جوليف» أن يمهّد له الطريق إلى كرسي في مجلس الدييات الفدرالي بشلي ألمانيا في سنة ١٨٦٧ ، وبعد أن قام «الريخ» فاز بكرسي في «الريخستاج» .

وعاد «فير» إلى «جوتنجن» في سنة ١٨٤٧ ، بعد أن حاضر في «ليبنج» ست سنوات . وبالإشتراك مع العلامة «جاس» الشهير ، اخترع المرققة الكهربائية<sup>(١)</sup> . ولا يزال حتى اليوم مذكوراً بأنه من مستكشفي النظرية الموجية .

وعين «جرفينوس» أستاذاً للأدب الألماني سنة ١٨٤٤ في جامعة «هيدلبرج» . وبالإضافة إلى مؤلفه «تاريخ الأدب الألماني» اشتهر بكتابين أولهما «شكير» وثانيهما «شكير ومدد» ، ذاع صيتهما في أوروبا ، كما عرفا عند الإنجليز خاصة . وكان واحداً من مؤسسي جريدة «ديتش زيتونج» ، وعضواً في برلمان «فرانكفورت» في سنة ١٨٤٨ ، ولكنه استقال بعد بضعة أشهر ، لأن التطورات السياسية لم ترضه ، وانضم بعد ذلك إلى العصبة التي قاومت توحيد ألمانيا في عهد «بيسارك» ، لأنهم أنسوا من أنفسهم علم القدرة على التوفيق بين منازعهم ، ومنازع الحكومة البروسية . ولقد صودرت إحدى رسائله في سنة

إلى مناصبهم الكرعة ، تلبية لصالح الجامعة ومنفعة للمواطنين . ولكن «إرنست أوجست» مضى في عناده غير آبه بشيء . هذا بالرغم من أن الوزير «فون شيل» نفسه ، قد تحقق لديه ، أن طرد هؤلاء الأستاذة ، كان خطوة حسنة ، وأنه كان ينافي مصلحة الملك والحكومة والجامعة سماً .

في سنة ١٨٣٧ تطايرت الشائعات بأن الأستاذين «أبولد» و «ألبرخت» قد ندما على فعلتهما ، فبادر الملك إلى الجهر بأنه قد يؤخذ لما بالعودة إلى مناصبهما ، على أن يبت أولاً أنها تآبوا توبة كاملة .

والواقع أنه لم ينكص أحد منهم عن موقفه ، لا هذين ولا غيرهما ، ولم يصدر عن أي منهم قول قد يفسر بأنه تراجع أو تغيير في الرأي أو العقيدة . لقد تقبلوا جميعاً ما لم بكل رجولة وكبرياء .

بعد أن طرد السبعة العلماء بضعة أسابيع عرضت عليهم جميعاً كراسي الأستاذية في جامعة «زولنجن» ، غير أنهم اعتذروا عن قبولها . أملى أن يصفهم مجلس الدييات الفدرالي . ولقد عمل ملك «هونفر» ومعه الأمراء أجمعون ، على ألا يصل الأمر إلى القضاء ، وسعى «مترنيخ» بطريقة معتدلة أن يحل الملك على أن يعالج القضية باللين والحلم . غير أن «إرنست أوجست» رفض ذلك وأباه . ولم ينتج هؤلاء العلماء أن يقوزوا بوظائف تقنيهم شر الحاجة ، إلا بعد سنوات عديدة .

في سنة ١٨٤٠ عين «ألبرخت» في أستاذية بجامعة «ليبنج» . وفي سنة ١٨٤٨ كلفه الدييات الفدرالي أن يضع دستوراً فدرالياً جديداً .

أما الأخوان «جريم» : «جاكوب» و «وولف» ، وقد اشتهر كلاهما بأبنهما واضع كتاب «ألسير لفلر واليت» كما انفرد «جاكوب» بتأليف كتابه الفريد «تاريخ اللغة الألمانية» ، فقد ذهب إلى «برلين» في سنة

فبعد أن أعلنت جميع المدن الكبرى في البلاد أن القانون الأساسي ملزم لهم ، مقيد لضمائرهم ، وأيدت كليات الحقوق في كل من جامعات «توبينج» و «هيدلبرج» و «جينا» هذا الاتجاه ، اضطرت الدليات الفدرالية في النهاية أن ينظر في الأمر . عل أن الرأي كان متقسماً في الدليات ، وقامت فيه مظاهرات صاخبة ، حتى بلغ الأمر أن يسبَّ بعض رجال السياسة بعضاً . وتألفت فيه الأحزاب ؛ فألّفت ممثلو «بافاريا» و «فودربرج» و «بادن» و «هيس» وكثير غيرهم من صفار الأقاليم حزباً ، كما ألّفت ممثلو «انسا» و «بروسيا» و «هونفر» و «برنسيك» وغيرهم حزباً آخر . وبعد متناورات وصحائس ومؤامرات غداها «لارنس أوجست» رفض الاقتراح لبافاريا . وكان يقضي بمراجعة حكم القانون ، وعدم التنفير في نصوص القانون الأساسي إلا عن الطريق البرلماني . ولم يفر المدافعون عن القانون بغير إبداء اِرعة في أن يتظاهم الملك مع مجلس الطبقات . وبذلك خال الدليات ، بغير احتجاج ولا محاسبة من ضمير ، وإرضاء لأمر معتد على القانون . واجبه الأول في حاية دستور الأمم الألمانية ، وأجاز اعتداء صارخاً على الحق الثابت . ولا مفسر لهذا ، إلا أن القوة العاشمة قد هزمت القانون . وظل «لارنس أوجست» بعد ذلك تسع سنين كواصل بمارس حكماً ذاتياً استبدادياً ، حتى أطاح بحكمه الجائر ، أحداث وقعت في سنة ١٨٤٨ .

...

لقد ذهب كلمة الحق وكأنها صرخة في الفضاء . ولكنها ما دامت حقاً ، فلا بد لها يوماً من أن تقتلع الأوتاد .

١٨٥٣ وكانت بعنوان «مقدمة لتاريخ القرن التاسع عشر» بحجة أنه سئم منها ربح التنوير بمقدم العصر الديمقراطي . وعيّن «دالمان» أستاذاً لتاريخ بجامعة «بون» في سنة ١٨٤٢ . ولقد أصاب بكبحه عن الثورة الإنجليزية والثورة الفرنسية ، صيناً عالياً . وفي سنة ١٨٤٨ مثل «بروسيا» في الدليات الفدرالية . وعين عضواً في المجلس البروسي الأول ، وعهد إليه بوضع الدستور البروسي . وفي الجمعية القومية بفرانكفورت ، قاد جماعة القتالين بتوحيد ألمانيا كلها ، غير انسا . وما لبث أن اعتزل منصبه في الجامعة . لما أن رفضت «بروسيا» الدستور الذي وضعه لها .

...

كانت هذه القضية سبباً في أن غنوخ علماء الألمان في بحر السياسة المائج ، كما حفر الجامعات إلى أن تصبح مراكز لتلقين المبادئ الحرة . ولقد أشارت الصحافة الإنجليزية في ذلك العهد إلى أن احداث الأدية أجمت خلايا سياسية أبقت البلاد ، وانقلب الأساتذة قادة رأي يدافعون من حقوق الشعب ومن السن الأساسية التي تصدر من العقل ولا شك في أن قضية هؤلاء السبعة ، كانت السبب في أن يحزم الشعب الألماني أمره في سنة ١٨٤٨ ، فينتخب رجال العلم والمفكرين أعضاء في برلمان فرانكفورت . ذلك بأن الحوادث قد ألّفت منهم عصبية صالحة تؤيد بتصميم وحرارة ، الحقوق العامة والفكر الحر .

لقد ظل الشعب الألماني ثلاث سنوات في شدة ومقاساة من جراء الصراع حول الدستور المنوقرى . ولم تسر الأحداث في هودة ولين كما أراد «لارنس أوجست» و «مترنيخ» وغيرهما من الأمراء الألمان .



# دراسات حول الغزالي

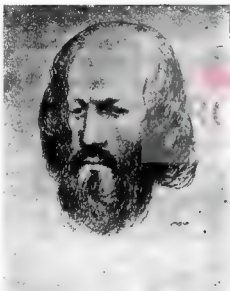
في دمشق

بقلم الدكتور أحمد فتوح الأدهمي

«العلم في الدنيا زاد ومما أجده في غير زمانه»

«من علم وحسن نظم فمؤذي به وحسن إلى الحكمة سلمات  
فإنها شمس تضيء الميزان»

أحمد فتوح الأدهمي



الغزالي  
(مرثية جبران خليل جبران)

●● حجة الإسلام ، محمد بن محمد بن محمد  
أبو حامد الغزالي ، ولد بطوس ٤٥٠ هـ (١٠٥٩ م)  
وفيها أمضى صباه ، وحفظ القرآن وتعلم الفقه ثم انتقل  
إلى نيسابور حيث درس على إمام الحرمين الجويني ،  
وتوجه بعد وفاته إلى بغداد حيث تولى التدريس  
بالمدرسة النظامية من سنة ٤٨٤ إلى ٤٨٨ ، وخرج  
من بغداد إلى دمشق والقدس ومكة ، وذهب إلى مصر  
عازماً على السفر إلى المغرب ولكنه عدل ، ورجع إلى  
طوس ، ثم قام بالتدريس في نيسابور ، وتوفي سنة  
٥٠٥ هـ (١١١١ م) في طوس ودفن بها .

وله مصنفات في شتى علوم الدين والفقه والكلام  
والفلسفة والتصوف ، من أهمها سيرته التي كتبها  
بقلمه وهي «المقصد من الفضائل» وله في أصول الفقه «المصنف»  
وفي الفلسفة «التهافت» ، وأعظم كتبه «الإحياء» إلى  
جانب رسائل صغيرة مثل مقاصد الفلاسفة وقبيل الطريقة ،  
«مشكاة الأنوار» ، «كيمياء السعادة» ، وغيرها ، بين مطبوع  
ومخطوط ، وكلها مشهورة متداولة معروفة .  
ولعلنا نظفر بعد هذا المهرجان بطبع ما لا يزال مخطوطاً  
من مؤلفاته ، مع طبع ما سبق نشره طبعة جديدة محققة .  
وكان ينبغي وقد رأيت أن مولده كان سنة

١٠٥٩ بالميلادية أن يقع الاحتفال به منذ عامين ، ولكن  
الإعداد للمهرجان طال وامتد إلى ما بعد الذكرى  
المئوية التاسعة هذا الزمن القصير . ولما كان حجة

الجزائر والمغرب ونيجيريا ويوغوسلافيا وأندونيسيا وتركيا .

● كان حفل الافتتاح مظاهرة عربية ضخمة ، اجتمعت فيها كلمة الدول العربية على اختلاف الزوايا التي تكلم من خلالها يمثل كل دولة . وما أشبه اليوم بالأمس ! لقد نهض الغزالي يوحد كلمة المسلمين إزاء الغزو الصليبي الوافد من الغرب ، ونجح في ذلك عن طريق « إحياء علوم الدين » ، فلا غرو أن يكون رمزاً للوحدة .

التقت كلمات الممثلين عند معينين أساسيين الأول أن الغزالي إذ وهب نفسه للبحث عن الحقيقة ، لم يكن ملكاً لنفسه بل للإنسانية كلها ، فهو من هذا الوجه مفكر عالمي . والثاني أن دفاعه عن الحق والمعرفة والحرية والكرامة الإنسانية والمثل العليا الأخلاقية ، حفظ للعرب في الماضي وحديثهم وللمسلمين دينهم ، ولا تزال أذكرهم بعد تسعة عام تعمل على توحيد العرب وجمع صفوفهم .

كان حفل الافتتاح بحق شعلة الروح المتقدة من قلب الغزالي الراقدة في ثراه ، أتحالده على مر الزمان . وإليك طرفاً من الكلمات التي قيلت في ذلك الحفل :

● قال وزير الثقافة : إن الغزالي دفع من شأن الفكر وأعلى الحقيقة ، وأن الجمهورية الجزائرية المتحدة عازمة على إحياء التراث القديم لأجزء من كيان الأمة .

● وتكلم الدكتور عبد الكريم اليافي مقرر لجنة الفلسفة والعلوم الاجتماعية بالمجلس الأعلى فقال : إن المهرجان كان ينبغي أن يمتد منذ عامين ، وأن الغزالي أمضى أزهى فترات حياته الروسية في دمشق حيث لا تزال بالجامع الأموي زاوية تعرف باسم الزاوية الغزالية ، وفيها كتب أعظم مؤلفاته « إحياء علوم الدين » واختتم كلمته بآخرة ما لفظ به حجة الإسلام حين حضرته الوفاة يوحى بعض أصحابه : « عليك بالإخلاص » .

● وأشاد ممثل العراق بفضيل الغزالي ، وذكر أن

الإسلام من أبرز الشخصيات الإسلامية التي خافت أثرها لا ينكر في الشرق والغرب على سواء ، وكانت الجمهورية العربية المتحدة قد عزمت على تخليد رجالها وإحياء ذكراهم والكشف عن مناقبهم ، فقد رأى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية الاحتفال بهذه الذكرى في دمشق . عاصمة الجمهورية في الإقليم الشمالي ، بعد توجيه الدعوة إلى شتى البلاد العربية والآسيوية والإفريقية والأوروبية والأمريكية .

● اشترك من الإقليم الجنوبي عدد كبير ألقى كل واحد منهم بحثاً في ناحية من فكر الغزالي ، وهم الدكتور إبراهيم مذكور (البحر الفكري) ، أحمد فؤاد الأهواني ، عثمان أمين (كلية الآداب جامعة القاهرة) ، محمود قاسم (دار العلوم جامعة القاهرة) ، مهدي علام ، عبد الرحمن بدوي ، حسن الساعاتي (كلية الآداب جامعة عين شمس) ، ثابت الفندي ، علي سامي النشار ، محمد عبد المعز نصير (كلية الآداب جامعة الإسكندرية) ، عبد الحليم محمود (دمر) ، الشيخ محمد أبو زهرة .

واشترك من الإقليم الشمالي عبد الكريم اليافي ، محمد هبة البيطار ، خالد معاذ ، تيسير شيخ الأرض ، عبد الكريم عثمان ، هيام نويلاتي .

ومن أفغانستان السفير صلاح الدين سلجوق ، ومن العراق محمد الهاشمي ومصطفى جواد ، ومن لبنان عمر فروخ ، والشيخ محمد جواد مغنية ، والأب فريد جبر ، ومن شرق الأردن الشيخ إبراهيم القبطان ، ومن السودان عثمان شاهين ، ومن الهند الدكتور عمر الدين ، ومن باكستان الأميرة فاروقشا ، ومن نيجيريا علي أبو بكر ، ومن مراکش الأستاذ محمد المتصر الكياني .

وبلغ عدد الدول المشتركة زهاء عشرين دولة وهئة ، مثل جامعة الدول العربية واليونيسكو ، وكنبلك

متعددة الأوجه ، ومع ذلك لم يستفد المؤتمر لقول فيها .

ورأى أن البحوث التي أقيمت تدور حول علم  
أبواب : (١) حياته ومؤلفاته ، (٢) منهجه وطريقته بحثه ،  
(٣) آراؤه ومذهبه ، (٤) أثره ورأى الخلف فيه .

ومن الطبيعي ألا يتعرض للتفاصيل وهو يعرض  
خلاصة عامة للبحوث والمناقشات ، ولكنه رسم  
التخطيط العام لمن يريد أن يدرس الغزالي في المستقبل .  
فعل الناس أن ينظر في صفة مؤلفاته ، وهل يعد الكتاب الواحد  
متمكناً ، وما صلة كتبه الصغرى بكتبه الأخرى .

أما منهج الغزالي ، فهو الشك الذي يقضي إلى  
اليقين ، وعندئذ تبلغ المعرفة النوقية ، وهل يمكن أن  
يكون للغزالي منهج وضحي ؟ وهل له منهج واحد أو  
عدة مناهج ؟ وهل هي متعارضة فيما بينها ، أو بكل  
بعضها بعضاً ؟

ومذهب الغزالي وآراؤه متعدد الجوانب ، فهو  
أخلاقي ، ومعلم ، ومربي ، وسياسي ، واجتماعي ،  
وفقيه ، وعالم ، وفيلسوف ، وصوفي . وكان  
الغزالي الصوق أكثر جوانبه التي معها المشتركون في  
المؤتمر . فهل يعارض الغزالي المتصوف الفقيه أو  
الكلاسي ؟

أما الأصول التي استمد منها حجة الإسلام مذهبه  
فعلل رأسها التعاليم الإسلامية ممثلة في القرآن والسنة ،  
وهي ذات أثر واضح في فقهه وكلامه ، ولكنه مع  
ذلك تأثر بالفلسفة اليونانية وبغيرها من العلوم ، لأن  
الأفكار الإنسانية تراث عالمي ينقل من عصر إلى عصر .  
تأثر الغزالي وأثر . فالغزالي قد أثر في الفكر  
الإسلامي على الرغم من معارضته للفلسفة وطعنه عليها .  
ويمكن أن يعدّ التصوف الإسلامي المتأخر تصوفاً  
سنياً بفضل توجيه الغزالي . وصفوة القول إن كل  
واحد ينظر إلى الغزالي من وجهة نظره ، فالحديث لا  
يرى فيه عدداً ، والفيلسوف لا يراه فيلسوفاً ، وهكذا .  
ولقد حاول الغزالي لإصلاح المجتمع الإسلامي .

جامعة بغداد وأداة للدراسة النظامية التي درس فيها أبو حامد زماناً .  
وتكلم ممثل لبنان عن فضل الدين المسيحي واتسك به في توحيد  
الكلمة ، ورفع شأن الأمة .

● وأعلن الأستاذ صلاح الدين سلجوقي أنه يمتدّياته مسلم  
عربي ، على الرغم من أنه ألقاها .

● وأسف ممثل غينيا إذ تكلم بالفرنسية لا بالعربية  
مع أنها لغة دينه ، وقال : إنه يرى في حضوره هذا المهرجان  
نوعاً من الحج ، وأن الغزالي بطل من أبطال الفكر لن يموت .

● أما ممثل الجزائر فكانت كلمته صدى للثورة  
الجزائرية في سبيل التحرير ، فقد طعن في الفلسفة  
المادية لأنها : أصل الأزمات التنسية ، وكيف يحتاج المرء في مثل  
هذه الأزمات إلى هاد يهديه سواء السبيل ، وقد دعا الغزالي إلى  
تهذيب النفس وتصفية الروح عن طريق إحياء الدين .

● وكذلك انعكست فلسفة السودان على كلمة  
مثله ، وذلك بسبب التفرقة المصرية . ولكن الإسلام لا يفرق  
بين جنس وجنس ولا بين أبيض وأسود ، وأنه ليس لغيري  
فضل على أجنبي إلا بالتقوى . واستطرد إلى الغزالي فقال :  
إنه ظهر في عالم إسلامي ، موزع ، فوحده .

● وألقى مندوباً الهند والباكستان بالإنجليزية بحجة  
مختصرة ، وتكلم ممثل يوغوسلافيا بالفرنسية ، فجعل  
من الغزالي فيلسوفاً نقدياً نفع العلم بنقده الصحيح .

● واختتم ممثل اليونسكو فوزه بالغزالي : مفكراً عالمياً  
ومعلماً أخلاقياً ومربياً ، ولهذا السبب ترجمت اليونسكو بعض  
كتبه كالمقدمة ، وأبها الولد ، إلى الفرنسية .

● رأس الجلسات التي أقيمت فيها البحوث  
الدكتور إبراهيم مذكور فكان يقدم المتحدثين ،  
ويعرف بهم ، ويعقب عليهم ، وتلخص أعمال المؤتمر  
عقب انتهائه في محاضرة تلخص فيها ما ألقى من بحوث  
بلغت زهاء الخمسين ، وخرج من ذلك إلى أمور  
أربعة هي أن : الغزالي مفكر إنساني عالمي ، وأنه شكلف  
أفكاراً فلسفية حقيقية ، وأنه لهذا السبب بحث  
العلم والمسيحي على سواء ، وأنه شخصيته فسيحة الجوانب

على تصوير مخطوطات الغزالي ؛ وضع لوحات تذكارية في دمشق في الأماكن التي عاش فيها ؛ الرغبة إلى اليونسكو أن تولي التراث الإسلامي عناية أولى .

### ●● حياته

لم يفرّد في المهرجان بحث خاص بحياة الغزالي ، مع أن هذا الموضوع من أهم الموضوعات ولا تزال جوانب كثيرة من حياته مجهولة لم يلق عليها الضوء . ماذا كانت حياته في طوس عند مولده ، ومن أبوه ؟ وتذكر كتب التاريخ أنه تعلم الفقه على الإمام الرافضائي . كما حكى السبكي في طبقاته أن الغزالي « سافر في صباه إلى جرجان إلى الإمام أبي نصر الإسماعيلي ، وعلق عنه التعليقة » ، ثم رجع إلى طوس . من هو هذا الإسماعيلي ؟ وما هذه التعليقة التي علقها عنه ؟<sup>(١)</sup>

وما صلة الغزالي بالإمام الجويني ؟ كانت هذه الصلة جذيرة كذلك يبحث خاص ، إذ أجمعت التواريخ على أن الجويني كان بحسد الغزالي ، وأنه لما صنف « الحاشية » ( كتاب للغزالي في الفقه ) عرضه عليه ، فقال : دفني وأنا حي ، فها صبرت حتى أموت ، لأن كتابك خطي على كتابي .

بل لقب الغزالي نفسه ، هل هو الغزالي بتشديد الزاى نسبة إلى غزل الصوف ، حيث كان أبوه يعيش من التكسب منه ، أم أن الغزالي نسبة إلى غزالة ( قرية قريبة من طوس ) . وكان المتحدثون في المهرجان فريقين : فريق ينطق ، اسمه مشدداً ، والآخر مخففاً .

● ألقى الدكتور مصطفى جواد كلمة عن الحياة السياسية والثقافية في بغداد في الفترة التي عاشها الغزالي هناك . وكيف انتشرت الفتن بين أهل المذهب من أهل السنة والشيعة حول الإمامة ، وبين الحنابلة والشافعية ، واشترك القامة في هذه الفتن ، وحدث كثير من التهب والسلب عند المدعوة النظامية . هذا فضلاً عن مقاومة نظام الملك الباطنية إلى درجة أنه عهد إلى الغزالي بكتابة كتاب « المستظهرى

وكانت الفرق المختلفة من سنة وشيعة ، وباطنية ، ومعتزلة ، وحنابلة وغير ذلك يكفر بعضها بعضاً ، وبلغت أشدها في القرن الخامس . ثم بدأت تخفّ حدتها ، ولم يكد يظهر القرن السادس حتى فقدت المنازعات الدينية حدتها . ولقد تأثرت النهضة الفكرية الإسلامية منذ القرن الماضي بالغزالي أكثر من تأثرها بأي مفكر آخر .

واتسمت البحوث بالجد ، واعتمدت في الأغلب على نصوص من كتب الغزالي ، فهي أصيلة ، أثارَت مشاكل ، ووضعها بغية الوصول إلى حل لها .

ثم أعلن الدكتور مذكور توزيع كتابين ، أحدهما وضع بتكليف من المجلس الأعلى للفتوى ، وهو مؤلفات الغزالي للدكتور عبد الرحمن بدوي ، بلغت عدد صفحاته ٥٦٨ ، قسمه سبعة أقسام ، الأول كتب مقطوعة بصحة نسبها ( من رقم ١ - ٧٣ ) ، الثاني كتب مشكوك فيها ( من رقم ٧٣ - ٩٥ ) الثالث كتب من المرجح أنها ليست له ( ٩٦ - ١٢٧ ) ، الرابع أقسام من كتب الغزالي أفردت مستقلة ( من ١٢٨ - ٢٢٤ ) ، الخامس كتب منحوالة ( ٢٢٥ - ٢٧٣ ) ، السادس كتب مجهولة الهوية ( ٢٧٤ - ٣٨٠ ) ، السابع مخطوطات منسوبة إلى الغزالي ( ٣٨١ - ٤٥٧ ) .

والكتاب الثاني « سيرة الغزالي وأقوال للتقنين فيه » جمعه وحققه عبد الكريم الصّان ، بدأ فيه بذكر كلام عبد الله بن الفارسي الماصر للغزالي ، ثم ابن صاكر ، وابن الجوزي ، وياقوت الحموي ، وابن خلكان ، والذهبي ، وإمامي في مرآة الجنان ، والسبكي في طبقاته ، وابن الخلق في طبقات الشافعية ، والزيهري في مقمته للإسحاق . وبذلك اجتمعت كل أقاويل القدماء في حجة الإسلام في كتاب واحد ، طبعة دار الفكر بدمشق في ٢٢٠ صفحة من القطع الكبير .

وأنهى الدكتور مذكور كلمته بتوصيات المؤتمر وهي : اهتمّ المؤتمر بالبحوث التي أقيمت وريادة العناية بأعلام الإسلام ، طبع كتاب البحوث التي أقيمت في المؤتمر ، تأليف لجنة لنشر مؤلفات الغزالي نشرًا علميًا ، أن تعمل إدارة المخطوطات بجامعة الدول العربية

(١) انظر مناقشة الدكتور عبد الرحمن بدوي ، مؤلفات الغزالي ص ٣ - ٥ . وانظر مقدمة عبد الكريم الصّان من سيرة الغزالي .

الجديد حقاً هو البحث الذي ألقاه مندوب المغرب الأستاذ محمد المتصر الكتاني عن صلة النزال بالمغرب ، وهل كان في نيته السفر إليه . فقد اختلف المؤرخون في ذلك ، وشكوا في بعض الروايات القدعة التي نصت على أنه وفد إلى الإسكندرية ثم عدل عن المضي . كان النزال على صلة يوسف بن تاشفين ، كما كان المهدي بن تومرت تلميذاً له حين كان في بغداد حتى تخرج عليه ، وانتشرت كتب النزال في المغرب زمان يوسف بن تاشفين ، ولكن ابنه علياً لم يكن يتولى الحكم حتى أوفد في مساجد الأندلس والمغرب تيراماً وقودها « إحياء » النزال .

ولب النزال دوراً سياسياً هاماً في حياة يوسف ، ذلك لأن الصليبيين والأوروبيين منذ سنة ٤٨٦ هـ أرادوا مهاجمة الشرق وتصفية الأندلس . وجاء إليهم من الأندلس إلى يوسف يقصون عليه أسوأ أمراتهم وفساد سيرتهم . وجمع يوسف مجلس العلماء الذي كان بمثابة مجلس للدولة لحكومة ومجلس الأمة للشعب ، وأسلم القصرى فقالوا : « اسلموا الأعداء » وكان من أقرى النزال . ثم إن النزال سعى عنه خلفاء بغداد لامتدادات يوسف ، ومنى ذلك توحيد كلمة المسلمين في الشرق والمغرب ، وذهبت به إلى المستظهر باق على رأسه وأقبل تاجه أبو بكر بن العربي ، فاستجاب الخليفة ، وعقد يوسف « قولاية » وكفى أمير المسلمين ، وسكنت الفتوة باسم الخليفة السياسي في المغرب . كل ذلك حتى تكون ولايته شرعية ، وسعى يوسف بأمر المسلمين حتى لا يشارك أمير المؤمنين لقبه . ثم ذهب النزال في الرحلة إلى المغرب في عهد يوسف ليبرئ ثمرته وتوجيهه ، وليرى للمنية المباشرة كما فعلها ، وبخاصة أن حصر النزال في المشرق كان حصر فرقة واتحاد . ولكن يوسف عاجلته المنية سنة ٥٠٠ هـ هجرة ، وكان النزال بالإسكندرية ، فعاد دون أن يكل رحلته . أما على بن يوسف بن تاشفين ، فكان على عدله وصلاحه وتقشفه وغواً خفياً ، فلم يكن يصل كتاب الإحياء حتى تار بعض الفقهاء على الكتاب وأمين أن ما فيه من آداب قد خرج فيها عن مله ملكه ، وجمع الكتاب وأحرق ، على الرغم من مناصرة بعض العلماء . ويقال إن النزال دعا على بن يوسف أن يزيل ملكه ، وكان المهدي بن تومرت حاضراً ، فاستجاب الله دعواه .

أقول : وما يؤيد امتناع المتقدمين النزال وهجوم المتأخرين عليه ، أن ابن باجة لم يذكر على النزال تصوفه ، قال في رسالة غخطولة نقل بعضها الأستاذ المعصوي حين قدم لكتاب النفس لابن باجة<sup>(١)</sup> ، « ما نصه

في الرد على الباطنية » . وقد قتل أحد رجال الباطنية نظام لذلك سنة ٤٨٥ هـ ، كما قتلوا ابنه قنر الملك .

● وقد حكى النزال أنه خرج من بغداد هارباً سنة ٤٨٨ هـ هجرة ، وقد أصيب بمرض نفساني منه عن التبريس ودفنه إلى العزلة . وتناول الدكتور عمر فروخ في بحثه « وجوع النزال إلى اليقين » حقيقة هذا المرض ، وسماه الكنظ أو التنظ ، وهو انقباض أو حزن يوشك منه المريض على الموت ، ثم يخشى منه ، ولكن شفاه لا يمنع من عودته ، وله أعراض جسدية ونفسية ، منها قلة الطعام والنوم ، وتشتت الفكر ، وحسب العزلة ، وتجميع الذنوب في الماضي ، والخوف من المستقبل ، ولاشعور بأنه مدعو لقيام بإصلاح . وهذه الأعراض كلها تنطبق على النزال ، الذي أصيب بالزعة نفسية تلب عليها .

● وتعرض الدكتور عمر فروخ لصمت النزال لزمان الحروب الصليبية ، وأنه لم يحرك ساكناً ، حتى إننا لا نجد صدق طلبة الحوادث في كتبه . وهو يرى أن النزال ، وقد كان من المتصوفة ، كان يرى أن الحروب الصليبية غضب من الله لفساد البلاد . لقد حاول باحثون قبل الدكتور فروخ تعليل هذه الظاهرة بتعليلات أخرى<sup>(٢)</sup> ، ولكني أرى أن الكلمة النهائية تحتاج إلى كشف عن مصادر حياة النزال في دمشق ، وهذا الجانب لا يزال مجهولاً .

نعم ، حياة حجة النزال في دمشق أعرض جوانب حياته ، وقد حاول خالد المعاذ في بحثه عن النزال في دمشق أن يأتي بجديد فلم يستطع خلافاً ما ذكره النزال نفسه في « المنقذ » من أنه اعتكف في منارة الجبل الأسمى بسعد إليها طول النهار ويطلق بها على نفسه وأنه كان مجلس في زاوية الشيخ نصر القديس ، التي حرق فيها بعد باسم زاوية النزالية . ومن الطريف أن أحد الحاضرين في المؤتمر شك في رواية النزال ، واعتكافه في المنارة على أساس أنها الآن بحسب ما شاهده لا يمكن أن تسع لرجل ، فأجابته الأستاذ خالد معاذ : أن المنارة قد تغير بناؤها وتجدد وأصبحت في حجمها الحاضر .

(١) كتاب النفس لابن باجة ، مطبوعات الجمعية العلمية بدمشق ١٩٦٠ ، ص ١٣ .

(٢) انظر عبد الكريم الشبان : سيرة النزال ص ٣٧ .

والأصول ينظر في وجود دلالة الأدلة السمعية على الأحكام الشرعية ، وذلك بعرفة كيفية اقتباس الأحكام من الأدلة . والنزائي يبنى الأحكام «نمات» ، يبنى بها الوجوب والحظر والتنب والكرامة والإباحة والحسن والتجريح والقضاء والأداء والصحة والتساقط وغيرها . وعده صفاتها وحقيقتها في نفسها ؛ ولها مشر وهي الأدلة الثلاثة : الكتاب والسنة والإجماع ؛ ولها مستمر وهو المجهد ؛ ولها طرق في الاستدلال هي وجود دلالة الأدلة .

والرجوع إلى العقل هو رجوع إلى مبادئه ، مبدأ عدم التناقض ومبدأ السببية . وطرق العقل التي يسلكها هي التمثيل الذي يرجع القياس ، واقتباس ويسميه نتائج الأدلة ، والاستقراء الذي يرد طرق العقل إلى الشاعرة . ولكن الاستقراء لابد له من مساعدة للتور الإلغى ، وهكذا فالطرح لا بد له من أن يتم العقل .

ثم طبق بعد ذلك هذه الطرق الفيزيائية على أمور ثلاثة هي التصنيف والتفصيل ، والمصلحة ، والاجتهاد ، وبين الشروط التي يجب توافرها عند المجهد كأن يكون حافظاً للقرآن ، وآيات الأحكام بوجه خاص والعلم بموقع هذه الآيات ، ثم السنة ، والإجماع والأدلة للشرعية ، ومواضع التسخ ، وطرق الاستدلال ، واللغة العربية .

وأخيراً طبق هذا الاجتهاد على ثلاثة أمور هي الفناء ، وتعديد الخلل ، والرشوة ، مبنياً على النزائي فيها من الناحية الفقهية .

أقول كنت أود أن أسمع جديداً خلاف تلخيص المستصفي ، وأضرب بالجديد بعض الأمثلة :

١- من الواضح أن النزائي يعتمد في «مقدمة المستصفي على المنطق الأرسطي الذي كان متداولاً في زمانه ، وهو نفسه يحيل القارئ إلى معيار العلم ، وحكمت النظر . ومن أجل ذلك يقيم البرهان بأنواعه التي ذكرها على منطق أرسطو . ولكن ما الحال وقد تغير هذا المنطق اليوم ، وأصبح المتداول هو المنطق الرياضي ، وله أصول خلاف منطق أرسطو . هل يتفق المنطق الرياضي الحديث مع الاستدلال الشرعي ؟

٢- يقول النزائي ما نصه صفحة ٥ إلى ٧ من الجزء الأول من المستصفي : «إعلم أن العلوم تنقسم إلى عقلية ودينية ؛ وكل واحد من العقلية تنقسم إلى كلية وجزئية ؛ فالعلم الكلي من العلوم الدينية هو الكلام ، وسائر العلوم من الفقه وأصوله والحديث والتفسير علوم جزئية . . . إل قوله . . . فإذا الكلام هو التمثل بإبانت مبادئ العلوم الدينية كلها ، فهي جزئية بالإضافة إلى الكلام . . . إلغ» .

« وانظر مع نظرك في مقالات الخير في «عيون المسائل» ، ثم في قول أبي حامد ، تجد الكل من تحت واحد ، والكل في التأويل مع لكتاب العزيز متفق . . . وأيضاً : « انظر إلى قول النزائي في آخر كتاب المشكاة فإنه يعتقد أن الأول فخر جميع الفقهاء أن يعلموا ، والمؤمنين أن يتعلموا . وانظر إلى قول أبي نصر في «عيون المسائل» يقول . . . وأيضاً : والطريق الصوفية المستمد من القول وطريق النزائي من الطرق الموصلة والطرق المأخوذة أولاً عن نبينا صلى الله عليه وسلم» .

## ●● الفقيه

● من المفارقات الطريفة أن تتكلم في مسألة فقهية سيدة ، وقد عهدنا أن أرباب هذه الصنعة هم المشايخ . إنها الأميرة فاريتا دي زاياس ، من الباكستان . وهي سيدة مهيبة جليلة ، مسلمة ، تعرف العربية ، وتحسن نطق الآيات القرآنية ، وحضرت جميع جلسات المؤتمر واستمعت إلى سائر البحوث التي أُلقيت بالعربية . ولكنها ألقت بحثها عن رأى النزائي في الزكاة ، باللغة الإنجليزية التي يجيدها إجادة تامة . سرزكاة صدقدين

بالنحو الواسع . وهي حق الله . وهي تطوير المال . والزكاة أهداف فردية واجتماعية ، فهي من أقوى الروابط الإسلامية . والآداب المطلوبة داخل الزكاة في نظر النزائي هي البعد عن الفن والأذى .

● وألقيت بحث واحد عن النزائي الفقيه ، كان محاضرة طلية من الشيخ محمد أبو زهرة . فذكر أن كتابه المستصفي أحد كتب ثلاثة يقول عليها في أصول الفقه الإسلامي وأن النزائي لم يكن شافياً عاصراً ، ولا حنفياً عاصراً ، ولا حنبلياً ، لكنه سلك طريقاً مستقلاً هو الاجتهاد ، ثم طبق ذلك على أمور ثلاثة هي (١) التحسين والتفصيل (٢) للمصلحة (٣) الاجتهاد وشروطه .

والعلوم في نظر النزائي ثلاثة ، عقلية عصف ، مثل الحساب والمختصة والتبويج والطب وعده لا يبحث للشرع عليها ولا ينتب إليها ؛ وعقلية عصف كالحديث والتفسير وليس فيها مجال للعقل ؛ وحالوم يزودج فيها العقل والسمع ، ويصطبغ فيه لرأى الشرع ، مثل علم الفقه وأصوله ، فلا هو تصرف يحض العقول بحيث لا يتفقاء الشرع بالنقول ، ولا هو مبنى على محض التقليد الذي لا يشبه له العقل بالتأييد والتشديد .



الغزالي في «الإحياء» . وهي أخلاق إسلامية النزعة اعتمد فيها على القرآن والسنة . وتقوم فلسفته في الأخلاق على أمور أربعة هي : (١) لم ينصح بالتحقق والرجوع بل بالتقوى واجتناب المحرم (ب) تركية النفس وإدراجها (ج) تأييد الفضائل الفردية والاجتماعية (د) تأكيد الأبعاد الثلاثة في الأخلاق ، وهي الإنسان مع نفسه ، ثانياً مع أفراد المجتمع ، ثالثاً مع ربه ، أي عقيدته ومبادئه ومثله ومعارفه .

والجواني والبراني في اصطلاح الدكتور عثمان أمين هو الباطل والتفاهق اصطلاح الغزالي وخلاصة الأخلاق أنها تقوم على التوبة ، على الباعث ، وهذا شيء باطن جواني . أما الوضعية المنطقية فإنها فلسفة برانية تفحص الأعمال بالظاهر ، مع أن الفعل واحد والظواهر مختلفة وكل عمل أخلاق إما أن يكون برانياً أو جوانياً ، فالجواني يعتمد على الصدق والإخلاص . عند مثلاً الصوم قد يكون جوعاً وعلناً وهذا معنى براني ، وقد يكون تصفية للنفس وهذا معنى جواني . والبرانية في الحكم الأخلاقي لا تتلف منه ظاهر التوبة بل تنقبض إلى روحها ، وحقيقة التوبة هي العمل . ولقد كان لجواني الغزالي فضلاً في تصفية الإسلام . وكتابات حجة الإسلام تحمل في سبيلها رسالة أخلاقية إسلامية هي تغيير الجواني ، وهذا التغيير شرط في تغيير البراني . والتصوف هو الاستقامة والصدق لا الحركات الظاهرة والاضطرابات والتسبيحات وترتبه للقلوب .

وتتميز الأخلاق عند الغزالي بمسح بين الإيمان الباطل مع تحقيقه بالممارسة ، فالأخلاق عينة في النفس واسعة تصدر عنها الأعمال بسهولة ويسر . فمعار الأخلاق هو دسوس ذلك الاستعداد النفسي ، وطريق الجوانية أن يكون آمناً المرء على بصيرته وإدراكه وصفاء عليه لا على الصفات والأعداء من الكتب وتقليد غيره .

ويزن الغزالي بحرية الإنسان ، ولكنها حرية جوانية هي ضبط النفس وقمع الشهوات لأن من تهر شهوته تهر امرئ على التحقيق ، وهو لذلك - إنها أخلاق مستتيرة بعيد الدين .

### ●● الصوفى

النزعة الصوفية أهم جوانب الغزالي ، وأبرز ناحية في فكره ، وهي التي انتهى إليها في أواخر حياته كما حكى في «المقصد» . فلم يكن غريباً أن تدور حول الغزالي الصوفى بحوث كثيرة ، بعضها يتجه إلى هذه الناحية رأساً ، وبعضها الآخر يحوم حولها .

وستكتفى بعرض بحوث أربعة هي : «سيرة النبى» للدكتور عبد الحليم محمود ، والحاشية الدينية للدكتور أحمد

فهل يعتبر الغزالي حقاً الفقه وأصوله فرعاً من علم الكلام ؟

وهل علم الكلام أعلى درجة من الفقه وأصوله ؟ وما صلة أصول الفقه بعلم الكلام ؟

### ●● المتكلم

وهنا نصل إلى جانب هام من فكر الغزالي هو آراؤه الكلامية . ومع الأسف الشديد لم يتناول أحد من المشتريين في المؤتمر هذا الجانب بالبحث ، مع العلم أنه درس حين عاش في نيسابور على إمام الحرمين أحد المؤسسين للمذهب الأشعرى . والغزالي نفسه عماد من عماد هذا المذهب . وانظر إلى ابن خلدون في مقدمته كيف يذكر أن الأشاعرة سلكوا طريقين ، طريق المتضمنين وطريق المتأخرين ، وأن الفضل في توجيه هذا الطريق الجديد هو الغزالي . هذا فضلاً عن أنه كتب مؤلفات كثيرة في العقائد ، مثل المقصد الأسنى ، فضلاً عن الفصول التي وردت في «الإحياء» خاصة بالعقائد .

### ●● الأخلاق

● وألقى عن الغزالي الأخلاق بحثان ، أولهما للسفير صلاح الدين سلمجوق بعنوان «أثر الغزالي في الأخلاق» والثاني للدكتور عثمان أمين بعنوان «سائر الجوانية في فلسفة الغزالي» .

مهّد الأستاذ السلجوق بمقدمة عن الأخلاق عند اليونان ، بحسب ما وضعها أفلاطون ثم أرسطو ، ثم كانت أميراً وانتهى إلى أن الأخلاق لا بد لها من الاعتماد على الاستعداد في وجوده ، والنفس والآخرة . ولكن أرسطو في كتابه الأخلاق ، لم يشر إلى الآخرة . وترجم فلاسفة العرب أخلاق أرسطو ، والذي تجده في تهذيب الأخلاق لابن مسكويه . وكتب العرب في أدب الدنيا والدين كما فعل الماوردي ، ولكن صيغته أدبية أكثر منها أخلاقية . أما الذي دوت حقاً في الأخلاق فهو

غزاد الأهواني ، « مفهوم الحب » للدكتور عمر الدين ،  
والثانية : للدكتور زكي نجيب محمود .

الدكتور عبد الحليم محمود أستاذ بالأزهر ، وهو  
متصوف متحقق باطنياً ، وظاهراً ، ولذلك كانت  
كلمته نابعة من صميم وجدانه ، وقبساً من اعتقاده  
وبيقته .

السير إلى معرفة القلب إما متابعة الرسل ، وإما بطريق مباشر  
هو الكشف ، وهو السبيل الإشرافي . وذلك بأن تأخذ إجابة من  
مشاغل هذا العالم ، وتلج إلى الله ، وتخلو إليه ، وتستجمع الفكر  
والإرادة وتساكن العالم الآخر . عندئذ لا تضر بما حوكم ، ولا ين  
حوكم ، ولا يائزمن ، انتظارك لإشراق الأنوار الإلهية . إنها فترة  
لا تجد بحساب الزمن ، فالنور يفسدك ، وتصبح وكأنك نور متصل  
بالله بطريق مباشر . إنها حل الجسلة تجربة دينية ، تفسر منها بعد ذلك  
إصلاح المجتمع . والدليل حل إمكان معرفة القلب الرؤيا الصادقة .  
ولهذا كان الرسول قد عرف القلب ، فهو ممكن في حق أي إنسان .

### ● أنجه صاحب هذا المقال في بحثه وجهة سيكولوجية

فوازن بين الغزالي ووليم جيمس ، كلامياً يبتعد عن التصاوب  
الشخصية ، ولا ينكر تشعبها ، ويؤمن بالهين : « ويرجع إلى  
الأشعور . وجوه العقيدة الإسلامية إيمان بالله عز وجل والرسول  
والآخرة ، وهذه كلها أمور وراه عالم الحس ، وعالم العقل . وكان  
من الطبيعي أن يطلب الناس لا معرفة الله فقط بل رؤيته ، كما طلب  
موسى من ربه أن يراه فقال له لن تراني . وذهب بعض أصحاب  
الفرق الإسلامية إلى جواز رؤية الله ومصادقته وهم الجسلة ، ولكن  
مضطهم رؤية الله في هذه الدنيا ، وقال بعضهم بجواز رؤيته في الآخرة  
بواسطة سادة .

ويذهب الغزالي إلى أن التثنين نظري في جميع البشر ، ومن  
أقواله : « فذلك بنو آدم في فطرتهم التصديق بالربوبية » . فلذا كان  
الأمر كذلك ، فلا بد من وجود آلة لإدراك الدينيات أو القنبيات ،  
وهي حاسة دينية ، يسميها « عين » القلب . وليس المقصود بالقلب  
قطعة اللحم الصنوبرية الموجودة في أيسر الصدر ، بل الطليقة الربانية  
التي لها هذا الجسد تعلق .

والدليل حل وجود هذه الحاسة ببعض ظواهر نفسانية تشيع في  
الناس ، مثل قرارة الفكر ، والجلد البصري ، والفروية من بعد ،  
كما جاء من عمر بن الخطاب في قوله وهو يخطب : « يا سايه الجبل » ،  
وفي قصة أنس بن مالك حين دخل حل عثان بن صفان وقد نظر إلى  
امرأة ، فقال له عثان : يدعل حل أسدكم وآثر الزنا ظاهراً في  
عينيه ؟ فقال أنس : أوسى بعد كثبوة ، فأجاب عثان ، لا ، ولكن  
بصورة وراهان ونرابة صادقة .

والدليل الثاني هو الرؤيا الصادقة التي تحصل لبعض الناس في  
النوم ، وهي عند دليل حل كثبوة . والنوم قطع للشعور الظاهر ،  
وحياة في عالم الأشعور . ويمكن بحث الأشعور بأمرين ، الأول  
قطع الخلقة بالشعورات ، والثاني موت الشعور في النوم . وهناك  
طريقة ثالثة صناعية وصفها في المنقذ ، هي نوع من التنويم المغناطيسي  
بأن يقول للشخص الله الله الله ، ويكررها مبتدئاً فكري لها حتى يذهب .  
والحاسة الدينية « ذوق » ، والذوق الديني شبيه بالذوق الفني  
عند الشعراء ، فهو هبة وموهبة ، ويمكن تنويره ، وهو متفاوت في  
الناس ، فالذوق وجدان ، والعلم قياس .

● والدكتور عمر الدين عميد كلية الآداب بجامعة  
عليكرة . قال إن الحب هو المبدأ الذي يقوم في أساس منطق  
الغزالي ، لأنه غاية طلب الإنسان ، ونهاية رقيه ، وتنام وجوده ،  
والتقوى الدافعة من وراء كل نشاط له . وهو إلى ذلك جوهر الدين ،  
والمصلحة الخلق ، وأسمى تجربة الصوفي .

يتابع الحب أربعة : النافع ، والجميل ، والأفضل ، والروح .  
وهذه جميعاً موجودة في الحب الإلهي ، لأنها إذا أحببنا النوافع أحببنا  
الله الذي خلقها ، وكذلك في الثلاث الباقية . وحسب الله متصل اتصالاً  
وثيقاً بمرسته . يجب أن نعرف أوامره التي جاءت في الشرع ، وأن  
تأمل في غلوها . والوصي يعو يسلك الطريق إلى الله ينتقل من مقام  
الأسس ، إلى مقام الخلو ، إلى مقام الرضا حتى يبلغ أسى مقام  
هو الحب .

● وقدم الدكتور زكي نجيب لثالثية الغزالي بكلمة  
عن المتصوف والشاعر ، فائدة كل منهما الذوق ، والحدس الصادق ،  
واستخدام الألفاظ التي توسي دون أن تحدد .  
والثالثية منشورة في ذيل كتاب « معارج القدس »  
ومطلعها :

بنور تجل وجهه فتمسك دحشتي  
فيا أقرب الأنبياء من كل نظرة  
وقد وازن بين ما جاء في هذه القصيدة ، وبين  
الآراء الواردة في المنقذ ، من مثل عدم الثقة بالصواسات ،  
ومزلة القصص ورويات العقلي ، وغير ذلك .

وعلى الرغم من أن الدكتور زكي شك في نسبة  
الثالثية إلى الغزالي ، إلا أنه مضى مع ذلك في تحليلها .  
والواقع أن هذه القصيدة منحولة .

### ●● الفيلسوف

أربعة بحوث تناولت الغزالي الفيلسوف ، ولكن

وحقيقته ، وصلة الله بالإنسان ، وبأخلاقه بوجه خاص ، وعرض  
 به ذلك لكشف الصوق ، والشائش والفقوس ، وطبيعة الاعتقاد .  
 وعلم الأخرى بحسب النزول تفسير روى للإسلام بعرض عن  
 الدنيا ، متجه إلى الاستعداد للأخرة . حل خلاف الإسلام الشرعي على  
 هو طريق المشي في الدنيا . فعمل الأخرى هو علم القلوب ، علم  
 اليقين . وفي الإلهاد تعريض بالفقه أي بالمتقدمين ، ووطيفة الفقه  
 أنها وسيلة حكم السلطان في الشعب ، أما النزول فيريد تجاوز حدود  
 الفقه وإعادة الروح إليه .

واليقين الصوق أساس الأخرى ، لذلك كان شديد العناية بتقوية  
 اليقين ، لأنه رأس الدين . وعلم الأخرى بدايته تعلم ونهايته كشف .  
 يبدأ بعمل مسألة افتداء بالمشايخ ، وينتهي بكشف عبارة عن أن الله  
 يقذف في قلب المؤمن بذور من عبده . والرسالة المحمدية دعوة أخلاقية  
 تفهم بطريق الكشف ، وهناك آيات في القرآن لس من قوله تعالى  
 « سيعلم الله ما في السوات وما في الأرض » لا تفهم إلا بطريق الكشف .  
 وطبيعة الكشف عند النزول انكسار من الموح المحفوظ ، وذلك كلما  
 سئل القلب حتى يصحح كالمرآة المبلورة ، والتوحيد باللسان لا ينتج  
 في الأخرى ، وتوحيد الكلايين في قولهم لا شريك لله لا ينتج كذلك ،  
 وإلهاد التوحيد الصحيح أن تعلم أن لا فاعل إلا الله . والصلوة حركات  
 ظاهرة ، وضوء القلب ، وهذا هو جوهر الصلاة على الحقيقة .

● كلان جنون بحث الدكتور مدكور عن النزول الفيلسوف  
 قائم بكافة جواب النزالي ، فهو فقيه ، وأصولي ، ومتكلم  
 وصوفي وأخلاقي ، وفيلسوف . وقد اعطى التصوف بالأخلاق عبده  
 فالإلهاد كتاب صوفي وأخلاقي في آن واحد . والأخلاق دينية  
 أعلمها على أسس سيكولوجية . وهو متكلم وله آراء كلامية على  
 الرغم من كتابه إلهام العوام ، والاقتصاد في الاعتقاد .

أعده العرب في الفلسفة على النقل ، ولكن منذ القرن الرابع  
 بدأوا يفسلون لأنفسهم ، وانتشرت مذاهب وآراء مختلفة من باطنية  
 وإسماعيلية وملاوية وقدرسية وسنوية والأشعرية . وقرأ النزالي كل شيء  
 ثم أتى في منطق مبادئ العلم وعلم الكائنات ومنطقه المنطقي ، وأبى  
 في الفلسفة مقاصد الفلاسفة يسمى ثلاثة أجزاء هي المنطق والطبيعيات  
 والإلهيات ، وقد ترجم الكتاب إلى اللاتينية ، ووقف وجرى ليكون  
 على مقدسه التي يقر فيها أن الرياضيات والمنطق لا تخالف العقل ،  
 وأن الحق في الطبيعيات مشوب بالباطل ، وأن الإلهيات هي أكثر  
 عقائد الفلاسفة بعداً عن الحق .

وبعد انتهت من أهم الكتب الفلسفية ، فيه مادة غزيرة ، ومنهج  
 جديدة في العرض والتأليف ، إلى اعتراضات ونقد ، وقد جمع  
 مشكلات للفلسفة في مخرين مسألة . وقد رد عليه إن رده في نهايت  
 التباين . وكتاب المنطق من الفضائل كتاب فلسفي على الرغم من نقده  
 للتشكيك والفلاسفة والباطنية لتصويهم على العقل لا على اللوق .  
 وفي المنطق نظرية متكاملة في المعرفة . وفيه حقائق ثلاث لم يتوهم إرمانه

كل بحث منها اتجه وجهة تختلف اختلافاً عظيماً عن  
 الأخرى .

● الدكتور عبد الرحمن يدوي ألقى بحثاً عن النزول  
 ومصادره اليونانية ، فذكر قول ابن العربي إن النزول دخل  
 بطون الفلاسفة ولم يصلح أن يخرج منها . وبعبارة أخرى استمد  
 النزول فلسفته من الفلسفة اليونانية ، ولم يأت بمجدي . وهذه قضية  
 إن صحت خطيرة ، تنزع عن حجة الإسلام حجيته  
 كفكر إسلامي وفكر عالمي . ولا بد من تأكيد هذه  
 الدعوى ، وهذا ما قام الدكتور يدوي بالبرهنة عليه . قال  
 إن كتاب التلث يمدد على برتليس وحل رد يحيى النحوي على هذا  
 الكتاب ، وهذا الرد مترجم إلى العربية وقد نشر . توفي يحيى سنة  
 ٦٢٥ ميلادية ، وأورد ١٨ حجة يثبت فيها أن العالم ليس قديماً ،  
 ويذكر البيروني كتابه ويقول عنه . أما النزول فلا يذكر مصادره  
 أبداً .

وفي ربيع المنجيات من الإلهاد كتاب بعنوان توبيخ النفس ،  
 وهو مأخوذة من كتاب محاذاة النفس لحرس . هناك إذن تشابه في  
 المنطوق ، كما يوجد تشابه في أسلوب المحاذاة ، لحرس يغلب  
 النفس بقوله يا نفس ، أو أيها النفس ، وكذلك يقول النزول في  
 وكذلك الانتكاد ، يقول النزول إن النفس منسقة إلى الملكة ولا  
 تنطق ، ويقول حرس : حتى متى أنت يا نفس سائرة في طريق  
 الغلابة ، فلا تتساقين . كل ما فعله النزول أنه وضع الانتكاد في إطار  
 إسلامي ، وأضاف إليها فكرة الأخرى .

ثم نظرية النور في « مشكاة الأنوار » مأخوذة من تاسوعات  
 أفلاطون ، من التشويع الرابع للفصل الخامس . وقد حاول النزول  
 الابتعاد من مصطلحات الفلاسفة حتى يتطابق مع الإسلام والقرآن ،  
 فليس منه جديد سوى أنه ربط الفلسفة الأفلاطونية بالمفاهيم الإسلامية ،  
 وأبرز تلك الآراء في ثوب إسلامي يبدو منه أنه إسلامي خالص .

● والدكتور ثابت الفتدي زميل قديم ، حارس في  
 باريس ، واختص بدراسة المنطق الرمزي ، وإنشئ  
 به « الحال » إلى أن يكون من أرباب الأحوال . فهو  
 من هذا الوجه شديد الشبه بالنزالي نفسه ، ألقى عنه  
 بحثاً سماه « من فلسفة الدين عند النزول » ، ذهب فيه إلى أن  
 حجة الإسلام فيلسوف ديني ، وأن ملحه يحيى علم الأخرى ،  
 ثم طبق هذه الفكرة على الصلاة ، والتوحيد ، والمعرفة . وهو  
 فيلسوف ديني لأن محور فلسفته هي الدين . فبحث عن اليقين ،  
 وإنشئ إلى أن الحقيقة الصورية معيار الحقيقة ، ثم بحث في طبيعة الدين

بها قد ، وهي : الله ، والنبوة ، والآخر . حل الجسلة فلسفة دينية تقول بإله قادر عالم فعال لما يريد ، وشاء هذا الخالق الهداية لعباده ، فأرسل إليهم رسلا من أنفسهم .

● الدكتور محمد الهاشمي أستاذ بالعراق ، تكلم عن العلية والاتفاق في مذهب الغزالي ، وهي القضية التي عرضها في «الهافت» . يقول الغزالي إن الاتفاق في الوجود بين شيئين كالنار والاشتعال لا يستلزم من إثبات أحدهما إثبات الآخر ولا نفيه ، لأن التفاعل هو الله . فالاشتعال علاقة زمنية لاسببية ، والحكم يجري على المادة المستمرة على طبيعة الأشياء . وقد كان فلاسفة اليونان يزعمون أن للأشياء طبعات ، كالنار طبيعتها الإحراق . وقد رد ابن رشد على الغزالي فقال : إن إنكار الأسباب الفعالة إنكار للقياسات . والقول بالمادة قول باطل ، إذ محال أن تكون له عادة ، وليس للأشياء عادة لأن المادة لا تكون إلا للنفوس . فلم يبق إلا أن تكون المادة للإنسان ، والكلام على ارتباط شيئين في الخارج .

● أما الأب فريد جبر من لبنان ، فقد انقطع لدراسة الغزالي زمناً طويلاً ، وكتب بالفرنسية عنه كتابين ، أحدهما عن نظرية المعرفة . وكان موضوع بحثه « مع الغزالي في صميم تفكيره » . ذهب فيه إلى أن القرن اثنى عشر بعدة الله بالإنسان وأن صميم تفكيره يركز على الإنسان ، الذي إذا صلى لنفسه وصلها قلب الله نوراً في قلب المؤمن بيد الشك والحرية ويؤدي إلى اليقين . وأن الله موجود في تلويح عباده المؤمنين ، كما قال عمر : رأى قلبى ربي . ولغزالي أدب ديني ، عبارة عن أدب صرف ، وله تحليلات نفسية رائعة . وقد بسط الغزالي عقيدة أهل السنة وبين موقف الإنسان منها متوجهاً بالاعتقاد وهو لنظري ليس فيه انشراح ، ثم بالملم وهو إزالة الغفلة والاستيعار بمخاطبات الأمور ، ثم أخيراً بالمعرفة وهي تقوية العلم بالتصديق ، وهو اليقين .

وقد نقوش صاحب البحث في بعض هذه الآراء ، منها : أن الله ليس موجوداً في قلب الإنسان على الحقيقة ، بل هو مجرد استمارة وتشبيه وكذلك قوله عمر . ومنها أن الغزالي لم يكن بارعاً في اللغة ، وليس له أدب ديني ، ولم يبتعد هذا الأسلوب وعنه اللغة ، وأن اللغة العربية كانت متسمة قبله لجميع المعاني التي ذكرها .

## ●● الاجتهاد

تكلم الدكتور عبد الكريم اليافعي عن تحديد النسل ،

فقال : إن العرب جروا على التصحر بكثرة الولد ، وظهرت في القرن الرابع في بغداد نزعة لضبط النسل ، وكتب أبو طالب المكي في مزايا الزواج والعزبة . وتكلم الغزالي عن فوائد الزواج وهي إيجاب الولد ، وكسر الشهوة ، وتغيير النسل ، ولكن الولد هو الأصل لأنه المقصود من إبقاء الجنس . ومن آداب الزواج عدم العزل . والفرض من تحديد النسل إما محافظة للمرأة على جمالها ، أو اشتغالها بالكتب ، أو الظروف الاقتصادية . وهذه الحالة الأخيرة قد يباح فيها ضبط النسل .

● وتكلم الشيخ إبراهيم القطان من الأردن عن الغزالي الربوبي والعلم ، فخلص رسالة «أبنا الولد» ، حيث ذكر فيها الغزالي كل ما يحتاج إليه العلم والتعلم في عصره . وقد مزج الغزالي بين العلم والعمل ، فقال إن العلم بغير عمل جنون والعمل بغير علم لا يكون . ثم فصّل الغزالي التعلم بثلاثة أمور ، منها ألا يمتد قبل أن يكون هو عالماً أولاً ، وأن يحب لأبيه ما يحب لنفسه .

● وحاول الدكتور حسن الساعني أن يبين أن نهج الغزالي في الإحياء «وعسى» و«وازن ين» نهج الغزالي وأوجست كوكبت التي ذهب إلى أن الإنسانية مرت في حالات ثلاث هي التور ، المي ، ثم التفسس ، ثم الوضع أي العلمي . ونهج الغزالي موقفي ، ومرنه إصلاح المنهج في عصره ، وعنه ما يبحث موضوعاً بعد له بمنزلة نظرية . ثم يبين ما في جانب من بحاسن وما في قبه من سائر ، التي يسجها الفوائد والموال ، ثم يقيده وجهة نظره بعد ذلك بعد النظر في السلوك والظواهر وأحوال الناس .

● وتكلم الدكتور عبد المعز نصر عن فلسفة الغزالي السلبية ، معتمداً على كتاب «الخير للسلوك» الذي ألّفه الغزالي لأحمد بن ملكتشاه ، وهو كتاب في فن الحكم ، ويقوم على فكرة العدل التي تتوافر من الأخذ بنظام الدين والدنيا معاً ، فالدين موزعة للأخرة ، فالنظام فدين إلا بالدين . ويعرف الغزالي السياسة بأنها استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المستقيم . ولذلك كان مفهوم السياسة عنده مرتبطاً بالأخلاق والتعليم والتأديب . والسياسة مفهوم قانوني ، هو علاقة الأفراد بعضهم ببعضهم الآخر ، وعلاقتهم بالدولة . ومن واجب الدولة أن تكون صاحبة سلطة لكبح جماح الشر ، والقتل في تنسب للسكان والموارد الاقتصادية . والشرع الإلزامي كقيل على المشاكل . خلاصة هناك ثلاث دوائر مترابطة بعضها فوق بعض هي الدين ، ثم الدنيا ، ثم الآخرة . ولكن لا بد من قيام الدولة أولاً قبل وجود الدين والدنيا . والسيادة تتم بالشوكة والقوة ، والشعب مصدر السيادة ، ولذلك نفى فكرة الإلزام للصوم ، والشعب يختار الإمام بالمباينة طبقاً لإرادة الله . واشترط

مرور تسعة عام على مولده . ولا شك أن المشتركين في ذلك المهرجان ، والذين استمعوا إلى البحوث التي أقيمت فيه قد استفادوا فوائد جمة ، واستناروا فيها غنص بمشاكل كثيرة ، كانت تعرض لهم عند دراستهم للغزالي .

\*\*\*

وهذه بعض انطباعات عابرة عن المهرجان أحب أن أختتم بها هذه الكلمة :

● كان البرنامج مزدحماً بالبحوث صباحاً ومساءً ، وأعطى لكل متكلم نصف ساعة يلخص فيها بحثه ، فلم يتسع الوقت في اليوم الأول للمناقشات . ثم اختصر الوقت إلى عشرين دقيقة فقط لكل متحدث ، وهي غير كافية لعرض موضوعه عرضاً وافياً . ثم أفسح المجال للمناقشة ، وهي المقصود الأول من المؤتمر ، إذ يبادل المؤتمرين الرأي ، ويقرون بالحجة بالحجة .

● نشرت بعض صحف دمشق بحوث بعض الأعضاء كاملة . فكانت تحية طيبة من الصحافة في أسبوع الغزالي

● نصليت أجمعة في مسجد التكية الموجود أمام جامعة دمشق ، فسرّني أن يتناول الخطيب حياة الغزالي وأثره في حفظ الدين ، وبذلك شارك الشعب مشاركة فعالة في المهرجان .

● أبدى أحد الطلبة الإيرانيين ملاحظة عن كتب الغزالي بالفارسية ، وذكر أن شعب إيران كان يتكلم الفارسية زمان الغزالي . وهذه الملاحظة جديرة بالبحث نحن هل كانت اللغة السائدة في فارس هي العربية أو الفارسية ، وهل ألّف الغزالي بالفارسية ، أم ترجمت كتبه . وإن كانت قد ترجمت فتي وقعت الترجمة ؟

● كان الحضور في الصباح أقل منه في المساء ، ولكن عدد المستمعين لا بأس به مما يدل على يقظة الوعي الثقافي والشغف بالاستماع إلى الباحث الجديدة . وهذه ولا ريب من علامات رقي الدول .

الغزالي في الدولة أمورا أربعة هي النتيجة ويقوم بها الجند ، والكفاية ويقوم بها الوزارة ، والورع الذي يجب توافره في الإمام ويقوم الورع على العدل ، ثم العلم وينضج به القلب . وقد أباح الغزالي وجود الحاكم الظالم غشياً للنفوس .

## ●● النفساني

● تكلم الدكتور مهدي هلام عن الحسد حته الغزالي ، فقال إن الحسد أساس الجرائم البشرية ، وله أصول نفسية ، والحسد فهو زوال النعمة من صاحبها . ويؤدى الحسد إلى الحسرة والآلام النفسية . وقد وصف الغزالي الحسد في ربع المهلكات من الإحياء ، ورتب أسوأ الحسود ، ابتداء من الغضب ، فإذا عجز عن كظم الغضب رجع إلى الباطل وأصبح حقدًا ، ثم الحسد وهو محرقة الحقد ، وعندئذ يحاكى الحسود استهزاء به ، وقد يعتدى عليه . والحاسد يطلب أولاً إبطال النعمة من الحسود ، ثم الثبابة به ، ثم الانتقام عنه ، ثم الإعراض عنه ، ثم التكلم فيه . وغرق الغزالي بين الحسد والبغية ، وهما موقفان غططان يلزما من تأتبه نعمة ، الموقف الأول أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها وهذا حرام ، والموقف الثاني ألا تحب زوالها ولكن تشتبه لنفسك عليها ، وهذه تسمى مبالغة وبغية . وضرب مثلاً بالحديث الشريف : لا حسد إلا في الثنتين . . . الخ .

أسباب الحسد سبعة ، العداوة ، والخصومة ، والكبر ، والتسبب ، والخوف من فوت المقاصد ، ورغبة الرئاسة وطلبة الجاه ، وغيب النفس .

وأعظم أسباب الحسد التراسخ على طلب غرض واحد ، ودواء ذلك أن يطلب المرء نعمة الله التي لا زحمة فيها .

● وتكلم الأستاذ عبد الكريم العثمان عن وظائف النفس عند الغزالي فيبين المصادر التي استقى منها آراءه ، وهي القرآن والسنة ، ثم المصدر الفلسفي من ابن سينا وابن سكرية ، ثم المصدر الصوفي من أبي طالب المكي والقرشي والحامصي . والغزالي ضريان من البحوث النفسية ، الأول في كتبه الأول مثل مدارج القفس التي يختلف فيها أسطره ويقول للمهلكات النفسية أو القنوى ووظائفها . والثاني يجره في الإحياء ، وهي بحوث أسيلة انفرد بها الغزالي ، ونحنا بها نحواً تحليلياً ذهب إلى أعماق النفس البشرية عطلا لجاما ، سيبا دوافعها ومظاهر سلوكها .

\*\*\*

● بقيت بعض بحوث لا يتسع المجال للإشارة إليها ، وسيظهر بها القارئ مطبوعة في الكتاب الذهبي للمهرجان كاملة . وأحسب أننا بذلك قد قدمنا صورة أقرب ما تكون إلى ما دار في أسبوع الغزالي بدمشق بمناسبة

# بعثة رفاعه الطهطاوى

بقلم الدكتور أنور لوقا



رفاعة الطهطاوى

متوفى العيين ، فى الخامسة والعشرين من عمره ، قد تخرج أخيراً من الأزهر ، بل ألقى فيه بعض الدروس . وقد أفلح شيخه « العطار » فى أن يقنع محمد على بأن يضيفه إلى هؤلاء المبعوثين ليكون لهم إماماً فى « بلاد الإنفرج » التى نزلت من الأتمة .

ولم تكن فكرة إرسال بعثة دراسية إلى باريس فكرة جديدة ، فقد دعا إليها « جومار » (E.-F. Jomard) قبل ١٨١٢ . و « جومار » مهندس جغرافى كان بين العلماء الذين اصطحبهم يونانبرت إلى مصر ، وظل بعد جلاء الحملة — شديد الاهتمام بالدراسات المصرية ، فأشرف على نشر أبحاث أولئك العلماء فى المصنف الموسوعى المعروف « وصف مصر » ، وأصبح من

تحيين فى التاسع والعشرين من شهر مايو الحالى الذكرى الثامنة والثمانون لوفاة رفاعه الطهطاوى . ولقد أصبح اسم « رفاعه » علماً يدل على نهضة الفكرية الحديثة . ولا شك فى أن أهم طور يشرح لنا فى حياة هذا الرجل — وفق حياته — كيف تلقى دوره الكبير ، هو بعثته إلى باريس « طلب العلم » . وهل كانت هذه البعثة فائحة عهد جديد فى تاريخنا ، إلا منذ التحق بها رفاعه ، مصادفة ؟ أجل ، وما أكثر ما يتنكر القدر الحاسم فى صورة المصادفة ! إننا سنحاول هنا أن نروى قصة تلك « المصادفة » ، مستقاة من وثائق المحفوظات وشهادات المعاصرين ، حتى نجعل حقيقة الظروف التى مهدت للبعثة ، وأحاطت بها ، ونقتصر النتائج التى أسفرت عنها . وإذ تسلط الأنواء على أحوالنا بجملة ، نود أن نبرز مكان رفاعه الخاص بالنسبة إلينا ، وأن نزجى هذا المقال تحية وفاء للرائد الجليل .

• • •

نحن فى ميناء الإسكندرية ، ضحى الخميس ١٢ من أبريل سنة ١٨٢٦ ، نودع أربعة وأربعين شاباً بصعيد ، واحداً تلو الآخر ، سلم السفينة الحربية الفرنسية « لاترويت » (La Truite) ، التى تقصد مرسيليا . ونشاهد أحدهم ، وهو شيخ معمم ، يسرع قبل ركوب السفينة فينحى على ماء البحر ، ويقسم فيه يديه ، ويعترف منه ويشرب « حثوات عظيمة » . إنه رفاعه الطهطاوى ، يطبق نصيحة إمامه العزيز الشيخ حسن العطار ، الذى جرب فى رحلاته — إلى سوريا وتركيا — أن « ماء البحر للعلم ينفع له » . ورفاعة فى أسمر ،

وفي مرسيليا أنجز عثمان مع رجال الأعمال مطالب عاجلة لمولاه ، في أواخر سنة ١٨١٨ ، ثم أقام في باريس عاماً وبعض عام ، فدرس الفرنسية والإنجليزية والرياضة . ولم يفت جومار أن يزوده ، عند أوبته سنة ١٨٢٠ ، بصورة جديدة من المشروع ليسلمها للبasha . ولقد سلمها للبasha ، ولكن دون تحمس للفكرة — إذ كان ميالاً لإيطاليا التي سرته المعيشة فيها — فانصرف البasha عن مشروع جومار مرة أخرى . وأما عثمان فقد عمل مدرساً للغة الفرنسية ، ثم مديراً للمدرسة بولاق وصكبتها ، ورقاه محمد علي حتى ولّاه قيادة الأسطول سنة ١٨٢٨ ، غير أنه فر من غضب البasha عليه سنة ١٨٣٣ ، حين أرسله لقمع الاضطرابات في جزيرة « كنديا » فأبى أن يبطش بأهلها .

بدأ الأمر إذن ببعثتين فرديتين ، إلى إيطاليا . ولم يكن يد بعد ذلك من إرسال بضع عشرات من الشبان دفعهم واحدة للدراسة في أوروبا ، تلبية لما تشعب من حاجات الدولة . فإن الكتائب الصغيرة القابعة في صل المساجد والكنائس<sup>(١)</sup> ، بل الجامعة الأزهرية التي انعزلت في عصر الاختناق التركي عن التيارات العلمية الحديثة<sup>(٢)</sup> ، لم تكن بالمعاهد التي تصلح لتخريج الضباط والأطباء والمهندسين ، والموظفين والصناع ، أي جميع تلك الأيدي اللازمة لإدارة المؤسسات الحربية والاقتصادية التي قام عليها نظام الوالي الجديد في استغلال البلاد واحتكار مواردها<sup>(٣)</sup> . ولقد لمس محمد علي هذا النقص ، منذ استتب له الأمر . فنحن نراه يعهد سنة ١٨١٦ — أي بعد أن فرغ من القضاء على المالك

أبرز رجال التربية والتعليم والمهيات الثقافية في بلاده . لقد عرض علي « محمد علي » ، عن طريق قنصل فرنسا « درويش » ، مشروعاً « لبث اخفاضة في مصر بالتعليم » . ولكن محمد علي كان لا يهيم إذ ذاك إلا تثبيت أقدامه في ولاية مصر . فلم يلتفت إلى هذا الكلام عن « بث الحضارة » . وكان لقضاء حاجات حكومته الناشئة ، يستعين «باشرة بالأوروبيين » . غير أن ضرورة تزويد مصانحه بمطبعة ذات حروف عربية ولا تينية لم تلبث أن ألحّت ، فأوفد حولي سنة ١٨١٥ « نيقولا مسابكي » — وهو سوري الأصل — إلى إيطاليا ليتعلم الطباعة . لأنها كانت أكثر بلاد أوروبا استشراقاً . ألم يستول بونايرت في روما على تلك المطبعة العربية التي حملها إلى القاهرة لطبع منشوراته وبث دعايته ؟ ولقد كانت اللغة الإيطالية حتى أوائل القرن التاسع عشر أوسع اللغات الأوروبية انتشاراً في الشرق ، وكان عدد كبير من الإيطاليين يعملون في مصر ، لا تجاراً فحسب ، بل ضابطاً وأطباء ومدرسين أيضاً . وعاد « مسابكي » إلى القاهرة — سنة ١٨١٩ — على وجه التقريب — ومعه المطبعة التي عين مديراً لها سنة ١٨٢١ ، في بولاق ، حيث ألحق أولاً بمدرسة « عثمان نور الدين » . وفي العام التالي ظهر أول مجلد مطبوع ، وهو قاموس إيطالي — عربي .

و « عثمان نور الدين » هذا رجل تركي : كان أول طالب أرسل إلى فرنسا . فبعد أن تجوّل لحساب « البasha » حيناً في دويلات ألمانيا وسويسرا وأتفق بضع سنوات في إيطاليا ، نقله من « ليغورنو » إلى « مرسيليا » تركي آخر في خدمة محمد علي هو « أمير البحر إسحاق جيل طارق » : أثناء إحدى رحلاته إلى « ستوكهولم »<sup>(٤)</sup> .

(١) عن هذه الرحلة : انظر عفوفات وزارة الخارجية الفرنسية بباريس :

Correspondance Consulaire, Alexandrie, vol. 1g, fcs. 278-281.

وعن شخصية « إسحاق جيل طارق » : مقال Autant Rev. Bleu سنة ١٩٢٦ ص ٦٦٦ وما يليها ، ويقال شك —

م. تاجر في « كراسات التاريخ المصري » فبراير ١٩٥٢ ص ١٠٢-١١٠ ومن « عثمان نور الدين » مقالاً آخر لـ « تاجر » في « الكراسات »

١٩٥١ ص ٣٩٢ - ٤٠٥

(١) راجع رسالة الدكتور إبراهيم سلامة :

L'Enseignement islamique en Egypte. Le Caire, Imp. Nationale, 1939.

(٢) رسالة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم : « تاريخ التعليم في عصر محمد علي » . القاهرة ، الطبعة ، ١٩٣٨ ، ص ٣١ .

على في أية مدينة من مدن إيطاليا، غضب الشعب عليهم :  
ففتح في سنة ١٨٢٦ والسلطان — ومن ورائه ، أو من  
أمامه ، «باشا مصر» — ينكل بشعب شقيق في اليونان هبة  
للمطالبة باستقلاله ، وأما في باريس فالفرنسيون يظهرون  
المودة للأتراك ، ويفوقون الإيطاليين تساعاً ورفقاً<sup>(١)</sup>.

ولم ترض هذه «فتوى أنصار إنجلترا» — التي تريد  
أن تند النفوذ الفرنسي — ومنهم «باغوص» نفسه ،  
كأن لم ترض أنصار إيطاليا ومنهم «عنان نور الدين» .  
وانتقلت تلك المعارضة المزجوجة صور السماس  
والوشايات للتأثير على «الباشا» ، ولكنه بعد أسابيع  
قليلة انتهز فرصة وقوف السفينة الحربية الفرنسية  
«لاترويت» بميناء الإسكندرية ، فكلّف قائدها  
«روبار» (Robillard) بنقل التلاميذ إلى مرسيليا . وقد  
احتضى محمد علي بالقبطان وبضباطه البحريين الأربعة  
في القاهرة ، ويسرّ لهم زيارة الجيزة وسفارة وأبي زعبل  
واستقى منهم آخر أنباء البوارج التي بدأ بناؤها في  
أحوالها<sup>(٢)</sup>.

...

واصلت الرحلة ثلاثة وثلاثين يوماً ، رست  
خلالها «لاترويت» على مسينا وتابولي . وفي مياه  
مسينا استغرق تزويد السفينة بالمؤن خمسة أيام ، دون  
أن يؤذن لركابها بالزول . وطلق رفاعه يتأمل في مقبة  
تلك المدينة البيضاء ، لا سيما حين توقد مصابيحها كل  
مساء ، وأطربه توقيع أجراس كنائسها ، ولم يفسد عليه  
ترمّت أو تخرج ما فاض في قلبه من شعور بالجلال ،  
فبات ليلة يستشف أثر الموسيقى في نفسه ويصوره ،  
ويتخى في أبيات رقيقة بحبيب مجهول يصبو إليه

(١) رسالة بتاريخ ٧ يناير ١٨٢٦ من دروفتي إلى باغوص ،  
في ص ٨٦ — ٨٧ من :

G. Marro: La personnalité di Bernardino  
Drovetti. Torino, 1951

(٢) محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية بباريس :  
Correspondance Consulaire, Le Caire, vol. 26, fo. 278.

وغلب الوهايين — إلى «حسن أفندي الدرويش  
الموصلي» ، بفلان من مماليكه ، ليعلمهم في القلعة  
الكتابة والحساب . وتمت هذه المدرسة الخاصة ، وحلّ  
فيها محل الأستاذ العراقي أستاذ تركي يدعى «روح الدين  
أفندي» ، ومضى الصبية يحفظون القرآن ، ويتلقون  
مبادئ اللغات التركية والفارسية والإيطالية ، إلى  
جانب التدريب العسكري . ونحو سنة ١٨٢٠ —  
للحصول على من يحسن قياس الأرض ومسحها —  
افتُتحت «دار الهندسة» في القلعة ، وهي التي انتقلت  
إلى بولاق<sup>(١)</sup> ، ولم يمض عام على وصول الجنرال  
«بوايه» (Boyer) الفرنسي وبعثته العسكرية — أي  
سنة ١٨٢٥ — حتى انتقلت مرة ثانية إلى «قصر العيني»  
باسم المدرسة الهندسية الحربية . وكان دخول هذه المدرسة  
الأخيرة مقصوراً على عناصر غير مصرية ، من أتراك  
وشرّاكسة وجورجيين وأرمن وأكراد<sup>(٢)</sup> . وبات  
محمد علي يرتقب النتائج ، ويتعجلها ، فلما نقد صوره  
قرّر إرسال جملة من التلاميذ إلى أوروبا ، حيث  
يستطيعون أن يتعلموا في سنتين أكثر مما يتعلمون في  
أربع سنوات يتفوقونها بالقاهرة<sup>(٣)</sup>.

ولم أي بلد من أوروبا عساه أن يرسلهم كي  
يحقق أكبر الفوائد ؟

استشار محمد علي في ذلك «باغوص» وزير  
خارجيته ، واستقى «باغوص» «يعوره» «دروفتي» ،  
فنصحه — على الرغم من أنه إيطالي من أهل تورينو —  
بتوجيه أولئك التلاميذ إلى باريس . وتلك نصيحة تربية  
لم يكتم فيها القنصل حله من أن يشير محضر رعايا محمد

I. Heyworth-Dunne: An Introduction to the (١)  
history of education in modern Egypt. London, Luzac,  
1938.

Y. Artin: L'instruction publique en Egypte. (٢)  
Paris, Leroux, 1890, P. 70.

(٣) محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية بباريس :  
Correspondance Consulaire, Le Caire, vol. 26, fo. 282.



كتناول الطعام بالشوكة والسكين ، والنوم على أسرة مرتفعة عن الأرض ! ويصف المقاهي وقاعاتها المثالفة بالرايا ، والصحف التي يراها هناك لأول مرة ، وسفور النساء في الشوارع ونشاطهن في المتاجر . ويشير في صجب إلى المسرح بقوله : « وما رأيته في مرسيليا المليئة بالنساء السكناكل ، وأمرها رهيب ! ولا يمكن معرفتها بوسفها بل لا بد من رؤيتها بالعين » .

وكان محمد علي قد عين للبعثة ثلاثة رؤساء ومن أكابر ديوانه هم : « عيسى شكرى المهردار » ، و « مصطفى مختار الدويدار » و « حسن أفندي الإسكندراني » . هؤلاء سبقوا رفاقهم في السفر إلى باريس - يوم ١٤ يولية - بصحبة « يوسف أجوب » المدرس والترجم الذي هاجر من مصر صبيًا سنة ١٨٠١ ، ثم ملح اسمه بين شعراء فرنسا ومستشرقها . وفي باريس ، « عام » « جومار » لتناول العشاء على مائدة . مع نمر بن عرفوا مصر ، كان بينهم القائد « بليار » الذي تم تحت إمرته جلاء الفرنسيين عن القاهرة من ربع قرن خلا . أو ليس في هذا اللقاء وصل ما انقطع ؟ ...

وأما باقي الألبية ، فتولى ترحيلهم إلى باريس تبعاً - وقد انقسموا إلى أربع مجموعات - أربعة تراجمة اختيروا من مهاجري مصر المقيمين في مرسيليا<sup>(١)</sup> . وبنوه رفاعة ينفع تلك العربات الكبيرة التي حملته إحداها إلى باريس في ختام أسبوع ، لم يشر خلاله بمثل حوار البحر ، بل استمتع بجبال الطريق العامر بالقرى المتتالية ، وبوسائل الراحة التي تقدمها فنادق « في غاية النظافة والنظافة » .

واستأنف الرأي العام الفرنسي اهتمامه بأخبار البعثة عقب وصولها إلى العاصمة . وراح جومار يذيع نشراته عنها بفخر واعتزاز . فعلم الجمهور أن تلاميذ « الباشا »

ويتثنى - عفيفاً - من صبر عيذه . إن هذا الشيخ الإمام لشاعر فنان ، مرهف الوجدان ، يسعدنا الانطلاق إلى آفاق إنسانية جديدة .

وفي ١٥ من مايو ترجل المبعوثون ، وهم في ملابسهم الشرقية القضاة ، على أرض مرسيليا ، وذهبوا توالاً إلى الحجر الصحي . وكان هذا الميناء يحتضن السفن اليونانية إلى جانب السفن التي بينها عمال « دي سريزي » (Lefebure de Cerisy) لخدمة على ، مما جعل الأرصفة والأحواض ميداناً للاحتكاك والشجار بين أنصار اليونان وأنصار الترك ، وأوجب استدعاء بعض قطع الأسطول الفرنسي لإقرار الأمن وتشديد الحراسة . ولم يؤد ظهور المبعوثين المفاجئ إلى حوادث عنيفة ، بيد أن الأحرار من خصوم الحكومة الفرنسية أفشوا الخبر ، ووجدوا فيه مادة لإهام رئيس الوزراء الرجعي (Vissière) بالتواطؤ مع عيل السلطان . ولم تسكت الصحف الحكومية ، بل وجهت على تلك « المزاعم » . وتوالى تعليقات أحزاب اليمين وأحزاب اليسار ، بحاسة طيرت شهرة هذه البعثة الدواسية ، التي لم يكن أعضاؤها القصر يدركون من الأمر شيئاً . وظلت الأذهان تربط - حتى في المحلات الثقافية المزنة - بين وفود هؤلاء المبعوثين ونية صق اليونان الباسلة !<sup>(٢)</sup>

وخرج الألبية من الحجر الصحي بعد تمام ثمانية عشر يوماً . وركبوا « العربات المزينة الجميلة » التي تصمر آباء الليل وأمرات النهار تفرق ، إلى بيت من قصور المصنوعة خارج المدينة . ومكثوا في مرسيليا شهرى يونية ويولية ، يستكشفون أوجه الحياة الأفريقية أثناء زيارتهم ، ويتعلمون حروف اللغة الفرنسية ومقاطعها . ويأخذ رفاعة في تدوين مشاهداته وملاحظاته ، كما أوصاه أستاذه المطار ، فيسجل التقاء التاريخي بأبسط العادات ،

(١) انظر بحوثات وزارة الحرية الفرنسية بفانسين (Vincennes) : « Réfugiés d'Egypte », dossier de Joanny Pharaon.

قد نزلوا في ٥ من أغسطس داراً بشارع « كليشي » رقم ٣٣ ، وأنهم بدأوا - منذ ٩ أغسطس - يتلقون الدروس في اللغة الفرنسية والحساب والرسم من الساعة صباحاً إلى السادسة مساءً . وألم موضوع البعثة محرري الصحافة الفكاهية - ولا سيما « Le Frondeur » و « La Pandore » . وكتب أدريان من أهل مرسيليا - « Barthélemy et Méry » - ملحمة هزلية عنوانها « البكرية » ( La Bacriade ) تروى قصة يهودى « غربي يدهى » ناتان بكري « جاء يتفق في باريس أموالا طائلة ابتزها من والى الجزائر ، فأرسل محمد علي - بناء على طلب السفير الجزائري « عثمان » - خمسين تركياً إلى باريس للتسار من ذلك اهتلال !

وراجت التعليقات وازدادت طرافة ولذعاً في العام التالي ، حين أهدى « محمد علي » إلى « شارل العاشر » زرافة أثار قدومها إلى فرنسا فضول العامة . والخاصة . وعادت إلى الظهور هذه المناسبة صفحات من النقد والسخرية ، ومثلت روايات مرحة تصور بعض مواقف أولئك المبعوثين في صورة الأتراك أعداء اليونان .

والحق أن ذلك الأدب الشعبي لم يخطئ عندما نسبهم للأتراك . فقد كان بينهم ستة عشر شاباً من الترك والشراسكة والأرمن ، ولد معظمهم بالآستانة ، هذا عدا العثمانيين المولودين في القاهرة ، وأما المصريون فكانوا خمسة . وكانت للأوليين الرياسة ، والدراسات التي تبينهم للرياسة ، كالإدارة الملكية والإدارة الحربية والإدارة البحرية والعلوم السياسية ؛ على حين وجه المصريون إلى تعلم صناعات يدوية أو كيميائية أو فنية ، وإلى دراسات شاقة ولكن لا خطر لها على نظام الدولة - كالطب - لكي يظلوا دائماً أتباعاً محكومين . وتتضح هنا سياسة محمد علي : كان يقصى أبناء

مصر عن المناصب الهامة ، ويعتمد على طبقة أرسقراطية تدن له وحده بالولاء . ولقد اعترف للتفصيل الروسي سنة ١٨٣١ بأنه كان يستجلب - على أيدي تجار أترك يأتون من الآستانة - مماليك يشتريهم صغاراً ويربهم ، وقد يرسلهم إلى أوروبا على نفقته لهذا الغرض <sup>(١)</sup> . وتشهد بذلك كثير من وثائق المحفوظات <sup>(٢)</sup> ، وكتب المعاصرين <sup>(٣)</sup> .

لا عجب إذن أن نرى من يبلغ عمره الخامسة عشرة إلى جانب من أمسى في السابعة والثلاثين ، وأن نسمع معظمهم يتخاطبون باللغة التركية . ولئن نجدنا البحث عن يفهم الفرنسية ، فليس منهم من تعلمها في وطنه . بل كان بينهم أحد عشر شخصاً لم يتلقوا أى تعليم أولي ! وهذا الخليط العثماني الغريب ، إنما تنعش عنه منطق سياسي لا تربوي يشترط في طالب العلم الذكاء وحسن الاستعداد وحداثة السن <sup>(٤)</sup> . ولم يحظ رفاعة الصعيدي بأن يكون واحداً من أولئك المبعوثين ، حتى أضيف إليهم قبل سفرهم - إماماً ، كما أسلفنا ، لا طالباً - بفضل تزكية الشيخ العطار .

\*\*\*

ولم ينضج المبعوثون بما كان يلقي عليهم من دروس اللغة الفرنسية ، بل ظلوا يتكلمون فيما بينهم بلغاتهم الأصلية . ولما كان تحصيل اللغة هو الخطوة الأولى في سبيل استيعاب مختلف العلوم ، عمد جواهر إلى توزيعهم

R. Cattaoui : Le règne de Mohamed Aly d'après (١) les Archives russes en Egypte. Le Caire, Impr. de l'Inst Fr, 1931. I. 425-426.

(٢) محفوظات قصر الجمهورى بالقاهرة ، القسم التركى ، دفتار الحية : دفتر ١٨ رقم ٢٣٥ بتاريخ ٢٠ من ذى الحجة ١٢٣٩ - دفتر ٢٩ رقم ١٠٥ بتاريخ ١٩ من جمادى الآخرة ١٢٤٢ - دفتر ٢٢ رقم ٥٧ بتاريخ ١٣ من ربيع الثاني ١٢٤٢ - دفتر ٣١ رقم ٢٧٦ بتاريخ ١٨ من ذى القعدة ١٢٤٣ .

(٣) Gisquet, Prise d'Avvennes; Clot Bey.

(٤) راجع القائمة ضمن تقرير لجومار نقله عن « مجلة الأديوية » محر طوبون في كتابه : « والمئات العلمية في عهد محمد علي » . إسطنبول ١٩٣٤ . ص ٢٦ - ٢٩ .

ويوجه إليهم خطابات مليئة بالتهديد والوعيد<sup>(١)</sup>.

وفي ختام عامهم الدراسي الأول ، في يولية سنة ١٨٢٧ ، عقد لهم مجتمع امتحان عام ، كان من حسن نتائجه أن قرر محمد علي لجومار مرتباً سنوياً ثابتاً ، قدره عشرة آلاف فرنك ، اعتذر جومار عن عدم قبوله . ونشرت الصحافة الرسمية في باريس رده الكريم ، وفيه يعلن تطوعه للإشراف على البعثة مجاناً ، لوجه العلم والإنسانية والحضارة ، ولتوثيق علاقات الود بين البلدين .

وفي العام التالي - في يوم ٢٨ فبراير وأول مارس سنة ١٨٢٨ - أُدعى المعوثون امتحاناً شاملاً في الدراسات الإعدادية . وجعل جومار من هذا الامتحان حفلاً مشهوداً ، دعا إليه المستشرقين وقرأ من أعضاء الهيئات العلمية والقادة ، وعلى رأسهم « الكونت دي شابرول » لا لأنه محافظ مقاطعة « السين » وعضو مجلس النواب فحسب ، بل لأنه من العلماء الذين رافقوا بوناپرت إلى مصر . واكتمل معنى الحفل - في رأينا - بحضور ضيفين معينين حرص جومار على قدميهما ، وهما « سير سيدني سميث » قائد الأسطول الإنجليزي الذي أعاد جنود الحملة الفرنسية من مصر إلى بلادهم ، و « دافيد موريه » قنصل بريطانيا ! وكان توزيع الجوائز فرصة طيبة لإقامة حفل آخر ، في بيت الأندية يوم ٤ يولية ، جمع المستشرقين أيضاً وكبار رجال الجامعة والجيش . وتسلم المتفوقون الجوائز من يد « الجنرال بليار » ، بعد أن خطب جومار فيهم خطبة بليغة .

وكانت الجوائز كتباً قيمة ، نال منها رفاعه لتفوقه في الامتحان الأول كتاباً يسمى « رحلة أنغريس في بلاد اليونان » ، سبعة مجلدات جيدة التجليد غنية بالذهب ، « ولتفوقه (١) تخليص الإبريز ص ١٥١ - ١٥٢ . ودفتر ٤٠ مية تركي ص ٥١٨ في ٢٨ جمادى الأول ١٢٤٦ .

على عدة مدارس خاصة ( بنسبونات ) ليضطروا إلى ممارسة اللغة الفرنسية مع زملائهم وأساتذتهم الفرنسيين . ويقول رفاعه « تفرقتا في مكاتب متعددة ، كل اثنين أو ثلاثة أو واحد منا في مكتب مع أولاد الفرنسيين » أو في بيت غصون عند معلم غصون بقدر معلوم من الدرام في نظير الأكل والقرب والسكنى والتعلم وتمهد أمورنا . ورحب بهم خيرة المربين : تزل « أرلين » وأخوه « غصرو » و « مظهر » لدى الأستاذ جوبو (Goubaux) مؤسس « Collège Chaptal » ، وأقام رفاعه لدى المهندس شفالبيه (Chevalier) وهو من أصحاب الثقافة العليا . وكان على الجميع أن يدرسوا اللغة والرياضة والجغرافيا والتاريخ والرسم . على أنهم لم يفقدوا صلهم بالمركز الرئيسي ، الذي يسميه رفاعه بيت الأندية . فهناك كانوا يتجمعون عند خروجهم من مدارسهم في العطلة الأسبوعية ، ليتلقوا التعليمات الخاصة بقضاء وقت فراغهم . وكانوا أيام الخميس يزورون بعض معلم باريس بصحبة أساتذتهم وزملائهم الفرنسيين . وقد يؤذن بالتزود في المدينة مساء - أثناء الأسبوع - لمن لم يكن عليهم واجبات مدرسية . ونصت اللائحة التي وضعها « جومار » مدير البعثة - بالاشتراك مع رؤسائها الثلاثة المشرفين على شئونها المالية والإدارية - على عقوبات صارمة يتعرض لها المخالفون<sup>(٢)</sup> . وكان أولئك الثلاثة يتناوبون الرئاسة ، حتى انفراد بها « عدي شكرى » ، فطنى واصطدم ذات يوم بجومار ، وشكاها بجومار لمحمد علي ، فأمره بتنفيذ توجيهات المدير الخبير<sup>(٣)</sup> . وبعد عودته سنة ١٨٣١ ، خلفه رفيقه التركي « أمين أفندي » . وكان « الباشا » يطلب تقريراً شهرياً يبين نشاط كل تلميذ ؛

(١) راجع فصل « في تدويرنا في شأن الصغول والغروج » ص ١٤٨ - ١٥٠ من رحلة رفاعه « تخليص الإبريز في تليخيص باريز » ، بولاق ، المطبعة الثانية سنة ١٨٤٩ .

(٢) سنة ١٨٣٠ . محفوعات الناصر الجمهوري بالقاهرة : دفتر ٤٠ مية تركي رقم ٦٧٢ بتاريخ ٢٠ من ذو القعدة ١٢٤٦ .

حولها . ولقد كانت تجربة خضبة استغرقت خمس سنوات .

وعاد رفاعه من باريس سنة ١٨٣١ ، بعد أن اجتاز في ١٩ من أكتوبر سنة ١٨٣٠ امتحانه النهائي ، وفيه قدم مخطوط رحلته إلى لجنة المستشرقين التي ناقشته ، على أنه رسالة تكميلية إلى جانب اثني عشر موضوعاً مترجماً<sup>(١)</sup> .

وألحق محمد علي بهذه البعثة ستة من التلاميذ أرسلهم إلى ميناء طولون لتعلم الإنشاءات البحرية ، في أغسطس - سنة ١٨٢٨ - أي بعد أن فقد أسطولوه في موقعة «نقارين» . وقبل نهاية العام نفسه ، أرسل عدداً آخر إلى باريس ، وكذلك فعل سنة ١٨٢٩ ، ثم سنة ١٨٣٢ بصحبة «كلوت بك» . وبلغ سنة ١٨٣٣ مجموع من تشملهم «لدولة المصرية» في باريس ١١٥ تلميذاً . ثم صرفت «ولدتهم» حروبه مع السلطان عن الاهتمام بهذه المدرسة ، ولعل موقف فرنسا من «المشاة الشرقية» قد غيب أمله ، فطلب - في أول ديسمبر سنة ١٨٣٥ - إعادة جميع المبعوثين فوراً .

\*\*\*

ولا يعني في هذا المقال عن «بعثة رفاعه» حديث البعثات الأخرى وكشف ما استر وراءها - تحت مظهر العلم - من أغراض محمد علي السياسية . وحسبنا أن ننظر في نتائج الدفعة الكبيرة الأولى :

ها هم المبعوثون العائدون سنة ١٨٣٢ ، وقد ذهبوا توجاً لتحية «ولدتهم» في قصره . يسأل محمد علي أحدهم : ماذا تعلم ؟ فيجيبه : الإدارة المدنية . ويستفهم الباشا : ما هذا ؟ فيشرح له الفتى :

- إنها دراسة تصريف شئون الدولة .

- أوه ! أوه ! أنت أن تدخل في الإدارة ؟ غيبت وفكك سنوا

إني أنا الذي أصرف الشئون ؟ اخذت ترجمة كتب العسكرية .

في الامتحان الثاني كتاب «الأنيس المفيد الطالب المستفيد» وجميع الشئور من منظوم ومتنوع تأليف سيبويه<sup>(١)</sup> .

وباجتياز المرحلة الإعدادية ، أصبح التلاميذ أهلاً للتخصص في فروع مختلفة ، فانقسموا إلى خمس عشرة فرقة صغيرة لدراسة النظم الحربية ، والحقوق ، والبحرية ، والكيمياء ، والمهندسة المدنية ، والطب ، والزراعة ، وغير ذلك من علوم الطبيعة والأحياء يبسطها لهم مدرسون خصوصيون . وتردد بعضهم على المعامل والمصانع لتعلم الصبغة وتركيب الأملاح وصنع الزجاج والأسمنت والسكر ، والطباعة على الحجر ، كما تدرب طلبة البحرية على الملاحة في السفن الفرنسية بميناء «برست» ، وتدرب طلبة الزراعة في حقول التجارب «بروفيل» .

وأما رفاعه ، فقد واصل دراسة اللغة الفرنسية والتاريخ والجغرافيا ، وألم بالحساب والمهندسة والاعداد ، والطبيعة - من غير تعرض لعمليات «بلاشوجيا» فكهرو معطالات قيمة في المنطق وتاريخ الفلسفة والأدب الفرنسي ، ولا سيما أدب القرن الثامن عشر الذي يؤمن بارتقاء البشرية ، وهدى المعارف ، وتحكيم العقل في تنظيم المجتمع . وشغف بمقالات الصحف والمجلات ، فهو يقول : «كنت عولتها غاية التولع ، وبها أسمع من لهم القصة للفلسفية ، وربما كنت أترجم منها مسائل علمية وسلمية وتخصص في الترجمة . وأفاد من أحاديث المستشرقين «سلفستر دى سامي» و «كوسان دى پرسثال» و «جوزيف رينو» ، ومن اتصاله بالناظم بيوسف أجوب وجومار وأساندته الفرنسيين . وأدّت مطالعته ومشاهداته إلى تطور عقل سليم ، أفضى به من السذاجة إلى نضج الرأي ثم إلى النقد الساخر ، مما نلمح آثاره في فصول كتابه القيم ، الذي يصور لنا تجربته تلك الإنسانية أثناء

(١) راجع تفاصيل هذا الامتحان في :

العلمي - مع تقديمهم في السن - عند بدء دراساتهم ؟  
لقد أعيد منهم حصة لعلم صلاحيتهم . وكان «ول التيم»  
يحكم على مثل هؤلاء الناشئين بالأشغال الشاقة<sup>(١)</sup> .

ويحاول كلوت بك - وهو من المدافعين عن محمد  
على - أن يبرر النتائج بحجة أن « نسبة الذين أفلحوا تفوق  
ملاسته الملاحظون » بيد أنه يعتمد على نتائج امتحانات رسمية  
توشى فيها המתحون لإرضاء «الباشا» بالثناء على  
مبعوثيه . ولعل «إدريس أفندي» - خصم كلوت  
بك - أصدق منه إذ يتحدث عن واحد من أعضاء  
البعثة اضطر إلى أن يعمل إسكافاً في زقاق من أزقة  
الحى الاخرنجي بالقاهرة ، وعن آخر هو «إبراهيم  
الساعى» الذى لم يكن ماهراً ولا أميناً<sup>(٢)</sup> . ويعترف  
جومار نفسه ، في رسالة منه سنة ١٨٤٤ إلى «أرتين» -  
وكان وزير خارجية محمد على - بكثرة عدد الذين  
« لم يفلحوا تماماً » ويعلم انتفاع مصر باستخدام من تخصصوا  
فيما يناسبهم من الوظائف<sup>(٣)</sup> .

ولذلك لم يفلحوا ، هل أفلحوا حقاً ؟

إن التركيين «عبدى شكرى» و «مصطفى  
مختار» أصبح أولهما رئيس المجلس الأعلى للحكومة  
ونال «الباشوية» ، وتولى الثانى وزارة المعارف  
ونال «البكوية» .. وخلف الأرمثيان «أرتين» ثم  
«اسطفان» - وكلاهما «بك» - مواطنهما «ياغوص  
بك» في منصب وزير الخارجية . واستطاع «محمد  
مظهر» بفضل أصله العائلى أن يرقى إلى «الباشوية»  
وإلى وزارة الأشغال ، كما استطاع الشركسى «محمود

(١) مخطوطة إدريس أفندى «أخلاق وعادات» ص ٢٧٠ -  
وحاول القسطنطين الجورجى «هل الكرسي» الفرار فألقى القبض عليه  
وأعيد إلى مصر حيث عاقبه محمد على (عمر طوسون ص ٤١) .

(٢) مخطوطة «سياسة وإدارة» ص ٨٤ - عن شخصية  
إدريس أفندى ومخطوطاته راجع مقالنا بالعدد ١٥ من «الهبة»  
ص ٤٧ - ٥٩

(٣) نشر الرسالة الإسكندنافية في La Rev. du Caire  
أكتوبر ١٩٤٤ .

- ولكنى ، يا جناب الباشا ، لم أدرس العسكرية .  
- قلت لك انذهب ، إنك تعرف التركية وفرنسية ، وطا  
يكفى .

ويتجه محمد على إلى الثانى ويسأله :

- ماذا تعرف ؟

- الزراعة .

فيصبح «عبد ... أفندى» سكرتير الوالى :

- الزراعة ؟ سبحان الله ! وهل يلد الأرض وحرثها يحتاجون  
إلى دراسة ؟ إن فلانينا لم يلبهوا إلى أوروبا ، ومع ذلك يعرفون  
ويزرعون ... كان ينبغي أن تتعلم العلوم الحربية أو العلب .

ويتصل هذا المشهد الفكاهى ، الذى يرويه  
«هامون»<sup>(١)</sup> ، بأن ينكر «الباشا» على من درس  
صناعة الشمع نفع دراسته ، ويسفه الذى درس صناعة  
الورق لأن الورق يأتي ورقاً من أوروبا ، ويأمر الذى  
درس الرياضة بأن يدير مغزلاً للقطن !

وقد يكون في هذه الرواية الساخرة شيء من  
المبالغة ، ولكنها لا تخار من حقيقة . فقد كان محمد على  
من ناحية أميناً جاهلاً ، لا قبل له بتعبير الكفاءات  
وتقدير الدراسات ، وكان من ناحية أخرى ذاهية  
محرض على أن يعهد بالوظائف الخطيرة لمن لا يشك في  
ولائهم ، وأن يرشد الذين يتوجس خيفة من اتجاهاتهم .  
والأمثلة على ذلك كثيرة ، يضيئ المقام عن إيرادها .  
ولنقتصر هنا على شهادة شاهد من أهلها ، وهو «أرتين»  
الذى كان من أعضاء البعثة وغداً سكرتير محمد على  
الأخير . إنه يكتب لجومار ، سنة ١٨٣٥ :

«إنى لأرجو لشبان الذين سيفرون من فرنسا ألا يصبحوا  
موضع إهمال كالرثك الذين مادوا سنة ١٨٣٢ » .

ولا ينبغي أن يؤمننا هذا والإمام ، بأن جميع أعضاء  
البعثة كانوا شباناً ممتازين ، تمكنوا من العلم ، وأصبحوا  
خطيقين بتأدية أجل الخدمات ، جديرين بالتبجيل  
والتكريم . وهل نسيبنا في أى ذلك كان مستواهم

الطهطاوى ٢٥٠ قرشاً (وهو أقل من عشر مرتب مصطفى مختار المولود في قوله) . ومن المنيد أيضاً أن تذكر هنا أحمد ابن أنى مصطفى مختار ، وكيف أريد له أن يدرس التاريخ الطبيعى والمعادن ، فأنتق ثمانية أعوام دون أن يصل إلى نتيجة ، بل وأعيد إلى مصر «تمراً لادراكه جريمة التلبس» مع أنه كان «وكيلاً على خرج التلبس» يتصرف في ميزانية كبيرة .

وأما المصريون — مثل بيوى والسبكي والرشيدى والبقلى — فلم يحظوا في غربتهم بتدليل «ول الله» . لذا انصرفوا عن الترف والعيش إلى جد الأمور . وبات يحفزهم للسعى والتحصيل هائل في نفوسهم ، هو مزاج غامض من حنينهم لبلادهم ، ووفائهم الفطرى لأوطى عزيز . وشعورهم العميق بأن أهالهم وإخوانهم ينتظرون منهم أداء رسالة . ومن المؤثر حقاً أن نرى رفاة نبياً لهذه العاطفة المشبوبة ، بهلك مرتبه الضئيل في شراء الكتب ودفع أجور دروس إضافية ، ويسهر للاحتذاء «ببرغم نضيجة طبيب العيون الذى نهاه عن القراءة ليلاً ، ولا يكف تفكيره اليقظ عن المقارنة بين ما يروعه في باريس وما عاينه على ضفاف النيل . ولقد كانت تلك المقارنات توتئاً إلى الإصلاح ، وبداية حياة لوطنه أفضل .

لم ينل رفاة لقب الباشوية ولا كرسى الوزارة ، لأنه — كما شهد الكاتب الحر «فيكتور شولشر» (١) — لم يكن من الأمثراك أو الأرمن . ولكنه في مكانه المتواضع ، مكان المدرس والترجم وناظر المدرسة ، أدى الأمانة . أثار حقول جبل من أبناء الشعب ، ونقل معهم — لم ولن يأتى بعدهم — كنزاً من الثقافة . وراح يكتب وخطب ، وينظم وينثر ، يسطر العلوم ، ويفتح لقومه آفاقاً مجهولة ، ويث كل ما زخرت به نفسه

نامي ، أن يرقى إلى «الباشوية» ووزارة المالية . . . تلك إذن مناصب عليا ، وألقاب رفيعة ، ومظاهر خلافة ، فهل استكشفنا بعض ما تخفيه من الواقع ؟

هذا «مصطفى مختار» ، برغم تربيته في فرنسا ، ما زال منحرف الأخلاق ، يدفعه ذات يوم ذلك الشلوذ الجنسي المتشظى في الأرستقراطية التركية إلى أن يضرب غلاماً مصريةً من علمه حتى يقتله ، لأنه استعصى على نزوته ، وهو — أى مصطفى مختار — لم يكذب فرغ من اقتباس مواد القانون الجنائى ! ويضارعه في القسوة تركى آخر من زملائه ، كان يلقيه جيرانه في «درب الحبال» باسم «أحمد أفندى أبو شنب» ، وكان يسرف في الشراب ويعذب جواربه الإحدى عشرة إلى أن عرفن ذات ليلة كيف يتخلصن منه إلى الأبد (١) . وينمى «إدريس أفندى» على أولئك «المصلحين» المزعومين أنهم لم يهودوا من فرنسا إلا بقشور الحضارة الحديثة ، فافائدة معلومات في الجبر والهندسة وبعض الصناعات لنفوس تهاقت في باريس على الترف واللهو والتمرح والخبون ، وعجزت عن فهم روح الحضارة في نظم المجتمع ، ومبادئ العدالة والحرية ؟

وتتطبق ملاحظة «إدريس أفندى» على العثمانيين ، الذين لم تربطهم بمصر رابطة الوطن ، ولم يشعروا نحو هذا البلد بواجب عليهم ، فكانوا يلتمسون أقرب المتع الشخصية ، ويعتمدون في الاستئثار . لقد اشترى «مصطفى مختار» في باريس آلات موسيقية بمبلغ ١٨٤ فرنكاً . وأرسل «محمد على» لكل من رؤساء البعثة الثلاثة جواداً ، فبلغت نفقات هذه الجياد شهرياً ٤٧٥ فرنكاً على حين كان المرتب الشهري لرفاعة

(١) Patoon . History of the Egyptian revolution from the period of the Mameluka to the death of Mohamed Ali . London , 1862 . II , 257-258 .  
Ali , London , 1863 II , 275 258

تميل إلى الحكم عليها بأنها كانت في جملتها بعثة فاشلة .  
ولقد حتم عليها القتل روح اختيار أعضائها . ولكن  
مصر تداركت أمرها ، وألحقت في من صعيدها بركب  
خشيت عقمه . وعاد إليها الفتى حاملا بذار النهضة ،  
وتعهد الغرس فأتى بطيب الثمر . لولا رفاة إذن لخسرت  
بعثة ١٨٢٦ معناها الأصيل ، ولفقدت أهميتها في  
تاريخنا : أليس انتقاله من طهطا إلى باريس رمزا  
لانتقال مصر من القرون الوسطى إلى العصر الحديث ؟  
ولذلك يحق لنا أن نسميها : « بعثة رفاة الطهطاي » .

من معاني التقدم في التربية والاقتصاد والسياسة ، ويحارب  
أثناء ذلك آراء الرجعية الفاسدة . كان يريد أن يبصر  
أمته بمجد ماضيها وبأسس تطورها . ولم تكل في هذا  
الجهاد عزيمته برغم القيود التي فرضها عليه محمد علي ،  
ولا فترت همته عند ما نفاه عباس إلى السودان . لم يكفر  
برسالة الارتقاء التي آمن بها ، بل عمل في جميع  
الظروف وبجميع الوسائل ، حتى وافته المنية في ٢٩ من  
مايو سنة ١٨٧٣ .

إننا إذا دققنا النظر في وقائع بعثة ١٨٢٦ وإحصائياتها ،

ARCHIVE



# العرب والبرتغال

بقلم الأستاذ نجيب العقيني

وخلفه - بعد انشقاق بين النبلاء - ابنه ألفونسو الأول (١١١٢-١١٨٥م) فهُزِمَ المرابطون في وقعة أوريك (١١٣٩م) وأفاد من ثورة ابن قسيّ عليهم، ومروور الصليبيين به لاسترجاع شتمرية ثم لشبونة (١١٤٧م) استرجاع جيرار سان بور (الذي لا يهرب الموت) أحد قوّاده يابرة وباجة من الموحدين فيها بعد. وخلفه ابنه شانجه الأول (١١٨٥-١٢١١م) فحمل بالصليبيين الألمان والإنجليز وأهل الفلاندر على شلب فاستسلمت لهم عطشاً وخرج قائدها عيسى ابن أبي حافظ بن علي ومن بقي معه منها مؤتمنين على أرواحهم (١١٨٩م) ثم استعادها المنصور بعد استعادته القصر وبالملا والمادا وحاوّن ألفونسو الثاني (١٢١١-١٢٢٣م) الإسبان على دحر الموحدين (١٢١٢م) واستجاب لرغبة أسقف لشبونة في استرجاع القصر، بموازرة إحدى الحملات الصليبية بعد معركة حامية (١٢١٧م) وقنع شانجه الثالث (١٢٢٣-١٢٤٥م) بما ورثه. ولم يبق ألفونسو الثالث (١٢٤٥-١٢٧٩م) فاسترجع من ابن محفوظ الغرب كله، وضمّه إلى البرتغال (١٢٤٩م).

ثم ارتقى عميد منظمة دافيس العسكرية عرش البرتغال باسم جان الأول (١٣٨٥م) وفي عهد أسرته فتح البرتغاليون سبته (١٤١٥م) - التي حرّزت على موسى بن نصير ثم أصبحت معقلاً لقرصان المغرب - طمعاً في إنشاء إمبراطورية فيها وراء البحار، وتسيير السفن حول شاطئ إفريقيا الغربي وفك حصار المسلمين عن الحبشة. ومن سبته انطلقوا

فتح البرتغال - وكانت تعرف قديماً بلوشيتانيا ويلتقى على أرضها الإفريقيون كاليبيين والبربر بالأريين والسلت الأوروبيين - في شمال شرق الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا) وقد أصابها ما أصاب الجزيرة، فاستولى عليها الفينيقيون والقرطاجنيون واليونان، والرومان، وفي عهد أغسطس أحد أباطرة هؤلاء شيدت مدينة ماردة، على شرقه، وجعلت عاصمة البلاد.

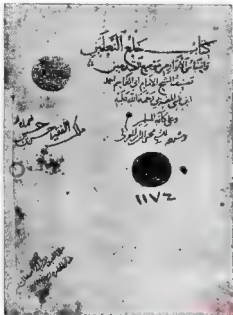
## ●● الفتح العربي :

وبعد أن فتح موسى بن نصير إشبيلية مشى على ماردة وأحلّ شلب محلها قاعدة العرب الأندلسي. وفي عهد الولاة نزل بنو وزير من اليمن بشلب وباجة، وأقطع غيرهم من العرب والبربر يابرة ولشبونة وشتمرين، ثم أعيد توزيعها على السوريين والأردنيين والمصريين عند ما انتقلوا إليها.

ولما قامت الدولة الأموية أخذت ثورة باجة وكانت تدعو للعاسيين، وردّت قرصان الشمال عن لشبونة والقصر، وقضت على الأمراء المولدين، وكانوا من الإسبان القوط قد اعتنقوا الإسلام وطمعوا في حكم إماراتهم. ثم اجتاحتها المنصور في حملاته على غاليشيا وساتياغو، واستعاد المرابطون من ألفونسو السادس ملك ليون وقتلته، بعد هزيمته في وقعة الزلاقة (١٠٨٦م) شتمرين ولشبونة وشتمرة.

وتروّج هنري البورغندي من تيريزا بنت ألفونسو السادس فأقامه كونتاً على البرتغال (١٠٩٣-١١١٣م)





الصفحة الأولى من كتاب «علم التعلين» لابن كس المغربي ،  
والذي زال مخطوطاً في اسطنبول

واستعان إمبراطور الحبشة جلوديوس على الإمام أحمد بن إبراهيم أمير هرر الذي استباح الحبشة ، بالبرتغاليين وقد اشتهر أمرهم في وقعة ديو وما بعدها ، فأمدّه بأربعمائة وخمسين جندياً (١٥٤٢م) ولما عاد الإمبراطور إلى عرشه (١٥٤٥م) أراد مكافأتهم بتحويل الحبشة من المذهب الأرثوذكسي إلى مذهبهم الكاثوليكي بتشجيع من حاكم الهند ، ففعل ثم ارتد عنه .

وتعاقب على عرش البرتغال ، بعد أسرة دافيس ، آل هابسبورج وبراجانس فتنازلت عن المغرب وأيدت العرب في الشرق الأوسط على الأتراك ، وتأثرت بنزعة أوروبا التحررية فأعلنت الجمهورية (١٩١٠م) وتعثرت فيها حتى تولى رئاستها الدكتور سلازار منذ عام ١٩٣٦ فنالت على يديه الاستقرار والازدهار .

إلى القصر الصغير وطنجة ، وانبثوا في ثغور الشاطئ المغربي وأقاموا عليه الصلح ، وبلغوا منه جزر المدير (١٤١٨م) واسور (١٤٢٧م) وسنغاي على ضفاف التيجر (١٤٦٨م) ورأس الرجاء الصالح (١٤٨٦م) . ولما بلغوه عقد ملك البرتغال لواء أسطوله لفاسكو دى جاما ، فاستعان بأبن ماجد الملاح العربي الشهير الهندي في مجاهد المحيط الهندي ، وقد رسا الأسطول في مياه كلكتا (١٤٩٨م) ثم عاد إليها (١٤٩٩م) لإخضاع ثغور الشاطئ الغربي منها ، والاستيلاء على جزائر مالقة ، والطواف بجزيرة الملايو . وأعقبه أسطول معقود اللواء لكبرال فاكتشف - في طريقه إلى الهند - البرازيل (١٥٠٠م) وآخر لمايذا (١٥٠٥م) . وبعده استقر البرتغاليون في الهند حتى أجلاهم الهولنديون عنها في القرن السابع عشر وحلّوا محلهم .

ولم يفتح البرتغاليون بالراء العريض الذي عاد عليهم من الهند ففتحوا جزيرة هرمز عند مدخل الخليج الفارسي ، وهاجموا عدن ومصوع ، وجابوا البحر الأحمر ، واستولوا على سفن مصر والبنديقة ، فشكا السلطان الغوري هذه القرصنة إلى البابا ، وهدّد بغزو الأراضي المقدسة ، ثم جهز حملة بحرية لمعاونة البنادقة فغلبت البرتغاليين على أمرهم ، ثم انزمت أمامهم في وقعة قرب ديو (١٥٠٩م) ، ثم احتلوا عدن وقمران ، وسادوا البحار الجنوبية ، فانتقلت التجارة من البحرين الأحمر والأبيض إلى المحيطين الأطلسي والهندي ، وحلّت لشبونة محل ثغور الشرق الأوسط كوسيط تجاري بين الشرق والغرب .

وبلغ البرتغاليون بمدافع سفائنهم كاتون في الصين (١٥١٧م) فتلتهم تلتقى القراصان . ثم ساعدوها على غريم من القراصنة فأقطعهم مكاو فحكموها ، وشيّلوا مصانع للأفيون فيها درّت عليهم أخلاف الرزق ..

وأبو عمران المرتضى ، والعرباني أستاذ ابن عربي  
أشهر متصوف في الإسلام .

• • •

● وأبدع العرب في فنِّ العمارة فاشتهر جامع لشبونة  
بقبابه ، وجامع مرتولا بمحرابه — وما زال قائماً —  
وتغنى بقصر الشراييب في شلب المعتد ، وابنه  
المعتد بالله ، ووزيره ابن عمار ، وابن اللبانة . وما  
خاطب به المعتد بالله ابن عمار ، عنه :

وسلم على قصر الشراييب عن فني

له أبداً شوق إلى ذلك القصر

وأقام عمر بن الأفطس في قصر يابره قبل أن يتوج  
على بطليوس .

وفي متحف لشبونة زخارف من قصور  
العرب وجوامعهم الدارسة ، وأحجار أثرية . وشواهد  
قبور ، ورقم ، وقطع خزف ، ومجموعة نقود ، كما  
يضم متحف الزكاتب الملكية طائفة من العربات الملكية  
المنهجة على نوال العصور .

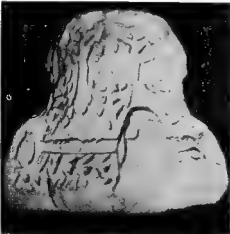
• • •



باب عربي في جامع مرتولا بهد ترميمه



قصر الشراييب في شلب



تاج عمود عربي في متحف الأجناس بلشبونة

## ●● الثقافة العربية

منذ استقل العرب بما يطلق عليه اليوم جنوب  
البرتغال نشروا فيه ثقافتهم ونبع منهم في الشعر : ابن  
عمار ، وابن عبدون ، وابن سارة ، وغيرهم . وفي  
اللغة : الأعلم الشنتمرى ، وابن السيد ، وابن  
السراج . وفي التاريخ : ابن صاحب الصلاة مؤرخ  
الموحدين ، وابن بسام صاحب «الغيرة» . وفي  
الفلسفة : ابن السيد مصنف «كتاب الحقائق» ، وابن  
قسبي مؤلف «كتاب غلغ التملين» — وما زال غلوطلا —

الشاعر الماييدا جارث في ملحمة ، وألّف منها خوسيه  
دى شربا بيتانثل مسرحية بعنوان المنتصور بن عفان ،  
وصاغها القريد كايل وسيزار فريالى أوبرا .

واستعان الأب خيل برث بمحمد العريف في  
ترجمة تاريخ أمراء الأندلس لأحمد الرازى المؤرخ  
القرطبي المشهور ، ثم نقل الترجمة الأسقف رودريك  
الطليطل إلى الإسبانية وضمت من بعده إلى تاريخ  
إسبانيا العام لألفونسو الحكيم .

● وأفاد البرتغاليون من علوم العرب في : الرياضيات  
والفلك والخرائط والجغرافيا - وكان أبو الحسن قد  
وضع الإسطرلاب وخرائط الجزيرة الأيبيرية فقلها  
علماء قطالونية إلى البرتغال - وبناء السفن فاستدعى



ميدان التيران في لشبونة ، وعليه الأثر الشرقى  
من خلال الفن الإسباني



واجهة القصر الملكي في لشبونة وعليها أثر الفن العربى



برج بيلم وعمل قبابه أثر الفن المغربى

أما أثر العرب في البرتغال فوفير متنوع متسلسل .

● ففي اللغة : جمع الأب جان دى صوصه  
الفرنسيكافى الألفاظ البرتغالية المشتقة من العربية في  
معجم من ١٦٠ صفة ، وعدد دافيد لويس أسماء  
الأماكن العربية في كتاب من ٤٤١ صفة . وأوضح  
ما تكون العربية بيانا في المفردات التي هذا  
بال التعريف ، والمصطلحات الدالة على المرافق العامة  
وللمناصب وللمهن والحرف مثل : الفارة ، الزللك ، والتمريفة ،  
ولوزير ، والمنصرف ، والريس ، وقبرقوق وغيرها . ثم  
كتب البرتغاليون - في المغرب - البرتغالية بحروف  
عربية ، وتبادلوا رسائلها مع العرب .

● وفي الأدب : تأثر البرتغاليون بما كان من أصل  
هندي كقصص برلاو ، وكليلة ودمنة وقد ترجموها  
إلى البرتغالية ، وبألف ليلة وليلة التي طبعوها مراراً .  
واشتمل قصصهم على العديد من أساطير أهل المغرب  
الذين ألقاهم السحر في قاع الآبار والأغوار ، فراحوا  
يرقبون النجاة على أيدي فرسانهم .

وتناولت الأغاني البرتغالية تدلّه البرتغاليين بنساء  
العرب ، وأهل المغرب بالأميرات البرتغاليات . ومن  
أروعها أسطورة خطف ابن عوف ملك المغرب  
الأميرة يرانكا بنت الملك ألفونسو الثالث ، التي نظمها

والثقافة العربية بعد القرن الخامس عشر ، فقد استمر الفن العربي في تأثيره ، فكلف الملك ديفيس المهندس محمد العريف تحويل جامع مترولا إلى كنيسة ، وترميم قصر الأندورال قطعه بالطراز العربي زخارف ونوافذ وكتابات . وشيد الملك نفسه برج المراقبة في قصر باجة فجعل إحدى قبابه قوطية عربية على غرار قباب الأندلس .



أطلال قصر لشبونة ، وكان مقراً للملك أهل المغرب



وبعد نزول البرتغاليين بسبب بدء الأمر العربي المغربي على القصر الملكي في شنترة ، وقصر فرناندو دوق باجة ، والجناح الشرق في القصر الملكي بشنترة والقصر الملكي في يابرة ، وفي برج بيلم . ثم تأثرت العمارة البرتغالية بالفن العربي من تركيا والعراق ومصر ، فلاح على الجناح الجديد من قصر بنا في شنترة ، والقاعة العربية بقصر البولصا في بورتو وميدان الثيران في لشبونة ، ومتحف الركائب الملكية .

## ● الدراسات العربية

بدأت بقيام الدولة البرتغالية ففي عهد ألفونسو هنري كان في شنترة مجلس أعيان من المسلمين يستشيروهم الملك في الشؤون الخطيرة مستعيناً بالترجمين العرب والبرتغاليين ، وعند سقوط شنترة كان



عراق جامع مترولا ؟  
وقد كشف عنه حديثاً عند ترميم الجامع

## جامع - كنيسة مترولا

الأمير هنري خبيرا العرب يعلم البحار ، واصطح طرازاً من سفنهم في اكتشافاته ، وحقق رحلة ماركوبولو على رحلة ابن بطوطة . واستعان فاسكو دي جاما بأبن ماجد لهدية في مجاهل المحيط الهندي فقتب بعض المؤرخين اكتشاف طريق الهند إلى البرتغال والعرب .

وظل لأهل المغرب في أحيائهم بالبرتغال فقهاء وعلماء يعلمون أصول الإسلام ، ويجادلون النصارى فيها . وقد تضمن الكتاب الإمبراطوري من ذلك الجدل كثيراً في صحة الأديان ولا سيما أديان موسى وعيسى ومحمد .

• • •

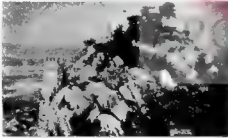
ولئن أملت العلوم الإسلامية في القرن الرابع عشر

ثم خلفه : الأب جان دى صوصة ( ١٧٧٤ -  
 ١٨١٢ م ) Fr. J. do Souza وهو عربي من دمشق  
 قصد البرتغال ( ١٧٤٩ م ) حيث انضم إلى الرهبنة  
 الفرنسيسكانية وعين ترجماناً عربياً للملك . ثم  
 أوفدته الحكومة إلى المغرب مندوباً عنها ( ١٧٧٣ م )  
 واختارته عضواً في مجمع العلوم بلبونة ( ١٧٨٠ م )  
 وانتدبه أستاذاً في معهد اللغة العربية ( ١٧٩١ م ) وقد  
 أبيع لجميع الطلاب الانتساب إليه ( ١٧٩٥ م ) .

آثاره : معجم الألفاظ البرتغالية المشتقة من اللغة  
 العربية ، في ١٦٠ صفحة ( لبونة ١٧٨٩ م ) ونصوص  
 عربية من الوثائق الصادرة عن ملوك العرب إلى ملك  
 البرتغال وابنه جان . وهي عبارة عن ٥٨ رسالة  
 نشرها متناً وترجمة برتغالية في ١٩٠ صفحة ( لبونة  
 ١٧٩٥ م ) وكتاب في النحو العربي ( لبونة ١٧٩٥ م ) .



باب عربي كشف عنه حديثاً في قلعة  
 التي استلمها العرب طوال ثلاثة قرون



قصر أهل المغرب ( الماربة ) في شترة ١  
 وقد ورد ذكره في كتاب الحيرى



واجهة قصر لشبونة المطل على النبال

البرتغاليون جميعاً يدركون معنى صيحة حارصها  
 القائل : من هو ؟ .

ثم اشتدت العناية بالعربية بعد الاستيلاء  
 على المغرب ، فأحسنها كثيرون ، منهم المؤرخ  
 دوارات جالفاو . وقد وجد العالم الهولندي كليباردو  
 مكتبة عربية نفيسة في يابرة ، وعلم أحد الأطباء  
 العربية لأنه كان يطعم في منبر ابن سينا في قُلمُرية .  
 وفي أواخر القرن الثامن عشر نشطت الدراسات العربية  
 بفضل الأب مانويل فيلاس بواس ، فأنشئ في دير  
 يسوع للفرنسيسكانين بلبونة منبر للعربية ، حتى بها  
 لغة وتاريخاً ونشر مصنفات ، لتحديد الصلات البرتغالية  
 العربية ، ونخريج مترجمين لوزارة الخارجية . ومن  
 علموا العربية في ذلك الدير :

الأب دوروزاريو باتستا Fr. A. do R. Baptista  
 الذي صنف في قواعد اللغة العربية كتاباً ، كان الأول  
 من نوعه في البرتغالية ، وقع في ٣٧٠ صفحة ، وصدر  
 من معهد اللغة العربية في لشبونة ( ١٧٧٤ م )

وبعد وفاة الأب صوصة خلفه تلميذاه :

الأب ماتيوس ريبيلو دي سيلفا Fr. M. R. de Silva  
على منبر العربية .

والأب خوسيه مورا Fr. J. de Santo A. Moura  
في منصب الترجمة الرسمي . وقد رحل إلى المغرب  
حيث أثنى العربيه ونشر الكثير من ذخائرها في  
لشبونة .

آثاره : تاريخ روض القرباس لابن أبي ذؤعر ،  
متناً وترجمة برتغالية ، في ٤٢٦ صفحة ( ١٨٢٨ م ) ورحلة  
ابن بطوطة ، في مجلدين : الأول في ٥٢٣ صفحة والثاني  
في ٤٤٦ صفحة ( لشبونة ١٨٤٠ - ١٨٥٥ م ) .

وانتقل الإشراف على منبر العربية ، في أستاذية  
الأب سيلفا ، إلى وزارة البحرية لما عَمَّ أن أُلغى . ثم  
استعاض عنه بآخر في المعهد التجويزي بلشبونة ( ١٨٤٤ م )  
وعهد به إلى كاتيانو بيريرا Caetano Pereira وكان قد  
تعلم العربية على سيلفا وأوغسطو سورومبو اللذين  
تخرجاً بها على باسكال جاينجوس في مدريد . ثم تعطل  
المنبر ( ١٨٦٩ م ) .

ولما أبعد دي كاستل برانكو Castel Branco  
مستشار البلاط الملكي بلشبونة لإخلاصه للعرش إلى  
باريس انتخب عضواً في الجمعية الآسيوية ، فحضر  
جميع جلساتها ، وساعد غيرها بالمال ، وأنشأ مكتبة  
للمخطوطات العربية ، وأتم كتاباً كان قد بدأه عمه في  
علم الهيئة عند العرب في العصر الوسيط ، وصنف  
بمعاونة أحد الرهبان البندكتيين كتاباً في قواعد اللغة  
الكلدانية العامية مما كان يحكي بيتوتى . وخلف خمسة  
أبناء يجيد كبيرهم العربية ويحسب الآخرون .

وفي عام ١٩١١ أنشئ منبر للعربية في كلية  
الآداب بلشبونة — وآخر للعربية في كلية الآداب  
بقلمريه — وثان في معهد اللغات الإفريقية والشرقية  
بلشبونة ، وثالث في مركز الدراسات الأدبية بجامعة

بورنو . ومن المتوقع إنشاء رابع في شلب يعهد به إلى  
الدكتور جارسيا دومنيس ، وخامس في الجمعية  
الجغرافية بلشبونة ، التي تألفت فيها لجنة للدراسات  
العربية البرتغالية من الأساتذة : جارسيا دومنيس ،  
وبدرو مانشو : وفريسيكو فيلوزو ، وكارلوس جارسيا رابيس ،  
والفائدة كورالبا دي كاتيس ، وخوسيه جوليو جيفالفس ، وترينيداد  
مارتينث وجمال كوديل وثمة مشروع لتأسيس مراكز  
دراسات عربية في لشبونة لدى سفارات :  
الجمهورية العربية المتحدة ، والمغرب ، وباكستان  
لدراسة لغاتها وآدابها وتواريخها ، وفنونها ،  
وصيلاتها التاريخية بالبرتغال .

## ● المستشرقون

● الدكتور دافيد لوبس David Lopes تخرج بالعربية  
من مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس ، ولما رجع  
إلى البرتغال ( ١٨٩٢ م ) أعاد منحه الفرنسيكانين في  
تدريسها . ثم عهد إليه بمنبر العربية في كلية الآداب  
بلشبونة ( ١٩١٤ م ) فأدبره بفضلته وتخرج عليه منه  
نحبة . وقد انتخب عضواً في مجمع العلوم بلشبونة ،  
ومجمع التاريخ بملريد ، والمجمع العلمي العربي  
بدمشق .

آثاره : وفرة اشتملت على دراسات رصينة  
وبحوث فريدة وترجمات دقيقة ، من أشهرها ،  
نصوص عربية عن البرتغاليين في الهند ، من كتاب  
« البرق الثاني في الفتح العثماني للهند » ، متناً وترجمة  
برتغالية ، في مائة صفحة ( لشبونة ١٨٩٢ م ) وكتابات  
برتغالية كتبت في المغرب بحروف عربية في ١٥٧ صفحة  
( لشبونة ١٨٩٧ م ) و« تحفة المهاجرين » للشيخ المعري  
المليباري عن أحوال البرتغاليين في مالابار الهندية ، متناً  
وترجمة إسبانية ومقدمة وحواشي في ٣٢١ صفحة ( لشبونة  
١٨٩٨ م ) وأسما الأماكن العربية في البرتغال في ٤٤١  
صفحة ( باريس ١٩٠٢ م ) وثلاث مسائل في الأصوات

آثاره : مشكلة الكتابة البرتغالية بالحروف العربية ، وتطبيق على بعض الصيغ العربية في معجم ناستس ، واللغة الأندلسية في مقدمة ابن خلدون ، وبابرة المسلمة ، وأثر العرب في المعجم البرتغالي ( مجلد حرف ع ) .

● الدكتور غوسيه جارسوسيا دومنيس Dr. José D. Garcia Domingues تعلم العربية على الدكتور لويس ، وتخرج بها على الدكتور فيجانييه من معهد اللغات الإفريقية والشرقية ، وانتدبه المعهد العالي للثقافة للقيام بأبحاث في التاريخ البرتغالي العربي .

آثاره : التاريخ البرتغالي العربي ( ١٩٤٥ ) ولشبونة المسلمة ( في جريدة ثمانية قرون من التاريخ ) ومصر ( دراسة تاريخية وثقافية وسياسية واقتصادية وسياسية ) والأمس التاريخية لصلوات البرتغال بالمغرب ، وأثر الوطنية البرتغالية العربية في قيام البرتغال ( رسالة إلى المؤتمر البرتغال إسبانيا ١٩٥٦ ) وغيرها من الدراسات (١)

● الدكتور أنطونيو جونسالفس لوزا Dr. Antonio Goncalves Losa تخرج على الدكتور فيجانييه وأحرز شهادته بامتياز ، وعين أستاذاً للعربية في جامعة بورتو .

آثاره : فتح العرب شمالاً دورو وأسباه الأمكنة التي خلّفوها فيه ، والثقود الإسبانية العربية في متحف الجمعية البحرية بسمارتو .

(١) وقد تفصل على المؤلف بتفصيل نفيسة عن علاقة العرب بالبرتغال السياسية والثقافية والفنية .

التاريخية بالعربية والإسبانية في ٢٠ صفحة (باريس ١٩٠٦م) وكتابات عربية متصلة بالبرتغال ، متناً وترجمة برتغالية ، في ٢٢٧ صفحة ( لشبونة ١٩١١م ) وحوادث أصيلا في المغرب عند استيلاء البرتغاليين عليه ، في مجلدين : الأول في ٤٤٧ صفحة والثاني في ٥٦٢ صفحة ( لشبونة ١٩١٥-١٩١٩ ) والعرب في توالييف ألكسندر هركولانو ونصوص في الجامعة ( وهو معجم للمفردات غير العربية برتغالية . والسيد البرتغالي ( جيرار سان بور ) .

● الدكتور أبرو فيجانييه Dr. Abreu Figanier خلف الدكتور لويس على منبر العربية في كلية الآداب بلشبونة ، ثم عملها في معهد اللغات الإفريقية والشرقية ، وقد انتخب عضواً في مجمع التاريخ البرتغالي .

آثاره : سير الرسول ، وهرون الرشيد ، وعبد الرحمن الثالث ( الموصية البرتغالية البرازيلية ) وتاريخ سانتا كروث ( أغادير ) وترجمة وسيلب طبقة في القرن الخامس عشر لـ محمد بن عبد الملك ، والأب جان دي صوصة ، سيرته وتوالييفه ، وكشف بالثقود العربية في متحف الثقود بلشبونة .

● غوسيه بديرو ماشادو José Pedro Machado تخرج بالعربية على الدكتور لويس ، وألقى في مركز الدراسات اللغوية سلسلة محاضرات عن فقه اللغة العربية ، وفي المؤتمر البرتغالي البرازيلي بديو دي جانيرو مباحث عن دخول المصطلحات العربية في اللغة البرتغالية .



# أوابد الأقصر وسواخر أسوان

بقلم الدكتور زكي المحاسني

أيا ربّة الشعر في الأقصر فيداك العصور فلا تُقصري  
أبين النخيل ووادى الملو لك تقيين في الأخضر الأشقر  
وروحك تغلّسو سواوية تزور القراعين في الأقصر  
تطيفين في مترح الخالد ن كان عشت في سالف الأعصر  
وأين الخلود ورهنُ الفناء (م) كبارُ تساوت مع الأصغر  
مضت في غمار الزمان الحيّ ولم يبق منها سوى المتخبر

•

أجوف الثرى ، ملجأ الغابر — ن ، تنبّه أهلك للصحشر  
عكفنا نائل أنبامهم كأنّا لأخارهم نشري  
وجئنا «رعيس» في حوبة عوج على موكب أغبر  
ومن خلفه الجيش صف نصف (م) يمزّ الرماح مدى العسكر  
ثاق الضحايا إلى بابهِ وتغنو النساءُ بلا مثزّر  
رؤيدك نابغة القاصح ن ثلاث في فتحك الأكبر  
هلكت ولكن كفتك القنُونُ تهاويل في صبتك الأشهر

■

مضى «مركب الشمس» في سيرة يرود المجرة في الأنهر  
وراحت به النفس ترمي الفناء (م) وقد زال — بالنظر الأزور  
أتعبّر درّب ظلام الدقي إلى ملأ بالأسلا نير  
وجسرُ الجحيم عليه الذنو ب تبوس على الأفق الأحمر  
أ «آمون» را ، ويل يوم الحساب وجوروس جنتك في السمر  
واطية، عتلك عبر القرو ن تطمّح ناديك بالمجمّة



وهيكلكَ الضخمُ ملءَ الزمانِ      ن يُطاولُ بالنَّاحِيَةِ الأقدارِ  
أذاتُ العِمَادِ زَهَتْ بالقو      شَأَمِ الجِنِّ تَلْعَبُ فِي الأَسْطُرِ

أُبْعَثِكَ ماضٍ تولى لِقَاهُ (م) وما زِلْتُ فِي بَهْجَةِ الْمُحَضَّرِ  
وَأَسْوَانُ رَاتِعَةٍ بِالْجَمَالِ (م) تَرِفُ عَلَى الْخُلْدِ فِي الْمُنْظَرِ  
يَرِقُ لَهَا «النُّبْلُ» فِي سَحَرِهِ      فَتَلْبَسُ شَطِيئَةً فِي ابْنَحْرِ  
وَتُهْدِي مَنَادِيلَ أَنْسَامِهَا      كَمَا شَقِيَ بِالْمَوَى تَفْتَرِي  
تَلْوَحُ لِلصَّيْفِ جَنَاتُهَا      يَا نَفْسُ فِي ظِلِّهَا عَمْرِي  
وَجِيئَ الشَّتَاءُ تَرَى صَيْفَهَا      مِنَ الدَّفْنِ يَمْرَحُ فِي مَقْمَرِ  
غَلِبَتْ بِهَا الْعُمَرُ مَسْرُوحًا      شَبَابِي عَلَى عُدُوهِ الْأَنْصَرِ  
فِي دَارَةٍ حَلَّ فِيهَا الْخُلُودُ (م) فَدَيْتُكَ فِي نَوْبِكَ الْعَبْقَرِي



# ابن خلدون

بين الشاعرية والشعبية والنصوف

بقلم الأستاذ محمد عبد الغني حسن



ابن خلدون

« بريشة جبران خليل جبران »

نواحٍ ثلاثة يختلف الحكم فيها على عبد الرحمن ابن محمد بن خلدون المؤرخ العربي الإسلامي اختلافاً كبيراً . فقد نجد من يقول إن ابن خلدون كان شاعراً ، لأنه رُوِيَ له بعض القصائد ، أو روى هو لنفسه بعض الشعر في أثناء الترجمة لنفسه والتعريف بشخصه في كتاب مستقل . وقد نجد من يحدد ذلك كل الجحود ، ويقول إن مؤرخنا كان تفلّماً له معرفة بقرض الشعر ، دون أن يكون له حس الشاعر للمرهف وخياله وانفعالاته .

وقد نجد من يقول إن ابن خلدون كان عربياً يتعصب للعرب لأنهم أهله وقومه وقبيله ، ولأنه يرتدُّ نفسه القديم إليهم ، فهو منهم في الصميم ، على حين نجد من يتهم ابن خلدون بالشعوبية مستنداً إلى أنه رى العرب بالقصور القطرى ، واتهم الحضارة العربية بالفحشاء وهوان الشأن ، وقرر أن طباعهم تتنافى مع العمران والسياسة .

السياسة والحكم والمشاركة في الانقلابات والمؤامرات لم تدع له فرصة لصفاء الصوفى وزهادته ، وإن اشتغاله بالعلم والتأليف — بعد ذلك — لم يدع له فرصة لمخالص ذكر ، أو اتباع طريق ؛ وإن المأثور المعروف من سيرته — وكما رواه هو بنفسه — لا يؤكد قضية تصوفه .

والحق أن هذه النواحي الثلاثة من ابن خلدون تحتاج إلى مزيد من البيان والكشف والإيضاح ،

وقد نجد من يقول إن ابن خلدون حكم في « مقدمته » على المتصوفين حكماً جازماً بالتيه والكذب ، ولكنه في كتاب له آخر — غير المقدمة — يعيد الثقة بالمتصوفين والزاهدين وغيرهم « من توصلوا — به تعالى — إلى الحياة في الحضرة القلبية آتين »<sup>(١)</sup> ، على حين نجد من يقول إن ابن خلدون كان غارقاً في المادية إلى قنميه ، وإن مشاغل

(١) من مقدمة لأب أنطالوس خليفة اليسوى في تصديره لكتاب « غناء المسائل تهذيب المسائل » القول إنه لسؤرخ ابن خلدون

قصائده في هذا السلطان المناسبات مختلفة ، تدور على المديح ، والتهنئة بالمولد النبوي ، ووصول هدية ملك السودان إلى ملك المغرب وفيها حيوان « الزرافة » ، والتهنئة بالأعياد ، كتبته بعيد القطر سنة ٧٦٣ هـ .

على أن نزوله بالأندلس ضعيفاً على السلطان ابن الأحمر كان جالاً آخر لانطلاق طاقته في القريض . فقد تصادف وقت نزوله بها احتفال السلطان بالمولد النبوي ، فوقف ابن خلدون وألقى قصيدة لم يذكر لنا منها في الحادث العظيم بمولد الرسول إلا أربعة أبيات أو خمسة في الحنين إلى « نجد » التي جعلها رمزاً لأرض الميلاذ ، وفيها يخاطب أهل تلك الأرض الطيبة قائلاً :

يا أهل نجد وما نجد ساكنها  
حسناً سوى جنة الفردوس والعين  
أعندكم أنسى ما مرّ ذكركم  
إلا أنفيت كأن الراح تنفسي  
أصبو إلى الرق من أمّاء أرضكم  
شوقاً ، ولولاكم ما كان يصيفي !

أما بقية القصيدة التي رواها هو بنفسه لنفسه فتدور حول وصف الإيوان الذي بناه سلطان الأندلس لجلوسه بين قصوره ، وحول تعريضه بانصرافه من العودة . ونم كنّا نود لو ذكر لنا إن قال شيئاً من هذه القصيدة في عظمة الرسول العربي ونفسيته ورسالته وذكره التي تتجدد كل عام فتتجدد معها آمال العرب والإسلام . ولكنه سكت عن ذلك سكوتاً مطلقاً . على أنه لم تفته في الأندلس مناسبة من تلك المناسبات العارضة التي ينظم فيها القصيد ، وتعرض فيها المقدرة ، إلا انتهزها للمشاركة فيها بقصيدة ، فزرى له أبياتاً نظمها في « ختان » ولد السلطان ابن الأحمر . ونراه — كمادة شعر المناسبات في مثل هذه المقامات — يشيد بشجاعة الولد المختون ، وأنه تقدم الختان غير جبان ولا هيب !

كما نحتاج إلى النظر المحايد في الحكم ، فلا بمعمل الاندفاع باحثاً على تقرير رأى أو إبداء حكم دون النظر إليه من جميع الوجوه ، وقياسه بمختلف المقاييس ، واستعراض كل آراء الرجل في القضية الواحدة ، حتى يبين وجه الحق فيها على وجه يرضى الباحث ، ويطمئن الكاتب .

\*\*\*

أما قضية شاعرية ابن خلدون ، فيكفي لصحة الحكم فيها أن نرجع إلى ما تركه الرجل لنا نفسه من شعر أو من كلام منظوم ، وأن نرجع إلى قول الرجل نفسه وحكمه على نفسه ، وهو من نق به في أحكامه على الأهم والتاريخ والدول والممالك ، فلا أقل من أن نطمئن إلى حكمه على نفسه ما دمنا نفترض فيه عدالة التقاضي ونصفته .

ونرى ابن خلدون في خلال التعريف بنفسه في كتابه « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً » يتعرض لقضية الكتابة والشعر عنده في أثناء الحديث عن كتابته للسلطان أبي سالم بن أبي الحسن سلطان المغرب الأقصى . فيقول إن السلطان استعمله في كتابة سره والترسيل عنه والإنشاء مخاطباته ، وكان أكثرها يصلو عنه بالكلام المرسل ، كراهة استعمال السجع الذي كان ضعيف الانتحال آنذاك ، خافاً على أكثر الناس . فانفرد ابن خلدون — من دون الكتاب في ذلك الزمان — بالكتابة المرسلة ، وكان ذلك مستغرباً بين أهل الصناعة . أما الشعر فيقول عن نفسه فيه : « لم أعنت نفسي بالشعر ، فانتال حل به بسور ، توسلت بين الإجابة والتقصير » . ولا نجد شاعراً يتواضع إلى هذا الحد ، فيحكم على شعره هذا الحكم الذي يفيد « الوسطية » ، والوسطية في الشعر باردة غثة .

وقد انطلقت طاقة ابن خلدون التنظيمية في خلال اتصاله بالسلطان أبي سالم ، وهو يروى لنا كثيراً من

وأن الغلام لم يتعاسر في ذلك الخطب الذي ينزل بكل غلام ، في ساعة الختان .

وكذلك كان نزول المؤرخ ابن خلدون بعد ذلك على السلطان أبي الميافس سلطان تونس ، ميداناً آخر لانطلاق جديدة في نظم القصيدة . ولم يجد مناسبة يمدح السلطان فيها أحلى من اقتران ذلك بإهدائه أولى النسخ من كتابه في التاريخ . ( العبر ) .

وهنا نجد ابن خلدون يحس من نفسه قصور نفسه في الشعر ، فيترف بقلبه في سيرة حياته عن اعتباره (١) من انتحال الشعر ، ويقول من القصيدة في حسنا المعنى :

مولاي غاشت فكري وتهدت مني البلياع فكل شيء مشكل  
تسود إلى ذلك الخناس مني فأصد عن إدراكهن وأقول  
وأجد ليل في أسوأ قريحي وتعود غورا بينا تسترسل  
فأبنت يمتلج الكلام بظلمتي والنظم يجرى ، والفتوى يغفل  
من بعد حول أنفسي ، ولم يكن في الشعر حول يهاب رئيسي  
فأمرته حسن أهله متواريا أن لا يضمهم وشري يغفل  
وهي البضاعة في القول نفاهاً سيات لها الفصل والمفضل  
وبنت فكري إن أملك كليله حرماً تخطر في المصور وتغفل  
لها الفخار إذا منحت قهولاً وأنا على ذلك البليغ المقول . .

وفي هذا الاعتذار الكثير عن بضاعة الشعر إن لم يكن الشاعر قد أحس فعلاً أنها بضاعة مزجاة تحتاج إلى مثل هذا التقديم والتأمس العذر لقبولها ؟ فهو يمدح تلمح فيه الترفل صارخاً ، والتكلف واضحاً ، ولا نجد فيه تلك الفطرة الصادقة التي لا تجعل الشاعر خجولاً من أن يقال إنه امتدح . . ولعل ابن خلدون - وهو يطوف من أرض إلى أرض ، وينقل من ملك إلى ملك - كان يحس ضعفه في نفسه حين يمدح ، ومن هنا يجيء كلامه غثاً متكلفاً مضطرباً ، كأنه ملفوف في غلاقل من الخجل .

ومن هنا أيضاً : كانت جامحة ابن خلدون . حين يمدح الملوك شعراً - إلى أن يحلف لكل ممدوح منهم بأنه هو وحده موضع القبحار ، ومناط المديح ، وأنه لا يمدح في الدنيا سواه ، وقد يكون مدامحه في ملك سابق لم يحف مدامحا ، أو لم يسكت صدامحا بعد . . ومن هذا قوله في سلطان تونس :

واذا ما أسرفت فيما كتبه شيئاً ، ولا الإسراف فيما يحفل  
ولانت أرسخ في المأوف رتبة من أن يموء عنده متطفل  
فلوك كل فضيلة وحقيقة بيدك ، تعرف وضعا إن بدلو

ولا ننسى أنه خاطب سلطان المغرب قبل ذلك بقوله :

قد جحك طارفاً أو تالداً فقد شهدنا من كل صبيب  
كم رغبة أو رغبة بك ، والعلل تقشاد بالترغب والترهب  
لا زلت مسروراً بأشرف دولة يبعو الهدى من أفنها المرقوب

كما لا ننسى أنه يمدح السلطان ابن الأحمر - سلطان الأندلس - فيما بين رحلته إلى المغرب وتونس قائلا :

من يبلغ من الصبب إلّا تركوا دوى وضاع حمام إذ أصبحوا  
أن أويت من العلى إلى حرم كادت منانه بالشرى تحبى  
وأنت - ظاهراً - لم ألق بدمع دهرأ أشاكي ، ولا ضاحكاً كفى (١)

فنحن هنا أمام شاعر يمدح كل ملك ، ويؤكد له أنه هو الملك الأوحداً لا ملك سواه ، وأن المجد في الدنيا اجتمع له ولم يجتمع لغيره . ونسى ابن خلدون أن هذا الشعر كان ينتقل بانتقاله مع الرواة والتجار والحجاج والمسافرين الذين كانت لا تقطع بهم الرحلة في ذلك الزمان ، على الرغم من طول الشقة وبعد الديار .

...

ونجد نصاً لابن خلدون في مقدمته يعلل لنا فيه السبب في قصوره عن بلوغ مرتبة التجويد في الشعر . فقد حفظ من الشعر التعليمي الذي ينظم في تلخيص

من موضع إلى موضع : **قائلا** : « ورواه ولو أن هذا المخطوف كان لائقاً بالذكر أو مستحقاً للنشر لما تأخر ابن خلدون عن ذكره وروايته وضمه إلى باقي هيكل القصيدة . فإن الشاعر حريص على أن يسجل كل شعره ، وأن لا يُحذف من ذلك شيء ، فإذا ما التجأ الشاعر نفسه إلى الحذف ففي ذلك دليل على عدم استحقاق المخطوف للتسجيل وجدارته بالحفظ . وقد يقال إن الذاكرة قد تحوّل الشاعر فلا تسعفه بتدوين ما قال ، وذلك حق ، إلا أن ذاكرة ابن خلدون وقوة حافظته مما أجمع عليه مؤرخو سيرته والترجمون لحياته . فقد كان أحد نوادر الدنيا في الحفظ ، وأعجب العلماء كثرة محفوظ ، فكيف يفوته . أن يحفظ شعره وأن يرويه في مقام التنويه بقصائده ، والإشارة إلى موافقه في نظم القصيد ؟ ألا يمكن أن نقول هنا إن هذا الإغفال مقصود ؟ وأن الرجل أحسن أن نظمه — كما قال — مما لا يرتفع إلى مرتبة الإجادة فترك روايته ، وأعرض لمن لا كره ؟ »

\*\*\*

هذا وجه القول في شاعرية ابن خلدون ، ونرجو أن نكون أنصفنا به الرجل وأنصفنا به الحقيقة التي لم يخش ابن خلدون من الإشارة إليها .

أما شعورية مؤرخنا الذي قال عنه لسان الدين بن الخطيب إنه مفخرة من مفاخر المغرب فهي قضية أثرت بأخيرة من زماننا هذا . ولم يفتخر المؤرخون القدامى فيها ، بل لم يستطيع خصومه أن يغمزوه بها كما غمزوه مثلا في ولايته للقضاء ... فقد استكثر عليه أهل المغرب ولايته لقضاء المالكية بمصر حين بلغهم بأ ذلك . وتعجبوا من ذلك التعيين أشد العجب ، ونسبوا المصريين إلى قلة المعرفة ... حتى قال ابن عرفة المغربي : « كان أحد خطبة القضاء أعظم المناصب ، فلما وليها هذا يعني ابن خلدون — عدناها بالفضل من ذلك . »

قواعد العلوم قدراً كبيراً جداً ، وفي هذا النظم من الجود والبرود . ما يعطل الملكة . ، ويفسد القرينة . وما أصدقه وهو يقول في ذلك : « ذكرت يوماً صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب — وزيره به الوزير لسان الدين بن الخطيب — وزير الملك بالاندلس من بني الأحمر ، وكان له الصدر المقدم في الشعر والكتابة ، فقلت له : أجد استصعاباً على في نظم الشعر حتى رتبته ، مع بصري به ، وحفظي الجيد من الكلام من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب ، وإن كان محفوظاً قليلاً . وإنما أنت — والله أعلم — من قبل ما حصل في حفظي من الأشعار العلمية والقوانين التأليفية ، فأنت حفظت قصيدتي الشاعرية الكبرى والصغرى في القترانات ، وتداوتت كتاب ابن الخطيب في اللغة والأصول ، وجعل الخرجي في المنطق ، وبعض كتاب التسجيل ، وكثيراً من قوانين التعليم في الجبال ، فأنت محفوظ من ذلك ، وخش وجه الملكة التي استمدت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب ، ضائق القرينة عن بلوغها . فنظر إلى ساعة مضياً ، ثم قال : لله أنت ، وهل يقول هذا إلا شك ؟ »

ولم يفت بعض من أرواح لابن خلدون أو ترجم له أن يشير إلى هذه الوسعية في شعره ، فرى المؤرخ ابن حجر يقول عنه : « إن ابن خلدون كان ليّ نفسياً ، حسن التمرن ، وسد النظم . وترى السخاوي صاحب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، يذكر أنه كان له شيء من النظم ، ولم يكن بالماهر فيه <sup>(١)</sup> . كما نقل السخاوي عن شيخه ابن حجر أن ابن خلدون كان يبالغ في كتاب نظمه ، مع أنه كان جيد النقد للشعر . وتؤكد لنا هذه الظاهرة استقلال عملية النقد الفني ، عن عملية إحداث الأثر الفني نفسه . فليس من الضروري أن يكون ناقد الشعر شاعراً ، ولا ناقد الفن صاحب فن .

ومسألة كتاب ابن خلدون لشعره تؤكد بها النظرة المعجلى — بلبّة المسائية — لكتابه : « التعريف » ، فهو حين يشير إلى القصيدة الطويلة من شعره لا يذكر منها إلا أبياتاً قليلة ، ثم يقتصر من غرض إلى غرض ، أو

لفظة «العرب» بدلا من الأعراب والبدو، فإن المستشرق البارون دي سلان هو أول من نبّه إلى هذا المعنى حين ترجم مقدمة ابن خلدون إلى الفرنسية حيث قال : (إن ابن خلدون استعمل كلمة العرب بمعنى البدو في هذا الفصل ، وفي تفصيل التالية) ويقصد بذلك الفصل الذي عنوانه : إن جيل العرب في الخلقة طيب . وقد أشار إلى هذا المعنى - ضمناً لا صراحة - المؤرخ التركي جودت باشا الذي لم يترجم كلمة العرب إلى التركية بمعناها المتبادر إلى الذهن ، وإنما ترجمها على أنها «قبائل عرب» أو «القبائل العربية» . فإضافة لفظ القبائل هنا يفيد ذلك المفهوم البدوي - لا الحضاري - الذي قصده ابن خلدون .

ومن حسنات الأستاذ ساطع الحصري - وحسناته كثيرة - أنه هو الذي كشف لنا في دراسته القيّمة عن رأى دي سلان ، وعن رأى جودت باشا في هذه المسألة .

وللأستاذ الباحث الكبير «محمد جميل بهم» تعليقات ثمينة على الشبهات التي تثيرها لفظة «العرب» في مقدمة ابن خلدون ، وهو يتفق مع ساطع الحصري في مذهبه ، وإن كان يعترف بأن ابن خلدون سلك في مقدمته أحيانا سبيلا يكتنفه الالتباس ، هذا فضلا عن أن أقواله في العرب أنفسهم كانت تأتي أحيانا أخرى على شيء من المناقضة فيما بينها ، وعلى شيء من الغموض<sup>(١)</sup>.

وما أصدق الأستاذ جميل بهم وهو يقول :  
(لقد كان ابن خلدون جلياً في أنه كان يدم البدو دون العرب ، وذلك بالفصول الأربعة التي جاءت تحت عنوان «في العمران البدوي والأمم المتوحشة والقبائل» . كما كان واضحاً - فيما يبد - بأنه كان يطرئ العرب ويشيد بهم وبمعضاتهم في الإسلام وما قبله . ولكن

ولقد فطن الباحثون من العرب المحدثين إلى قضية «العرب» و «الأعراب» و «البدو» التي وردت ألفاظها في «المقدمة» ، وأثارت كثيراً من اللبس وإساعة الفهم بمبدولياتها الصحيحة التي قصدها مؤرخنا العربي الكبير . ولا شك أن استعمال ابن خلدون لكلمة «العرب» بدلا من كلمة «البدو» - التي هي أدل الألفاظ عليها وأوفاهها معناها - قد أثار كثيراً من حملات النقد العرب المحدثين عليه . فقد قالوا إنه يكره العرب ، وقالوا إنه يحقرهم ، وقالوا إنه من الشعوبيين أعداء العرب ، وإن صوته ضد العرب وفي التقليل من شأنهم واليهون من أمرهم ليس إلا امتداداً وتجيديداً لحركة «الشمونية» التي ظهرت في القرون الأولى للإسلام ، وفي أعقاب الفتح العربي لبلاد الأحاجم .

وقد تصدّى الأستاذ ساطع الحصري لهذه القضية بحثاً يمتاز بالروية والتدليل المستقيم والبعد عن العواطف والانفعالات السريعة التي تنتج كثيراً من الأحكام السريعة . ويتركز دفاع الأستاذ الحصري في أن ابن خلدون يقصد بلفظة «العرب» : «البدو» و «الأعراب» ، واستشهد على ذلك بنصوص كثيرة من أقوال ابن خلدون نفسه ، كما استشهد بالقرائن ومقتضيات الأحوال التي تعبر عنها «مقدمة ابن خلدون» . فإين خلدون حين قال : «إن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرح إليها الأعراب» لم يقصد غير البدو الذين يعيشون في الخيام ولا يصطرون بمكان : «فلا مجال للشك في أن ابن خلدون عتد ما كتب هذه العبارات ، وقال : «لا يحتاجون إلى الحبر إلا لوضع القندور ، ولا إلى الخشب إلا لنصب الخيام» ، لم يفكر قط بأهل دمشق أو القاهرة ، ولا بسكة تونس أو فاس ، بل إنما قصد أعراب البادية وحدهم» (١).

وإذا كان ساطع الحصري هو أول من نبّه الأذهان من كتّاب العرب إلى ما قصده ابن خلدون من استعمال

(١) «العروبة والشعوبيات الحديثة» . وهو كتاب جليل للأستاذ محمد جميل بهم - ص ٤٨ .

(١) دراسات من مقدمة ابن خلدون - طبعة سنة ١٩٥٣ - ص ١٥٧ .

من ناحية أخرى ، فهو يضع العرب « في مقابل لفظة البربر » ، ويوازن بذلك بين جيلين من الناس . وليس عناد ابن خلدون وجهه للمخالفة أمراً منكوراً . فالسحاوي المؤرخ يشهد له بذلك ويلاحظ أنه حين ولي القضاء بمصر لم يغير زيّه المغربي ، ولم يلبس زيّ قضاة هذه البلاد لجهة المخالفة في كل شيء<sup>(١)</sup> . وقد كان ابن خلدون بذلك يتحدى الشعور الأهل بين أهل البلاد ، ولعل هذه المخالفات والمعادنات مما جر عليه ضغط الكثيرين ولتشنيع عليه ، حتى لقد ذكر فيه أحد كتّاب سيرته : الجمال البشيشي المؤرخ ، كلاماً كثيراً لا يليق ، ويستغرب حدوثه من عالم كاهن خلدون .

ولقد كان ابن خلدون - رحمه الله - في التعرّض للمدح والتقد بين معسكرين : معسكر أهل المغرب والأندلس وعلى رأسه لسان الدين بن الخطيب ، وهم يشهدون له بالفضل والقضائل والوقار وعلوّ الهمة ورقعة التدرّج مع العلم والحفظ والمعرفة . ومعسكر أهل المشرق وعلى رأسه ابن حجر والسحاوي والحافظ أبو الحسن النيشي والجمال البشيشي . ولم ينصفه من أهل المشرق إلا المقرئزي المؤرخ صاحب الخطط والساوك ، وقد عللوا ذلك بتوافقهما في الرأي بصحة نسب الدولة العبيدية أو الدولة الفاطمية<sup>(٢)</sup> .

• • •

أما صوفية ابن خلدون وموقفه من التصوف فقد أفصح عنه في « مقدمته » في فصل خاص بعنوان « علم التصوف » ، وعرفه بأنه من علوم الشريعة الحادثة في الملة « وأصله أن طريقة هؤلاء تقوم لم تزل - عند سلف الأمة وكبارها من الصابية والصابين ومن بعدهم - طريقة الحق والمداينة . وأصلها التكور على العبادة ، والانتقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والتزهد فيما يقل عليه الجاهلون من لذة ومال وجه ، والافتراق من الحق في الخلوة بالعبادة » .

مصدر الالتباس يرجع إلى أنه في الحالتين استعمل كلمة العرب فتركها أهبال الشعوب لأن يتجاوزوا قصد المؤلف إلى التسك بالكلمة دون النص ، وإلى اتخاذها حجة لم تشديد بالعرب ، ولحط من شأنهم<sup>(١)</sup> .

ولا يرد الأستاذ محمد جميل بهم هذا الغموض والتناقض في استمالات ابن خلدون لكلمة العرب إلى اضطراب فكري يرجع إلى اضطراب أحوال الشعوب الإسلامية التي كان ابن خلدون يتنقل بينها ، ولا يردّه إلى توتر أعصابه نتيجة الصدمات التي كان يلاقها . وإنما يردّه إلى « توجهات نفسية » كان صاحب المقدمة عرضة لها في حياته ، فهو قاصد - عند الأستاذ بهم - لهذا الغموض متعمد له ، تزلزلاً لأصحاب السلطان عند أهل المغرب من البربر ، أو هو متأثر بما كان في ضمير أهل المغرب من آثار التخريب التي تركها رحلة بني هلال وبني سليم إلى شمالي إفريقية .

والحق أن الأستاذين ساطع الحصري ومحمد جميل بهم قد أحسنوا الدفاع عن ابن خلدون في قضية اتهامه بالشعبوية أو بكمراهية العرب واليهود من شأنهم . وللدكتور علي عبد الواحد وافي - في القضية نفسها - دفاع وتعليق يجعله على وجازته ، في موقف المحامين عن ابن خلدون . وهو يحيل إلى بحث الأستاذ ساطع الحصري<sup>(٢)</sup> ويشيد به ، ولكنه لا يشير مطلقاً إلى دفاع الأستاذ المؤرخ جميل بهم ، ولعله لم يتبحر له الاطلاع على كتابه القيم .

وعندي أن ابن خلدون كان أذكى وأفطن من أن يستعمل لفظاً مكان لفظ ، أو يضع لفظاً ويقصد به معنى آخر ، فهو لم يقمض ، ولم يحاول اللبس كما قصد بعض المدافعين عنه ، وإنما قصد بلفظة « العرب » العرب المألوفة البربر من ناحية ، ولحجبه للعناد والمخالفة

(١) المصادر السابق ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) مقدمة ابن خلدون - في طبيعتها الجديدة المحققة للدكتور

علي عبد الواحد وافي - ص ٣ - ص ٥٠٩ - ٥١١ .

(١) الفتوة اللاحق السحاوي ج ٤ - ص ١٤٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤٧ .

ويرى ابن خلدون أن المهادنة والخلوة والذكر يتبعها في الغالب كشف حجاب الحس والاطلاع على عوالم من أمر الله ، ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها . والروح من تلك العوالم .

ولقد ظهر أخيراً كتاب في التصوف قيل إنه لآين خلدون وعنوانه «شفاء السائل لتهديب المسائل» وقد نشره وعلق عليه الألب أغناطيوس خليفة اليسوعي ، وأصدره «معهد الآداب الشرقية في بيروت» . ولم يشر ابن خلدون نفسه إلى هذا الكتاب ، حتى وهو يتحدث في «المقدمة» عن التصوف ، ولعله كتبه بعد تأليفه مقدمته المشهورة ، ولكن الباحثين والمؤلفين الذين كتبوا عن ابن خلدون من العرب والفرنجة لم يذكروا أيضاً إلى هذا الكتاب ، إلا أن كتاباً ظهر بالإنجليزية في لندن سنة ١٩٥٧ لحسن مهدي وبعنوان: «فلسفة التاريخ عند ابن خلدون» فيه في إحدى حواشيه إلى هذه الرسالة التي يحفظ الأستاذ أبو بكر التطواني السلاوي المغربي بمخطوطة منها ترويح إلى أواخر القرن التاسع الهجري .

وعلى الرغم مما أورده المحقق الألب أغناطيوس من نصوص يقول إنها متشابهة بين مقدمة ابن خلدون وبين كتاب «شفاء السائل» لثبت اتحاد المؤلفين واتحاد اليد التي خطت الكتابين ، فإننا نرى تباعداً كثيراً في بعض الموضوعات ، كالاستقامة ، والكشف الناشئ عنها ، والكشف الناشئ عن أسباب أخرى كالجلوع والصحرة وأصحاب الرياضات الجسدية ، وكالاتطلاع على عالم غير الحس ، والعلم الكسبي والإلهامي . فالكلام في المقدمة — أي مقدمة ابن خلدون ، غيره في كتاب «شفاء السائل» ألقول إنه لآين خلدون ، وطريقة المعالجة غير واحدة ، مما يدل على أن الكاتب غير واحد . إلا أن يكون ابن خلدون قد تطور في موضوع التصوف ، وأن يكون كتاب «شفاء السائل» قد كتبه في أواخر عمره .

على أن الكلام عن اهتمام ابن خلدون بموضوع التصوف يجرنا إلى الحديث عن سلوك الرجل التصوفي ، أو سلوكه العمل في التصوف . ولا شك أن ابن خلدون — إن صح أنه صاحب كتاب «شفاء السائل» — باحث في أدب التصوف ، لا سالك لطريق المتصوفة . فقد كانت حياته لا تسمح له بسلوك هذا الطريق . وكان له من ماديته ومطامعه وطموحه السياسي ما يبعده أقصى البعد عن آداب الطريق . والتصوف المشغول بالمجاهدات ليس عنده من الوقت ولا من الميل والنوق ما يوجهه إلى مشاغل الحياة المادية . وقد كان ابن خلدون — منذ فجر حياته — مشغولاً بالدنيا إلى أبعد حد ، فالتدرج في الوظائف بدول المغرب لا يرضيه ، وهو طموح قلق نهّار للفرص مشارك في المؤتمرات السياسية ، حتى **لقد تأمر على السلطان أبي عثمان سلطان المغرب مع عطفه عليه وإكرامه له** . وقد عبر هو عن طموحه قائلاً : «كث أحر» — بلبان الشباب — إلى أرفع ما كنت فيه ، وأد في ذلك سابق مودة شه — أي مع الوزير مر بن عبد الله صهر السلطان — منذ أيام السلطان أبي عثمان . ولما لم يحقق له هذا الوزير صاحب النفوذ أمله ومطامحه البعيدة غضب ابن خلدون وطلب إعفائه من منصبه ، فأعرض عنه الوزير وتكرّر له . ولقد بلغ من طموحه أن تعرض للأذى والاعتداء غير مرة ، واضطر إلى اللجوء في الضحوة عارياً حتى خلص إلى العمران . ثم اشتغل في الدسائس والمغامرات لحساب سلطان تلمسان مرة ، وسلطان فاس مرة . . . ولم يزل منصب قضاء المالكية في مصر إلا بالوساطة السياسية عند الأمير الطنطا الجوياني وكان أمر المجلس في عهد السلطان الظاهر برفوق . . . وقد أكثر ابن خلدون من الزلفى للسلطان برفوق كما كان يصنع في المغرب والأندلس وتونس ، فزاد ذلك من جأحه وتقربه .



« فلما دخلت عليه فاحتضت بالسلام ، وأومأت إيماءة الخفض . فرفع رأسه بيد يده إلى قفيلتها ، وأشار بالجلوس ، فجلست حيث انتهىت ، ثم استندى من بطائه الفقيه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم ، فأتته يترجم بيتنا » .

ومثل هذا السلوك النفعي المادى لا يتفق مع المسلك العمل الروحى للمتصوفة ، ولكن ذلك لا يمنع ابن خلدون من أن يحتل مكانه العظيم الضخم في التفكير الإسلامى ، بل فى التفكير الإنسانى على وجه العموم .

ولعل موقفه من الفازى التترى تيمورلنك يفسر لنا طموحه دائماً ومغامراته فى السياسة لعله يصل منها إلى شيء يحقق مطالبه . فقد خرج سنة ٨٠٣ هـ مع السلطان المملوكى الناصر فرج فيمن خرج لمقاتلة المغير التترى أثناء تقدمه إلى دمشق لاحتلالها ، وفى خلال حصار عاصمة الشام الجميلة تسلسل ابن خلدون لمقابلة المغير تيمورلنك ، فأجلس بين يديه :



# الفَرَح

بقلم السيدة ملك عبّدة العزيزة

من كَيْتَهَا الأخضر حلمٌ يَضُوع

لعله ذكرى ليومٍ أثير

لعله لحظة نصرٍ بهير

والفرحة الطفلة مبهورة

ترتقّق المالح وتفتش العطور

يا فرحى ثوابي كالحباب

لا تغمقى لا تغمقى فى الصلور

إن تغمقى غمّ فيها الأسمى

والشوق والشوق ولغف الشعور

توافى ترافى كالشعاع

على جناح الموج عند الأصيل

ورغرى مثل الفراش الطليق

يمتص شهد الزهر عطر الحقول

ها اجلسى فى الدوح أرجوحة

واعلى بها وسط صفاء السماء

مورى وطيرى واخفقى فى الفضاء

وعانقى الزرقة عبى الضياء

مورى وطيرى انطلقى عالما

مورد الخدين غصّ الخيال

وبعثرى الألوان بين الدق

ونضرى العيش بسرّ الجمال

لولاك ما طال به خطوبنا

ولا شربنا من يديه الخال

كَمِثْلُ ماءِ النّبع إذ يفورُ

منبثقا وسط الحصى والصخور

مختلجا مكررا ضاحكا

مندفعا مجلجلا فى هدير

يعبر الخصرة أنى سرى

ويرشق الدوح بنور الزهور

رذاذه الأبيض كانت له

فى منكب التلّ ظلالٌ ونور

ظلٌ من الخصرة معشوبٌ

ومن سنا الزهر رفيفٌ عور -

كَمِثْلُ ماءِ النّبع إذ يفور

ينثق السرور . . .

من كوة فى النفس مبهومة

فجرها شىء خفى صغير .

لعله ريتة كف حنون

لعله همسة قلب صديق

لعله نبرة صوت حبيب

يرجفه شوق خفى عميق

لعله دعاء طفل غرير :

ماما ، ويلوى الثوب كف صغير .

أو بسمه بيضاء مخضلة

بالحب ، بالبلل ، بدق الشعور .

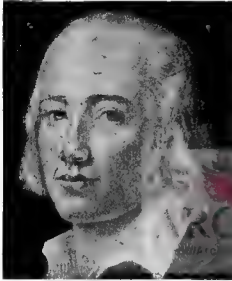
لعله عطر خفى رهيف

من زهرة قطرها الربيع

لمحونة عناء مبهومة

# فريدريش هيلدرلين

بقلم الأستاذ عبدالفتاح الديري



فريدريش هيلدرلين

عمره وكان جوته في الواحدة والعشرين وشيلر في الحادية عشرة فقط . ومات أبوه بعد ميلاده بستين فواظب من تلقاء نفسه على دراسة اللاهوت إلى أن حظى بدرجة التعليم الخاص وأصبح يزاول هذه المهنة . وفي سنة ١٧٩٣ التحقته السيدة شارلوت فون كالب ، محبوبة شيلر السابقة ، مدرساً لأولادها .

وفي تلك الفترة بالذات بدأت مشاعر هيلدرلين في التبلور وتكونت جملة من انفعالاته الحسية للفضيلة والوطنية ، وشغقت ثقافته اللاهوتية سبيلها إلى الظهور

إذا كنت قد حركت زحمة الناس  
وغطرت على بساط الحقيقة بقدمك  
فأنت إذًا يا مبقري  
مادية في الحياة بلا وجل

...

نحن الشعراء  
ألسنة الشعوب  
تعلنا حب الاعتلاط بالأحياء  
بتلك الجبابة الصديقة للجميع  
السعيدة المفتحة على كل الأرجاء  
فهذا حال أبنائنا  
إلهنا الذي في السماء

...

صدر هذا النداء الجميل عن الشاعر الألماني  
فريدريش هيلدرلين الذي أصبح اليوم قمة من القمم  
الأدبية الرفيعة . لم يسع هذا الشاعر لأن يكون فيلسوفاً  
بل صحت الفلسفة إليه في غضون أحلامه ، وجاءت  
خفيفة هفافة وسط ترانيمه ، فأصبح مجدارة واحداً  
من أعظم شعراء الفكر والروح .

ولم يصل هيلدرلين إلى هذه المكانة في يسر وسهولة  
بل كافح من أجلها حياً ونبأ وظل من عله البعيد  
يراد أذهان المفكرين والمعايرة بأعماله الفنية حتى  
أخرجوه إلى عالم النضرة والحياة بعد أن كان مغموراً  
مجهولاً .

وقد عرك هيلدرلين الناس بصورة قوية نابضة  
أثناء حياته ، ظهرت آثارها في شعره واضحة جليلة .  
وكان ميلاده بمدينة لاوفن على نهر النيكر بألمانيا سنة  
١٧٧٠ وهي السنة التي بلغ فيها نابليون سنة واحدة من

عند ما كان قلبى لا يزال يرنو إلى الشمس  
 كما لو كانت تستضيئ لنداته  
 ويحبب للكوكب إخوته  
 وفربح نغم الإله . . .  
 . . . عند ما كانت القسمة تثير القنابات  
 فتلحس بروحك . . . روح المرح والسرور  
 توقظ الشجن في قلبى الخافت  
 فتحوطى حينذاك أيام السعادة الذهبية .

• • •

عند ما كنت ألتقى النضارة في الرأى من ينبوعك  
 بين خضرة الشجيرات الياضنة  
 التي تكايل على جانب الصفور الصاء  
 ويظهر الأثير غلال أغصانها  
 . . . وعند ما كانت تطفى على الزهور  
 فانتفى من شذاها في سكون  
 وتطيط على رأس من أهل السماء  
 حالة من الذهب الموه بالثور والبربر .

• • •

عند ما كنت أنقى في الأراضي لبلور الكالحة  
 ونضارة بحيرة السيول  
 مع أماني الأصاديد الداكنة  
 ولتسرى ظلال الأعاصير المظلمة  
 . . . وعند ما كانت العاصفة تنطلق  
 ببروتها وروعها العاتية بين الجبال  
 وتحصر في سماء بين طيها المندلع  
 عندئذ . . . عندئذ تكشف لي يا روح الطبيعة

• • •

كم ضمت سكراناً بدموعي وحسى  
 كما ترنو الأنهار التي تاحت طويلا  
 إلى النضاع في بطن المحيط  
 فانتفض إلى ملائكة . . . أيها العالم الجليل  
 وأنتزع بجمهر الكائنات  
 هاربا من وحشة الزمان .

. . . وكأخلاج إلى قصر أجداده . .  
 ألقى بنفسى بين أذرع الانتهاية .

• • •

باركك الله يا أحلام الطفولة الذهبية  
 يا من أغضيت حتى يؤس الحياة  
 لقد تحببت خاتر الخير في قلبى  
 وأهديتنى ما لست أقوى على منالته  
 أيها الطبيعة . . . بفضل نور جياك

في فكره وأشعاره ، وزادت قراءاته للشعراء الذين  
 استأثرت بأعمالهم الفنية نزعات روحية خالصة مثل  
 كلويشتوك المولود سنة ١٧٢٤ والمشهور بملاحمه  
 الدينية وأشعاره القومية وأغانيه العاطفية ، ومثل شعراء  
 جيتوب غرب بافاريا التقليديين ، ومثل بعض شعراء  
 الإنجليز الذين تخصصوا في الإنشاء الديني والغناء الحزين  
 القائم كما هو الحال عند أوسيان الأسكتلندي الأسطوري  
 من القرن الثالث عشر ، ويونج الذي كان ديوانه عن  
 « الليلى » بمثابة الإرهاسات للحركة الرومانتيكية في  
 النصف الثاني من القرن الثامن عشر .

وأخذ هيلدرلين ينتج الشعر في تلك الآونة متأثراً  
 بمثل هذه الأجواء ومعبراً عن محيط أصدقائه وإخوانه  
 وأقاربه . ولكنه كان قادراً حينذاك على أن يرتد إلى  
 نفسه أحياناً فيعكس مخاوف قلبه وروحه ، ويشقى  
 الموت شاباً حتى تأتي العذاري فتطفى بالزهور حول  
 قبره وتروى بدموعها ثراه .

ثم نهب على أحزانه وهواجه نسمة شفاقة من أثر  
 قراءاته لأشعار شيلر ، فتتبدى بعض معالم روحه ،  
 وتحتل العواطف المثالية مكانة المحوس الديني في نفسه  
 الشابة ، وتحدث تغيرات جوهرية في معانيه وأغراضه  
 الشعرية ، وتصبح المثل الإنسانية موضوعاً أساسياً  
 لمقطوعاته ، فينظم أشعاراً عن الحرية والحقيقة والإنسانية  
 والجمال وعقيدة الشباب وعن الحب والصدقة .

وهاك مثلاً من أشعار تلك الفترة : في قصيدته

« إلى الطبيعة »

عند ما كنت لا تزال أعبث بإزادك  
 وأتملق بأهدائك كاليرم  
 وأحس دفات قلبك في كل الأصوات  
 التي تتمر قلبى الضعيف المجهف . .  
 . . . عند ما كنت لا تزال أأنف متعللاً بصوتك  
 بقلبي الماسر بالمقيدة والماس مثلك  
 أيها العالم مكاناً لدموعي ووطناً لحسى

• • •



ديمترىا  
ربة البوص والإفهام

تنفتح اثمار العلوية على شجرة الحب  
ينير ألم ويلا عسر  
مثلا تنفتح محاصيل أركاديا

• • •

لقد عيا العام الشباب  
ذاك الخلى رباني وألمنى  
هذا القلب كانت السماء تملك مني حنينه  
فأصبح منيا يابسا كالقش  
واحسرتاه . . . هذا الربيع يردد من جديده  
أغاني حزاله الخلوة على مساح الآسى  
يبد أن صباح حيش قد انتهى  
وذوى ربيع قلبى .

• • •

إن أغل الحب أبد قصير  
وليس ما نحيه سوى ظلال  
وعند ما ماتت أحلام شيلي الذهبية  
ماتت بالنسبة إلى صديقى الطبيعة .  
لم تضر قط يا قلبى المسكين  
في تلك الأيام السعيدة  
بأنك قد نأيت عن وعكك الصحيح  
ولن تصعيد أياك تلك بحال  
إلا إذا اكتلمت بأن تراها في الأحلام .

• • •

ولم يعلق شاعرنا هيلدرلين الذى امتزجت الشاعرية  
بوجوده وفكره معاً ، أن يبقى في وظيفته تلك وأخذ  
يتنقل هنا وهناك حتى التحق ببيت رجل من رجال  
المال في سنة ١٧٩٥ للإشراف على تعليم أبنائه .

وفي ذلك البيت الجديد دخل إلى قلبه الحب  
والوحى جنباً إلى جنب ، فأحس بعشق جارف للسيدة  
زوتسيته أم تلاميذه التى أمياها «ديوتيا» في قصائده .  
وقد أسقط الشاعر عليها كل هيامه باليونان القديمة  
وعكس على صفحة وجهها ، ملاحظة الغادة الطروب  
في تمسك ، الفاتنة في تماسك ، الهائعة بألوان الفنون  
والشعر والجمال . وجعل منها في خياله فتاة إغريقية تحت  
مياء الشمال البارد أو زهرة شتوية استقرت في غير  
موطنها الأصل .

وهكذا تألفت في فكره عنها مشاعر الإنسانية  
ومثل الشباب ، وتجمعت في شخصها أحلامه وحنينه  
إلى اليونان القديمة وأحاسيسه وأوهامه عن مصائر  
الناس .

ومن أشعاره الثنائية في تلك الفترة قصيدته «إلى  
ربات المصير» المعروفة بألغات الجحيم في الأساطير  
اليونانية القديمة ، وفيها يقول .

لا أطلب غير صيف واحد أيتها القويات  
وغريف آخر تنفتح فيه أنمارى  
حتى يطلع القلب بالحب القديم  
ويقبل على الموت في استسلام

• • •

إن الروح لم تحظ بجها في الأرض  
لا تعرف السلام حتى في الجحيم

إلى . . . بل . . . فلك أشعاري المقدسة  
قد صارت المآلة في أزدحام

• • •

مرحياً بك أيها الفلذل الرجيمه  
عندك سارفي مرعاً يجر طجوري على الأحاب  
وحسبي أن أكون قد عشت كالأفة  
يوماً واحداً .

• • •

وقلّبت على قصائده في حب زوكتيه روح دينية  
قوية وينتج إليها في تعبيرات صوفية كما لو كانت  
رسولة السماء التي بعثها الله إليه خصيصاً من أجل عزائه  
وطمأنينة باله وسكينة خاطره . وقصائده المعروفة تحت  
عنوان «إلى ديوتيا» تضم جملة من المشاعر التي تبدأ أولاً  
بتأثرات من جوته في معنى المصير الذي جمع بينه وبين  
معشوقته كأنهما كانا على موعد في اللقاء الذي تعرف  
فيه كل منهما على الآخر وكأنما ساقتهما الأقدار ليجدا  
في نفسيهما دليل القدر المكتوب .

ثم يتطور هذا المعنى ، فتظهر القيمة الخالدة لساعات  
لقائهما واتحادهما الذي تخفي أثناءه كل القيود الأرضية  
ويبرز كل منهما حيال الآخر في حرية ووضوح  
واعتراز مستغرقين ومشرقين الروح والقلب والنظر  
والوجه ، ممثّنين بالسلام السماوي ، على حد تعبيره ،  
في أحد خطاباتهما إليها .

ولتلمس الآن معانيه الصافية هذه في قصيدته عن  
«الأفة» :

أيها الأثير الجامم  
أنت تحفظ لروسي جهالاً وسط الآلام  
وتحت سطوة نورك يا إلهي  
يساعد تليي النائر  
إلى الشجاعة والتبيل

• • •

أيها الأفة الطيبة  
شقي من لا يعرفك  
وتنقل روحه الشقية بلا أمل  
وقلبه فريسة الانقسام

وتصبح الدنيا في صلبه غلاماً  
ويجهل التمة والثناء

• • •

أنت وحبك أيها الأفة الطيبة  
ترغسين القلوب التي تحبك  
من شبابك الخالد  
وتقصدين عليها براسة الأطفال  
ولن تتركى البعيرى المثلث بالمعوم والخطايا  
يأس ويموت .

• • •

وهكذا تلمس قصيدته الدنيى الذين يظهر على  
صفحة أشعاره وتتجلى مراسمه على صورة تراتيل  
وعبادات . وتشكل في كل قصيدة من قصائده حبه  
لفتة تعكس شيئاً من حنين قلبه ووهج عاطفته الأسبانية  
التي سرعان ما تنجح إلى الحزن القائم وتشتع منها رائحة  
حب فريد يربطه الشاعر بكل الوجود وبأصغر مظاهر  
الطبيعة وأكبرها على السواء .

والكائنات العامة في قصائده إنما تنفي معشوقته التي  
ترنو إليها كل مظاهر الطبيعة في صمت وخضوع وهم  
بها كل الموجودات . وتليد أوليات فكرته عن  
الطبيعة التي تتسادل عن الإنسان في أحد تعبيراته ويجعلها  
نهب لشقاء معشوقته إذا مرضت ، وعزائها إذا أحست  
بالوحشة .

استمع معي إلى قصيدته عن «الحب» :

إن نسم الأصدقا  
ولعلمن الأقربين إليكم  
وأزلمن سخطكم على القشرا  
فذلك مجدمكم  
وليفره الله لكم  
ولكن أيقروا روح من تعابروا

• • •

قل له أين يمكن أن نحيا حياة الإنسان  
وقد أسى ألم الخسوس كل الفلمات تحت نيره  
فلذا يغنى الله أيقاً منذ وقت بعيد  
لا مجالاً من فوق ما نحمل من دؤوس

• • •

أعماله ماهية الشعر بمعناه الأصيل . ولا نعرف ما إذا كان من حقنا هنا ، أن ندخل في تحليل أشعاره من وجهة النظر الفلسفية . ولكن الفلسفة هي التي اكتشفت حقيقة الشعرية ولم يعد من الممكن إغفال وضعيته من هذه الوجهة . ومن الضروري أن نشير إلى بعض ملامح الفلسفة المعاصرة لتدرك مدى أهمية هذا الشاعر الخاصة بالنسبة إلى التيار الفكري الأوروبي الذي يعتبر ظاهرة الشعر عند الإنسان أساساً لكثير من مفهومات الفلسفة .

فقد كان هيلدرلين كما سبق القول شاعراً مجهولاً مغموراً في حياته ولم يمرره جوته أدنى التفات ، وكان يلقيه بالإهمال والفتور . وعلى الرغم من حماية شيلر له وعطفه عليه ، وعلى الرغم من إعزاز الناقد اشليجل لفنه وتقديره له ، بقي هيلدرلين غير معروف في الأوساط الأدبية إلى أن أخرجه كتابات الفيلسوف الألماني المعاصر « هيدجر » إلى عالم الفن والأدب والفكر <sup>١</sup> على نحو لا يسبق حدوثه لشاعر سواه .

وقد أهتم الشاعر ريلكه في مسهل هذا القرن بدراسة آثار هيلدرلين الشعرية مع محاولة المشي في إثره واقتضاء خطاه ... ولكن هيدجر استطاع أن ينتزعه بقلمه انتزاعاً من عالم الجهول وأن يلفت النظر إليه وأن يشرح معالم فكره وانكاسات روحه ولقنات خاطره في صورة قوية عميقة ناصعة .

فذلك أن فلاسفة العصر الحاضر قد شاعوا الانقسام على صورة فرق ومدارس ، وأرادت بعض هذه المدارس إظهار قيمة الفكر العلمي أو المنطقي كما تفعل المدارس الإنجليزية والفساوية الأمريكية وأراد بعضها الآخر ، وبخاصة داخل القارة الأوروبية ذاتها . النزوع إلى المذهبية العقلية التي توافق أحوالهم الفكرية وتظهر نظرتهم إلى الشعر من حيث هو جزء مكلل للكيان العقلي ذاته شأن اليونان الأقدمين .

فالإحساس بالدهشة الإنسانية الأصيلة في الكيان

ولكن مهما نحى الستون بإرادة غير شديد في التعمق إلى ينطلي سطح الأرض بالجلبدي تنمو رغم ذلك ثقافات من العشب وغالباً ما يصاح الصقور القرية

• • •

هنا ما تنمو الغاية بالتدرج من فتورها عند ما يتكشف النهر وتعلب الريح في نفحة البهوية في اللحظة المختارة

تنبلي وسولة للموسم أكثر جيالا

فتؤمن بها وقد خرجت من الأرض الصلدة الموحدة رحيده منها لذاتها

نبذة رفيقة بين الجنبين

هي الحب . . ابن الله ومنه وحده

• • •

فليباركك الله أيها الثبات السايوي

يا من كفتى ينشيد

وبرضك الأثير برحيق من رضابه التمداد

وتستيك الأعضاء الخلقة

• • •

إكبر . . صر غابة شامخة وعالماً تنفذ فيه الريح

شاعراً في ملاه . .

يا لغة التهنين يتحابون

صر لغة البلاد

حتى تصبح روح العشق صرخة شهب بأكله

• • •

وقد افترق شاعرنا عن عجبوته فراقاً أحدث ألاماً عميقاً في نفسه لسبب لا نعلمه سنة ١٧٩٨ وقام بعد ذلك بجولات في بلدان مختلفة حتى وجد نفسه في فرنسا بمدينة بورودو سنة ١٨٠١ وعاد إلى ألمانيا في سنة ١٨٠٢ وهاجمه المرض العقلي بشدة سنة ١٨٠٤ ولم يخلصه الموت منه إلا في ١٠ يونيو سنة ١٨٤٣ .

ولم يخلق مصيرٌ شعرياً أحقُّ بهذا الاسم من مصير هيلدرلين الذي قضى معظم أيامه بين الجوع والتشريد والجنون والحب . والواقع أنه لا يمكن أن نصف شاعرنا بصفات الروحية والفكر ، فهذه قلما تؤدي المعنى العميق الذي اكتشفه الفيلسوف الألماني المعاصر هيدجر في الثلاثين سنة الماضية حيناً استخلص من

العقل يعد عند أصحاب هذه المدرسة تجربة أولى للعقل  
وتعبيراً صحيحاً عن الحقائق بمقدار ما يحمله من  
تلقائية وتصور . والشعور بالحنين إلى مظاهر العيش  
والناس هو الاستجابة الحارة لكل دلالات الفكر  
والوجود معاً .

وقد استشر هيلدرلين كل ذلك في قصيدته عن  
« مجرى الحياة » :

هيه . . حتى أنت  
كنت زرو لفايت عطية  
ولكن الحب يعطينا جميعاً تحت أحكامه  
ومضى الشتاء مامناً أكثر وأكثر  
ولكن ليس بعداً  
أن يعود بنا مدار الحياة من جديد  
إلى نقطة البداية

• • •

صعود وهبوط  
ولكن ماذا يهم  
ففي القيلة القدسية  
حيث تحمل الطبيعة الخمراء  
بأيام المستقبل  
بل في أشقى درجعات الجحيم  
أليست هناك شربة قائمة  
وهل يحكم

• • •

والتم . . أينما الآفة الخالدة  
يا عماد الحياة  
لن تمضوا في فيما أرى  
أبدأ . . أبدأ  
عبر الطريق السجل  
شأن أبناء الفناء

• • •

ستقول آفة الخلد  
جربوا كل شيء  
ويوم يرضع الإنسان الرضاب المرير  
فيعرف قدر الأشياء جميعها  
ويدرك أنه حر  
في اختيار السبيل الذي يريده

• • •

فليس شعر هيلدرلين مبادئ عقلية مصبوبة أو  
مجموعة من المقولات المنمقة المرصوفة . . إنه على  
العكس من ذلك يصل إلى الشاعرية العالية لدقة الفكر  
المنشر بين صوره وعلى أجنحة خيالاته ويسعى من ثم  
إلى تحديد الرسوم بشكل فني يدعو العقل إلى اغتراسها  
وإحالتها إلى تصورات وعقائد . إنه معاناة للأشياء  
والموجودات دون ارتباط قبل بصورة غير صورة  
الصباح والنور الذي يلقاه الإنسان عند الفجر فيبدأ  
من عنده في تأمل الأجواء المحيطة والشبابيك والأبواب  
والسقوف . . فتتجسم معالم الأشياء وأشياحها ويتلقاها  
وجدانه في تفتش الذي لم يدخل الطعام قط في جوفه ،  
ويستشعر لذته الأولى عند ما تحرق الحقائق فكره  
لأول مرة وهو شارد بمفرده ، يتحسس في متعة كل  
ما تحرق روحه ويشد إلى نفسه ، ولا يأخذ الصورة  
مترجمة عن أنظار الآخرين أو السابقين . إنه يصاعد  
إلى ماهية الشعر ذاته ويلتحم بجوهر الكائنات ، وهنا  
يتحقق معنى التجربة الأكبر .

وقد استغرق موضوع شاعرية هيلدرلين كيان  
فيلسوفنا الوجودي هيدجر الذي أخذ يحلل كل خطرة  
من خطراته ويحدد معالم فكره ويستخرج مكتونات  
فلسفته في غير قليل من الإبداع . ذلك أن هيدجر يعتقد  
أن الفكر أولاً وقبل كل شيء ظاهرة إنسانية . وكان  
الفكر عند اليونان مظهراً من مظاهر الوضوح ومرتبطاً  
بنور السماء كما هو الأمر في الأبوفانيسيس الأرستطالي .  
والنزوع إلى الفكر اليوناني هو نزوع إلى الفكر عند ما  
لم يكن قد اكتمل في صورة تفضل بعد ؛ وأثر الروح  
اليونانية في أشعار هيلدرلين كان ظاهراً تماماً ،  
والرجوع إلى بيت الفكر الأول هو رجوع وحنين إلى  
وطن المفكر الأصل .

وهيلدرلين الشاعر الجوال الذي لم يستقر في مكان  
هو أشد الناس حنيناً إلى الوطن الأول ولذلك تغنى



بالصلة بين الوجود والوجوديات فإن الوجود الإنساني  
يرد في التو على الخاطر مرتبطاً بهذه الصلة بين الاثنين .

وهذه قصيدة أخرى تحت عنوان « عبثاً أطرق  
كل يوم سيلاً آخر » .

عبثاً أطرق كل يوم سيلاً آخر  
فعبثاً نحو عذرة العائبة  
وعبثاً نحو المنع  
وعبثاً نحو العسرة المكسوة بالزهور  
حيث تجول عيوننا بالإقليم كله  
.....

أي حبيبي الرقيقة  
لم أعد أراك في أي مكان تحت الشمس  
وتحتني أقوال في الهواء  
أقوال للقدسية  
التي هست بها منذ هنية .

.....  
أنت بريد حذاً أيا الوجه المباري  
ومع ذلك فحياتك تضي  
بهدوء حث لا أترك هيئة أنسجابه  
وألا ألتصق . . . أين أنت  
يا توافق النسر الذي ولي

.....  
صبي في قليب سكون الآلة  
كم من الوقت ضاع  
فالتفت اليائس قد صار شيئاً  
والأرض نفسها تحولت عن ابتسامها الضاحك

.....  
وداعاً إلى الأبد  
إن دوسى تهرب كل يوم لتعود إليك  
وعيون تبيك  
حتى إذا فسحتها للدموع  
وأنت للمكان التي تسكنين بوضوح  
.....

ولا يعرف هيدجر بسبيل للفلسفة أو للفكر إلا  
في تحقيقه على صورة علاقة أصيلة داخلية بين الوجود  
بمعناه الواسع الأعم والوجوديات الإنسانية المنزعة في  
عالم الناس والأحياء . ولذلك يصعب الفكر كيان

بالوطنية وتاجي أرض اليونان وامتزج عنده الشعور  
بالهدامة الأولية في الفكر بالشعور بنوع من الاشتياق  
إلى الدار . . إلى الأركان « إلى تلك الأضواء الخافتة  
التي تستلحب ذكريات المرء وتاريخه ووجدانه » حيث  
يجد ذاته ويعترف على منابع الوحشة الداعمة في العالم  
الذي يبينه بخياله ، ويظل مع ذلك حائطاً تبرز كل  
جذبة فوقه وكل خدشة فيه ، دليلاً على معنى الإنسانية  
المقفلة ورمزاً للتجاوب بين الإنسان ونفسه . . مما يجعل  
منه حيواناً فريداً على سطح الأرض ينقسم ويتفاعل  
وبتألف ويستشعر .

تأمل معي إذن قصيدته عن « سقراط وألفيادس » .

لماذا . . أي سقراط المفلس  
تقدم فروض القمصايا هذا الشاب اليافع  
ألم تجد ما هو أفضل من ذلك  
لماذا تتألم في حب  
يشبه حب الآلة ؟  
فأجاب :

كلما حق الفكر  
أحب الحياة المليئة بالحياة  
وبعد أن تجول الأفكار بالعالم  
تدرك القضية العالية  
ويتعلق الحكاء منا بالجمال

.....

ويقول هيدجر إنه ما من مفكر استطاع أن يقتحم  
عزلة مفكر آخر . ومع ذلك ما من فكر يصدر من  
أعماق العزلة الفردية على صورة كلام مستور إلا وهو  
منتج إلى فكر سابق عليه أو لاحق به . وكلما بدا الفكر  
شارداً لأول مرة في الطريق بلا علامات ولا حدود  
كانت تجربته أوقع للحظات الوجودية . . وهي  
اللحظات التي يحس فيها المرء بالتجارب لأول وهلة .  
والوجود الأصل عند هيدجر هو الوجوديات أي  
الوجود وقد تفرق وتناثر على شكل وجوديات .  
والوجوديات هي عالم البشر والناس . وبمجرد النطق

الإنسان بأكمله ويتنمى من ثم إلى الوجود . واستجابته للوجود لا تتم إلا عن طريق اللغة .

واللغة ليست ما يدور بخاطرنا من كلام وأقوال منظومة وأدوات تعبيرية مصبوبة ، فالشعر والفكر لا يعمدان سوياً إلى استخدام اللغة والاستعانة بها من أجل التعبير ، فهما في حد ذاتهما تعبير « أولى » أصيل ، وهما بالتالى ، في الوقت نفسه ، اللغة العليا التى تتحدث بها اللغة ذاتها خلال الإنسان .

والكلام عن طريق اللغة شيء آخر سوى استعمال اللغة . بل إن الكلام العادى لا يعدو أكثر من كونه استخداماً للغة . وعند ما نقول إنه كلام عادى فنحن نعنى أنه ليس إلا لغة على هذا النحو ، أعنى أنه استخدام للغة .

ولما كان الفكر أو الشعر على حد سواء لا يستخدمان العبارات وإنما يقولان كلاماً ، فإننا بمجرد استطلاعنا سبيل الفكر نجد أنفسنا ملزمين بأن نلتفت إلى قول الكلام . ففى الفكر والشعر قول كلامى يسبق اللغة التعبيرية . والعلم لا يعبر وإنما يستخدم اللغة ، ولذلك فالعلم لا يفكر كما يقول هيدجر ، ويبقى بعيداً عن الإدراكات المباشرة للأشياء . فالعلم لا يفكر بمعنى الفكر لدى المفكرين ، ولكن ذلك لا يمنع الفكر ذاته من الالتفات إلى العلم . وقولنا بأن العلم لا يفكر ليس من شأنه أن يعطى الفكر حقاً في المنزلة والخوف .

وقد تكونت في أشعار هيلدرلين صورة كاملة لهذا العالم بما فيه من أحياء وآلهة ... من طبيعة وملائكة ، فاستطاع أن يضع الإنسان في مكانته الأصلية بين مظاهر الوجود وتحملت عقيدته الدينية أحلام وأساطير كثيرة فجمع بين باكوس والمسيح واستعان بخياله الفذ على تجسيد الأرباب ثم همس وتنفى بأعذب ما ينبع من ذات إنسانية عليا .

فلنقرأ هذه القصيدة : « فوق ورقة الشجر المصفرة .

يرقد العنقود  
أمل التبيذ  
فوق ورقة الشجر المصفرة  
.  
مثلاً ترقد ظلال حلق ذهبي  
تندى من أذن حساء  
فوق حده

وسأطل وحيداً

إن العجل الصغير  
يألف التعلق بالرباط  
الذى يشده

حين يستكين إليه

يبد أن كن من يسر الحب  
بمشرق رزية ادرأة التزوم  
في وشع الهار  
فوق شامها

بـ شعر الأدبيات  
يقفه التناقض  
ولكنه يتنمى في سموت  
صوت القنلات  
فوق دق أشعث

\*\*\*

ومعروف أن الشعر يتنمى إلى الأدب منذ مدة طويلة .

والواقع أن الفكر أيضاً يتنسب إلى الأدب بالطريقة نفسها . والفكر ليس شعراً في النهاية ، ولكنه قول « أولى » أصيل في اللغة . ولما ينبى أن يظل قريباً من مملكة الشعر . ولأن يستطيع تاريخ الأدب أن يتخلى عن شعرائه ومفكره . وأسماؤه سوفوكليس ووريكه وهيلدرلين ستظل عالقة بتاريخ الأدب ، ولكن هيلدرلين وحده سيكون أكبر من وقى تعبيراً قولياً عن ماهية الشعر وقد تجسدت في أحلى أشعار أخرجهما أرض الشعراء والمفكرين : أرض الراين .

## رحلة (جارجارين) أول خطوة لصنع إنسان الفضاء

بقلم الأستاذ فوزى الشترى

إلى أين ؟

إلى أين تخطو البشرية بعد أن عرفت باب الخروج من سجنها الأرضي ، وبعد أن اقتحمه الروسي « بورى جارجارين » فسجل أخطر حدث وأعظمه في تاريخها الطويل ؟ وأية فائدة تعود عليها إذا ما سيع الإنسان في الفضاء وزار القمر والزهرة والمريخ وغيرها من كواكب الكون ؟

والإجابة عن مصير البشرية ومستقبلها ، لا تتجاوز الآن تفكير تلك الأسماك التي رغبت منذ أكثر من ١٠٠ مليون سنة في مغادرة حياة الماء لتكتشف اليابسة ، فالتفت أكياساً اختزن فيها أكسجينها ، وخرجت إلى الأرض لتحقيق هدفها .

كلتا المخطوتين في رأى فريق من علماء الحياة مرحلة تطور . رأينا في الأولى الأسماك تخرج من البحر لتنتشر الحياة على اليابسة ، فإذا هي تتحول إلى زواحف وطيور وحيوانات لبونة على رأسها الإنسان .

### ● مرحلة في التطور

وها نحن - بخطوة « جارجارين » - نضع أقدامنا على أولى درجات التطور من إنسان اليابسة إلى إنسان الفضاء ، إن صحّت نبوءة العالمين الأميركي « سترجهولد » وزميله الروسي « جوروفسكى » .

وعلى الرغم من امتيازنا عن تلك الأسماك باتساع أفق العقل والتفكير ، وعلى الرغم كذلك من علمنا بتاريخ التطور في مراحلها المختلفة ، فلننا لا نقصّها كثيراً من حيث القدرة على التنبؤ بمصيرنا حتى في

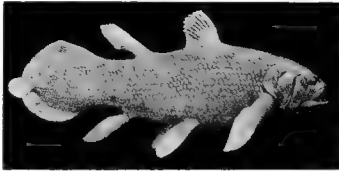
الخطوة التالية ، حين نبدأ في التأقلم واكتساب الصفات الجسدية الخاصة بحياة الفضاء ، مما يؤهلنا للهجرة فراراً من كوارث الأرض وأهلها كما أفنى العالم الروسي « ليدنسكى »

كل ما نعرفه أننا قلّدنا تلك الأسماك البدائية . فالرغبة في استكشاف العالم المجهول توفرت في النوعين . وكل منهما سعى إلى تحقيقه بوسائله الخاصة ، واستعان بمرونة أعضاء جسمه ، وقدرتها على التلاؤم والانسجام مع البيئات المعادية ، ثم اقتنى الأجهزة الخاصة بالتغلب على العوامل التي تفوق قدرته البدنية ، مما أتاح له الحياة في بيئات تقتله .

ويروى تأريخ التطور ، أن تلك الأسماك خرجت من بحرها منذ ١٠٠ مليون سنة ، وهي تحمل بين طيات جسمها كيساً يحوى كمية أكسجين ادّخرته واختزنته فيه لبدء عملية استكشاف اليابسة ، وتجربة الحياة فيها . وتروى البحوث والأبناء أن « جارجارين » اختزن هذا الأكسجين في كيس أو قمرة حرص الخبراء فيها على أن تحيد تقليد البيئة الأرضية .

### ● بيئة معادية

وبيئة الفضاء شديدة العداوة للأحياء الأرضية ، وتشبه عداوة اليابسة بالنسبة للأحياء البحرية التي تعيش على عمق ٨ أو ٩ كيلو مترات تحت سطح الماء . وهي هناك تحصل على أكسجينها بمعونة خياشيمها ، وتعيش تحت ضغط مائى كبير تعودت أجسامها على احتماله دون الشعور بثقله ، فهي مثلنا



سمكة « سولاكانث » بزرائها الصبية التي ساعدتها على هذه الهجرة من الماء إلى اليابسة .  
وعطوة الروسي جابجارين تقليد لما فعلته ولكن من اليابسة إلى الفضاء .

التي تأكلها ، وبين المادة التي تنسرب من معدتك إلى دمك ، فتختلط به ، وتمر على كل خلايا الجسم لتأخذ كل نصيبها من الغذاء الذي إن غاب عنها دقائق أصيبت بالجوع المروع ، ثم الانحلال والموت . وهي الظاهرة التي نلمسها في حالة الترويات القلبية ، حين تظهر في الشرايين جلطة دموية تسد واحداً منها ، ونعرض مسار اندم إلى القلب أو المخ أو أى الأعضاء ، فتحرمه من غذائه .

#### ● غزو اليابسة وغزو الفضاء

ولعله من الأفضل أن تعود حقبة لتتخيل تلك السمكة في محاولاتها غزو اليابسة . وهجر عالمها المائي الذي حرم فيه نعمة الاطمئنان إذ كثر حولها الأعداء ، كل يرقبها ، ويتحين الفرصة لالتهايمها ، وتلقى بنظرة على اليابسة ، فلا تجد من أثر لأعدائها فيها . وترأها شبيهة بتلك الفجوات الصخرية المغمورة في الماء ، ولها تلجأ وتخفى عن العيون المتلصصة التي تريد الفتك بها ، وترتمق على اليابسة أيضاً فيضاً من تلك الأعشاب التي تتغذى بها .

وتستولى عليها الرغبة في الهجرة ، وتقرب لتلقى نظرة أدق وأعمق ، وتلقها الأمواج على الشاطئ

حيال عمود الهواء الذي تحمله ، ويقدر ثقله بنحو ١٤ رطلاً على كل سنتيمتر مربع من أجسامنا ، ولا نحس بثقله لأن الضغط الداخلي في أحسامنا يتساوى مع الخارجي ، ويلغيه .

وعند ما أخرج الإنسان تلك الأحشاء من أعماقها ، انفجرت ، لأن الضغط داخلها زاد عنه في خارجها عندما أزيل عمود الماء من فوقها ، ولم تستطع الحياة بغير الثقل الذي تعودت عليه طول حياتها . وكذلك الإنسان تعود أن يعيش بجاذبية الأرض وثقل عمود الهواء ، فإذا انتفخ انفجر في الفضاء .

ولهذا حرص العلماء على تزويد قمرة « جابجارين » بالضغط والأكسجين الشبيهين بما على سطح الأرض .

ولم تكن تلك السمكة التاريخية في حاجة إلى الضغط لأنها كانت من سكان سطح الماء ، واختلاف ضغطه عن ضغط اليابسة قليل ، ومن السهل على أعضاء جسمها أن تتسجم وتتلاطم معه ، ولكنها كانت مثل « جابجارين » في حاجة إلى أكسجين يحول الطعام الذي يأكله الحى إلى مواد غذائية تستطيع أنسجة الجسم امتصاصها .

والفرق كبير بين رغيغ الخبز أو قطعة اللحم



تطير طائرة صاروخية تحاول أمريكا صنعها لتقطع ٢٤ ألف كيلو في الساعة  
وبها يمكن إجراء هبوط سفينة من التيارات لزيارة الفضاء

و«سايكون» و«دوزون» ، في بحث نشره في  
السنة الماضية ، إن ذلك السر يمكن ويعمل في نوى أى  
العناصر «الطبيعية» ومن شأنها أن تتعلم وتذكر ، وبه  
تعمل العقول الآلية ، ويفكر الإنسان .

والحديد صلب لا يلين ، وله خواصه المعروفة ،  
لأنه تعلم وتذكر كيف يحفظ بنحوه . والإنسان  
يتكلم ويستخدم عقله لأن مراتب التعلم تجتمع فيه ،  
وعرفت كيف تتماز على سواها ، ولعل تعقيد  
جزيئات مادته ، واحتوائها على آلاف المركبات ،  
هو الذى جمع فيه مميزات لا تتمتع بها أى المخلوقات

والمشاهد في كل الأحياء حتى الميكروبات التى  
لا تراها العين - أنها تتألف من عدد ضخم من الذرات  
المنظومة بطرق تعذر على الإنسان أن يقلدها حتى الآن .  
وهذا التجميع لأنواع المادة عرفته الطبيعة وحشدته في  
الأحياء لتكتسب الرق على سواها . وكلما زاد الحشد ،

فترى عالماً فيسبحاً لا أثر فيه لأى المخلوقات ، وفجأة  
تحس بالاختناق ، وبجسمها يضعف ، فتساقم لأول  
موجة ماء تعود بها إلى البحر ، ففيه لا تحس بذلك  
الشعور المرهق الرهيب .

وتعود إلى حياتها السابقة بين أعداء لا قبيل لها  
بمعاداتهم ، فيزداد بها الحنين إلى اليابسة ، إلى العالم  
الفسيح الخالى من الأعداء ، والوافر الغذاء . وتتكرر  
الزيارة آلاف المرات ، وتتصاقب في الأجيال جيلا  
بعد آخر ، والرغبة تزداد ، ولا تضعف ، والمحاولات  
المستمرة تعلم الأعضاء ما لم تعرف .

#### ● المادة تعلم وتذكر

والمادة سواء أكانت حية أم ميتة تملك سرّاً يعتقد  
العالم «الفرنسى» «بيرين» أنه سر الحياة . عرف العلم  
بعض مظاهره في عام ١٩٢٢ ، وأطلق عليه اسم  
الكهربالية الحديدية . ويقول الباحثون «بولونسكى»

يستطيع تحليل الهواء ، فزودتها بذلك الكيس لتخزن فيه الأكسجين وتطيل زمن الزيارة ، وبه أمضت فترات أحست فيها بالأمن والسعادة ، وعرفت أن اليابسة مجال جيد لحياتها .

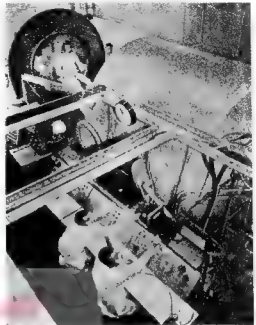
وأحبها وأمضت فيها أطول وقت ممكن ، ولم تلجأ إلى الماء إلا قليلاً كيسها ، فهي تريد الاستغناء التام عن حياة الماء . واستجابت الطبيعة لرغبتها ، وزادت من معونتها عندما رأتها تحمل خياشيمها بغير فائدة .

والحياة عزيزة على الطبيعة في أى صورها . ولهذا جعلت المادة قادرة على التأقلم والانسجام مع بيئتها . حتى الحشرات الضارة استحال على الإنسان إبادة أى أنواعها . وعندما استخدم المبيدات الحشرية ، زودت الطبيعة الحشرات المعرضة لها بخواص جعلها لا تتأثر بها . مما عرف عند العلماء باسم المناعة ضد لونها ، أو أكثر من هذه المبيدات .

واقفنت الأسماك أنفاً وتحوّل بعضها إلى زواحف أو طيور . أو أحياء تعيش في البر والبحر . وتمسك بعضها بالخافة التي تحوّل إليها ، ورأى بعضها أن يرق ويتطور . ولكل من الأحياء استجابات الطبيعة ، وزودته بما يريد من أجهزة ، فتضرعت المخلوقات الحية إلى آلاف الأنواع والأجناس التي نراها الآن ، وعلى رأسها الإنسان بقلبه وتفكيره وقدرته على الدراسة والابتكار واستغلال كل ما حوله لخدمته ، وتحقيق أغراضه .

#### ● جاجاوين والسكة

وهنا يظهر الفارق بين «جاجارين» وتلك السكة ، فهي تركت للطبيعة والتطور مهمة تزويدها بما تريد من أجهزة ، فاحتاجت إلى مليوني سنة لتكون الإنسان والجنس البشرى . ولا نعرف بالضبط كم أمضت حتى اقتنت كيس أكسيجينها ، وإن كان من المرجح أنها أمضت ملايين السنين .



محارب دراسة الفضاء ... تمت آلاف سها في غرف محكمة الإمداد لتقلد فيها الميول السائدة في الفضاء ومنى أسبال الإنسان لها وكيف يمكن الوثاقية منها . وفي الجزء الآخر من الصورة ظهر أحد المتطوعين مستعداً لتفصيل الغرفة وإجراء تجربة . وظهر في أسفلها سيجران يصبطان أجهزةهما لبدء التجربة

زادت القدرة على التعلم والتذكر مما نراه على أقصاء في الإنسان الذي يعد أعقد المخلوقات .

#### ● وساعدها الطبيعة

وبخواص التعلم والتذكر الموجودة في تلك الأسماك أدركت أن خياشيمها عديمة القيمة بالنسبة لحياة اليابسة ، فهي تعرف كيف تحلل الماء ، وتستخلص أكسيجينه ، ولكنها لا تعرف كيف تحلل الهواء لتحصل على المادة نفسها رغم وجودها فيه .

وفي غزواتها المتكررة لليابسة ساعدها الطبيعة . وبدأت تعمل معها في استبدال الخياشيم بجهاز آخر



التسبي مما يجعل المنطقة التي خلق فيها « جاجارين » قليلة الخطر .

#### ● مادة الفضاء

ومن الدراسات المختلفة تغيرت النظرة الماضية إلى الفضاء ، وما قيل من انتشار مادة الأثير فيه ، فإن الدراسات التي أجراها « إينشتاين » وغيره من العلماء أثبتت أن كل فضاء الكون يحوى المادة البدائية ، وهى نواة غاز الإندروجين . وتختلف نسب وجودها وشكلها وتكوينها تبعاً لقربها أو بعدها من أى الأجرام الكونية ،

وهى على سطح الأرض هواء ، ويحوى السنتيمتر المكعب الواحد ٣٠ كاترليون ذرة ( ٣ وأمامها ١٩ صفراً ) وكلما ابتعدنا عن الكوكب قلّت المادة ، وتعدّدت الذرات ، وشغلت حجراً أكبر ، وبقل عددها بنسبة كبيرة ، فيبسط إلى ١٠٠٠ ذرة بين الأرض والقمر الفلكي ، وبقل إلى ١٠ ذرات فقط بين الشمس ، وأقرب النجوم منها « كالفاستورى »

ولذا قدر لإنسان الفضاء في المستقبل أن يظل معتمداً على غاز الأكسجين في تحويل طعامه إلى غذاء لجسمه ، فعليه أن يصنعه لا أن يستخلصه ، كما تفعل الأسماك حين تحصل عليه بنحاشيمها من ماء البحر ، وكما تحصل الأحياء البرية حين تحصل عليه من الهواء الذى يتألف من الأوزون والأكسجين وثنائى أكسيد الكربون والأرجون والهيليوم وغيرها .

#### ● من حيوان مائى إلى بحلية

والقجوة هنا واسعة ، والتشابه مختلف لأن إنسان المستقبل سوف ينتقل من عملية استخلاص ما هو موجود فعلاً إلى عملية صنعه وتكوينه . وهى عملية لم نعرفها بعد حتى في الدراسات العلمية والمعملية ، والإجراء ذري وليس بكيميائى . والبشرية الآن لاتزال في



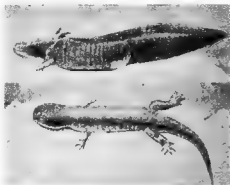
هكذا يركب رجل الفضاء في رحلة العودة إلى الأرض

وروسيا طبقات إشعاع تبدأ من ارتفاع ١٦٠٠ كيلو ( ١٠٠٠ ميل ) وتمتد إلى حلود المجال المغناطيسى للأرض على ارتفاع ١٩ ألف كيلو متر ( ١٢ ألف ميل ) . وهى حلقات غير ثابتة في قوة إشعاعها ، وتخضع لنشاط الشمس ، وتظهر البقع السوداء . ويقال إنها خطر شديد الفتك بالحياة ، ومن الجائز أن تقتل الإنسان أو تصيبه بالأمراض والالتهابات الخبيثة إذا بقى فيها فترة من الزمان بغير وقاية .

والأحاديث كثيرة عن المواد الواقية من الإشعاع ومنها طلاء السفينة بمادة تتفاعل مع المواد المشعة وتحمدها من خطرهما . ومنها عقاقير إذا تناولها الإنسان لا يتأثر بالمواد المشعة . ويبدو أن هذه المواد لم تصل بعد إلى مرحلة النجاح ، وبعضها يعمل لدقائق ثم يفقد قدرته . وهى في الغالب في مرحلة تجارب غير حاسمة .

ولعل عدم التأكد من نجاحها في وقاية الإنسان هو الذى دفع روسيا إلى إطلاق رجل فضائها في هذا الوقت ، وعلى هذا الارتفاع القريب من الأرض . ففى الستين الماضيتين كانت الشمس نشطة وانفجاراتها كثيرة ، أما الآن فبدأت مرحلة ركودها





تأثير المواد الكيميائية والهرمونات يظهر بأجل مبالغ في هذا المخلوق، السبب المعروف باسم «أكتروليل» تنشأه في المناطق الجافة بالمكسيك ولكنه هاجر إلى الماء وعاش فيه حيث أنه الظاهرة في الصورة العليا، فإن حقيقته هرمون الغدة الدرقية تحول إلى سحلية كما في الصورة السفلى

طفولتها حيال الدراسات اللرية . ولو استطاعت إجراء هذه العملية صناعياً لتمكنت من تحويل الهواء إلى ماس أو حديد أو أى العناصر الأخرى .

ولا نعرف أيضاً أى دور سوف تلعب الطبيعة لإحداث مثل هذا التطور الكبير ، ولكننا نعرف أن مادة أجسامنا قابلة للتلاؤم والانسجام مع البيئة حولها . وليس معنى هذا أن التلاؤم سيتم في قرن ، بل في آلاف القرون ، فالطبيعة كما عرفنا تعمل في ببطء شديد ، وتستغل المواد الكيميائية في أجسامنا لإحداث التحولات المنشودة .

ومن أمثلته العجيبة ما يشاهد في إحدى الزواحف التي تعيش في هضبة المكسيك الجافة ، واسمها «أكتروليل» ، إذ تبحث عن الماء حتى تمر عليه وتحول طبيعتها لتعيش فيه ، وإذا ما حقنها هرمون الغدة الدرقية تحولت إلى سحلية .

#### ● مواد كيميائية تغير أعضائنا .

والهرمونات كثيرة في أجسامنا حتى إن العلم لم يعرف كل أسرارها . وبفعل العوامل النفسية والانفعال تستطيع هذه المواد أن تصيبنا بعشرات الأمراض من الإحساس بالصداع ، إلى قرح المعدة إلى التهاب الجلد . وعندما درس الأطباء الأمراض الناشئة من الانفعالات كالقلق والغضب والحزن ، وجعلوها تولف نصف المرضى في المستشفيات ومبادئ الأطباء .

وبالمعمل النفسية وقوة الإرادة استطاع «جارجارين» أن يتغلب على المفاجآت التي صادفته في رحلته من حالة الضغط المائل الناشئ عن اندفاع الصاروخ في اتجاه مضاد لجذب الأرض ، ثم حالة انعدام الجاذبية حين يصير الجسم بغير وزن في أثناء دوراته حول الأرض .

إننا لا نعرف بالضبط العمليات الآلية لما نسميه بقوة الإرادة التي تجعل الفرد يقابل العقبة ويتغلب عليها ، وإن كنا نعرف أن حالة الغضب تدفع غدة ما فوق الكل إلى إفراز هرمون الأدرينالين ، فيعطى عضلاتنا قوة على مواجهة عدوئنا . وهو في هذه العملية يثير شكل الأوعية الدموية والقلب والعضلات والعيون وشعر الرأس وغيرها من علامات الغضب والاستعداد للقتال .

وبرغبنا نستطيع أن نشعر ونندم إذا استسلمنا للغضب ، وبقوة الإرادة وما ننسبه بالحلم نكبح جماحه ونوقف انصباب هذا الهرمون في دماغنا ، وزيادة غضبنا . وفي أجسامنا أيضاً تلك المواد الكيميائية التي تجعل سكان المناطق القطبية يقتنون طبقة شحم تقيهم شدة البرد ، والتي تجعل سكان المناطق الحارة يفرزون مزيداً من العرق لتخفيف القيقظ عن أجسامهم .

ولا ريب أنه لإحدى أدواتها ، فهي التي زودتنا به  
فصنع العلماء قمره « جاجارين » ليلقى - كالسمكة -  
أول نظرة على الفضاء ، وبالعقل أيضاً سنبعث سفن  
الفضاء وعطائه لبقاء مدة أطول في الفضاء . وهناك  
تواصل الطبيعة عملها في مساعدة الإنسان على تحقيق  
رغبته ، فمن عاداتها ألا تقدم المعونة إلا إذا سار  
الحى الخطوات الأولى .

وفي أجسامنا المواد والصفات التي استطاعت  
تحويل الأسماك إلى بشر في سلسلة التطور الطويلة .  
وهذه الخواص نفسها هي التي سوف نحولنا إلى  
إنسان المستقبل أو إنسان الفضاء . .

#### ● عقلنا يساعد الطبيعة

وإنسان اليوم لا ينتظر تدابير الطبيعة ، بل يستخدم  
عقله في مساعدتها لإداء مهمتها في عملية التطور ،



## لمحاتٌ عَنِ الفِئُونِ الإفريقيةِ

بقلم الدكتور محمد المعصم سيد

التي نشرها الاستعمار والقائمة على تمييز الجنس الأبيض وتفوقه ، وتجاهل الحضارة والفنون الإفريقية . ولقد آن الأوان لأن نغيّر النظرة الرومانتيكية التي كنا ننظر بها إلى إفريقيا في الماضي ، فلا نجعل بنا أن نهمل أو نهمل تراثها الفني والفكري ونحن نعيش في صميمها .

...

لقد هبط الاستعمار الأوروبي إلى القارة الإفريقية ليستزف ثرواتها ويحتكر إمكانياتها ، فكان أن صدر إلى الخارج ثروتها البشرية ، وثروتها الاقتصادية ، ولم ينس في عمرة هذا الطوفان أن يصدر الفنون الإفريقية الأصيلة في إطلاوات براءة . أراد أن ينسبها في أول الأمر إلى نفسه وإلى حضارته ، ولكن أصالة هذه الفنون أجبرته على التخلي عن نظراته الجشعة ، فظلت هذه الفنون محفظة بطابعها .

ومنذ الوقت الذي رجّت فيه الدول الأوروبية سياسة الاقتباس من الفنون الإفريقية أصبحت الفنون الأوروبية تعتمد اعتماداً كبيراً على الفنون الإفريقية ، واكتشف الأوروبيون كل يوم منها جانباً مضيئاً ، وجدوا فيه ما يجدد خاطرهم بما تحمله هذه الفنون من أفكار وخواطر بكر . كل هذا والإفريقيون أنفسهم يجهلون المجال الواسع الذي يرتاده الأوروبيون ، ولا يعلمون عنه شيئاً ، حتى شبههم البعض بالعين التي ترى ما دونها ولا ترى نفسها .

تاريخ العلاقات العربية الإفريقية تاريخ قديم ، عُرِف منذ عرفت حضارة الطرفين وتوثقت علاقتهما على مر الأيام والسنين . يقوّى من وشائجها روابط الزمالة والصداقة وتبادل المنفعة . قدّم العرب للإفريقيين حضارتهم وفنونهم ، ونقلوا عنهم خصائصهم الفنية ، وظل كلا الطرفين محضاً بخصائصه وطباعه الأصلية .

واليوم ، تمر على العالم العربي فترة مزدهرة يتطلع خلالها ليستردّ أمجاده ، ويبذل الجهد لخلق الشخصية العربية الفنية في كل مجال . وهو في هذه المرحلة الهامة يتطلع إلى إخوان له في إفريقيا ينشد زمالتهم ليعيد تاريخ الماضي ، فيأخذ عن الإفريقيين ويعطيهم ، ويمسح من أمر هذه الأواصر .

وفي إفريقية — كما ذكرنا — حضارة عربية منقولة ، أثرت بلا شك في حضارة هذه القارة ، وكانت في يوم ما منارة إلى تلك القارة العظيمة . فليكن إذن في التعرف على الفنون الإفريقية والتفكير الإفريقي بصورة أكاديمية وعلمية مجال جديد للدراسة والبحث .

وإن الذي يحدث في إفريقية اليوم من ثورة على الأوضاع التي خلّفها الاستعمار — سواء من النواحي السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية أو الفكرية — ويقتطع شاملة في كل جانب من حياتها ، ونهضتها في كل جزء من أجزائها ، كل هذا أمر يدعونا إليه الواجب لتتصرف على حقائق إفريقية الفكرية، ولتقضي على انحرافات

والسوى للنفوس التي أضناها الإرهاق من معاملة النخاسة وهم يقودون قطعان الرقيق في طريق المستقبل المظلم الذي ينتظرها خلف المحيطات والبحار الواسعة . من هذه المواقف كلها ، خرجت موسيقى الجاز لتعبر بصديق عن الأحاسيس والانفعالات المختلفة ، وحمل لواءها أبناء إفريقيا الذين قادمهم مصبرهم للعمل في العالم الجديد . . في أمريكا .

وفي الموطن الجديد . . في أمريكا ، ولدت موسيقى الجاز نفعاً صامتاً مبهراً دلى بوضوح على حيوية أبناء إفريقيا ، وتركت طابعاً هاماً يربط بين الوطن الأصلي والوطن الصورة .

لم يفهم المستعمر - برغم عبقريته وسعة أفقه - ما تجمله هذه الموسيقى من ترجمة للزغزغات المدفونة في نفوس الإفريقيين المسترقين نحو بلادهم التي أرغموا على الاعتراق عنها ، وإلا لنقص عليها حتى لا يرتبطوا بالأرض الجرداء الخضراء التي نشأوا فيها . .

وهكذا كُتِبَ لموسيقى الجاز البقاء حتى تظل معبرة عن القصة الدامية التي مثلها الاستعمار الأبيض على أشلاء الإنسانية المكدبة في إفريقية .

والحديث عن موسيقى الجاز يقودنا إلى مسميات موسيقية أخرى غزت المجال الفني في العالم . فكلنا يعرف الرومبا والسامبا والمانبو . لقد نقل الرجل الأبيض هذه الموسيقى بأصولها وأنغامها وسمياتها ، لأنه أدرك أن أي تحريف فيها ، سوف يفقدها معانيها وطابعها الأصلي .

فالرومبا تنسب إلى مدينة رومبيك في أقصى جنوب السودان صدرت من منبعها إلى الخارج لتصور ترجيع حلقات الفن المقدمة في ضوء القمر . حيث تلتف الجماعات في حلقات تختلط فيها أصداه الطبول الصاخبة بما تختلج به نفسية الإنسان الحر الطليق .

طافت الفنون الإفريقية المتعددة بمختلف دول العالم ، وتنتقلت عبر المحيطات والبحار ، أدخل على بعضها التجديد ، وتناول التحريف بعضها الآخر . ورغم ذلك كله ظلت محظوظة بطابعها ومقوماتها ، لا يستطيع أحد أن ينسبها لنفسه . ولهذا لا ندش حينما نجد الفنون الإفريقية بعد مئات السنين من الكبت والتحكم تعود لتقود العالم في عدة ميادين هامة من ميادين الفن الإنساني الرفيع ، وبخاصة الموسيقى والفن البلاستيكي . وإذا تناولنا الموسيقى ، نجد ألوانها الهجبة المتقولة من داخل القارة السوداء تغزو العالم . واستطاع القاعون عليها وهم من أصل إفريقي ، أن ينهضوا بها حتى لنهم أوشكوا أن يقضوا بها على الموسيقى الكلاسيكية التي نهاه الأوروبيون بها وكانت رمز تفاخرهم سنين طويلة ، واعتمدوا عليها كأساس هام من أسس الثقافة الإنسانية .

ومن أشهر هذه الألوان الموسيقية الإفريقية موسيقى الجاز والسامبا والرومبا والتانجو .

لقد نقل الأوروبيون والأمريكيون موسيقى الجاز بمشتقاتها العديدة من إفريقية وعن طريق مواطنين إفريقيين تعهدوا أمرها وتخصصوا فيها ، وكان هذا التطور الصاعد الذي طرأ عليها . ومع ذلك أجمع النقاد الفنيين على اعتبارها موسيقى إفريقية خالصة ؛ إفريقية الأصل ، أمريكية الصورة .

ولدت موسيقى الجاز لتؤدي وظيفة هامة في الحياة الاجتماعية الإفريقية - كانت للترويح عن النفس وتجديد الحيوية ، تحمل في طياتها صورا حية تعبر عما تكته الصدور الجياشة بالآلام والقلوب المكدبة على أيدي الجلادين ، عبرت عن معاني الحزن إلى أرض الوطن الإفريقي والأمل في فك قيود الاسترقاق والانطلاق إلى حياة الحرية ، والتوسل إلى الجناة كي يخففوا الوطء ، ويقللوا من البطش والتعذيب ، والعزاء

وقد أهد الفنان والأديب الإفريقي الدكتور عبي الدين صابر بحثاً عن الفن البلاستيكي الإفريقي وتأثيره على الفن البلاستيكي المعاصر في أوروبا، فقال إن المدرسة التجريدية التي يترعها الفنان الإسباني الأصيل الفرانسيسو جيكاسو صاحب حماة السلام، تستلهم النموذج الإفريقي في النحت والرسم في تحديد القيمة الجالية للعمل الفني. فالتجريدون قد تاروا على الأساليب الفنية، وكفروا بالتقاليد الكلاسيكية التكنيكية من حيث مراعاة النسب والأبعاد. ومن حيث استغلال الألوان ومن حيث الصديق الفوتوغرافي أو المادى . . الخ . وهم ينجون في منهجهم وفي إلتناهم طريقة تعميق القيم المطلقة الخالدة التي تكن في نفس الوسائل، كالخطوط والألوان تعميقاً تجريدياً رمزياً . . وهم بعد هذا لا يسكنون من الاعتراف بذلك الواشجة المتصقة التي تصلهم بالفتون الإفريقية . التي تعتبر بحق فتونا إنسانة وعظيمة .

وإذا كانت القيم الجالية والأساليب التعبيرية هي قيم نسية خاضعة لاختلاف الثقافات ، وتأثرة بالعوامل الزمنية والمحلية فلها لذلك لا يمكن أن تكون في أهمية المضامين والوظائف الخالدة للفتون . وإذا كان كثرون لم يهضموا جمال التعبير في الفتون الإفريقية التشكيلية . فليس ذلك لأن هناك قبحاً مطلقاً في المقاييس الجالية الإفريقية ، ولكن لأن الجال الإفريقي من نوع خاص . ظل بعيداً عن العواطف التي نشأت على تنوع أساليب أخرى ليس كلها بالتأكيد جمالا مطلقاً . . ومع هذا فإن الشيء الذي تلتقى عنده الفتون جميعاً ، هي الرسالة التي نهض بها فتون الشعوب جميعاً .

عل أن الفتون الإفريقية تمتاز بطابع هام . . فيما تمتاز به — ذلك هو الطابع الاجتماعي الوظيفي . فالفتن في المجتمعات الإفريقية هو أولاً : سبيل الإنسان إلى

وما يقال عن الروما ، يقال عن الساميا والمالميو ، وهي أسماء مناطق إفريقية صميعة تقع في وسط القارة بين جنوب السودان وأوغنده . وليس أدل على إنسانية هذه الموسيقى من أنها غزت كل الأذواق ، وتجاوبت معها قلوب كثيرة في شتى أنحاء العالم واستطاعت أن تنفذ إلى مختلف الأذواق والمشارب ، وأصبحت حلقة اتصال بين عديد من العواطف البشرية على اختلاف مستوياتها وتباين حضارتها . ونحن لا ندهش إذن حينما نجد الملايين من أبناء هذا العالم يطربون لهذه الألوان من الموسيقى . ويتشون من سماع أنغامها الخالدة وتكسبهم حرارة لذتها متعة دافئة .

إنها الموسيقى الإفريقية التي نرحم اليوم عن أدق وأجمل الإحصاسات البشرية المعاصرة .

وقد تبع انتقال الموسيقى الإفريقية إلى الخارج ، انتقال آلات موسيقية إفريقية صميعة معها . . فالهاوب والتاي والطبوسل بأنواعها — والسكس — أي الشخشيشة — كلها آلات إفريقية أصبحت اليوم عدداً في الفرق الموسيقية العالمية . . تعتمد عليها أحياناً كلياً وبخاصة في الإيقاع .

\*\*\*

ونأتي لجانب آخر من جوانب الفتون الإفريقية أثر على الحضارة العالمية تأثيراً مباشراً . . هذا اللون هو : الفتون البلاستيكية .

لم يمن بدراسة هذا اللون الجديد باهتمام المحققين ، إلا فئة قليلة برغم ما يلخر به التلك البلاستيكي الإفريقي من معان إنسانية . وما يحويه من فلسفة إفريقية إنسانية حرة بأن يوليه الباحثون والفنانون اهتمامهم ودراساتهم دراسة واقعية تستهدف كشف خصائصه واستنباط مكن قوته وآيات صدقه . . وبخاصة إن أوروبا أدركت سر قوته فتأثرت به تأثراً مباشراً .



أمومة من غينيا في المدينة

على أن النفس الإفريقية لا تنزع إلا إلى الخير ،  
وإلا إلى ما يمسك عليها أمنها، وذلك هو السر فيما يشيع في  
فنونها من الوداعة وحس العمل والإنسانية . وقد صور  
الدكتور صابر هذا المعنى عقب مشاهدته لأحدى  
اللوحات المعروضة في بلجيكا التي صورها فنان إفريقي  
مجهول منذ عشرة أعوام لأمٌ رجيحة تحمل رضيعها على  
ظهرها . غلّى جانب الحيوية الصارخة ، والقدرة على  
الملاحظة في الصلة بين الطفل وأمه . . فقد كانت هناك  
الثقافة في منتهى القوة التعبيرية ، هي ذلك الشبه الكامل  
الديناميكي بين الأم والطفل وبالنسبة نفسها والعمر  
فكان الطفل صورة للأم لو أنها كانت طفلة ، والطفل  
صورة للأم لو أنه أصبح أمًا .

• • •

الدين ولغته إليه ، والدين في إفريقية ، كما هو في كل  
المجتمعات البادية ، هو طريقة الحياة والنطاق الذي  
تدور فيه ، وليس المعنى التجريدي المطلق الذي ينحدر  
من عالم غيبي ، ولهذا فإن العمل الفني الإفريقي يكاد  
يكون عملاً جاعياً ، لأنه عمل اجتماعي ، وعمل وظيفي ،  
ودور الفنان وشخصيته الإبداعية تأتي في المرتبة الثانية ،  
فالغنى بالجلماعة وللجماعة .

فالفنان الإفريقي ليس فناناً حراً التصرف ،  
فالمجتمع يلزمه بأمور معينة لا يستطيع تجاهلها . والنموذج  
التقني نموذج متكرر نتيجة لهذا . فمثلاً المثال الإفريقي  
الذي يصنع قناعاً للرقص أو ينحت تمثالاً للآلهة الآباء ،  
مقيد أشد القيد بقيود دينية واجتماعية غليظة ، فعليه أن  
يختار الخشب أو المادة الطينية من شجر معين ، أو من  
تربة معينة ، ومن جزء معين منها ، وفي وقت معين ،  
ولا بد أن يستعمل آلة معينة ، ولا بد تبعاً لذلك ، أن يكون  
النموذج - مهما كان عدد الفنانين نموذجاً واحداً . .  
لأن قيمة العمل الفني ووظيفته تكمن في العمل نفسه  
وليس في الفنان .

وبقدر ما في هذا من قتل لشخصية الفنان الإبداعية ،  
فإن فيه إحياءاً للشخصية الجماعية الفنية . فالجماعات هي  
التي تصنع الفن إذن لخدمة أهداف جماعية ، وهذا  
دليل على أن الفن الإفريقي فنٌ وظيفيٌ من الطراز  
الأول .

هذه الوظيفة تقودنا إلى طابع آخر ، هو الإنسانية  
السلمية ، التي تميز الفنون الإفريقية . فهي تصعد من  
أسفل إلى أعلى . . من عالم الأبناء العابدة إلى عالم الآباء  
الآلهة المعبودة . فالغنى الإفريقي عبادة للآباء الآلهة .  
وقربان لهم وترضية لقداسهم أمام مظهر من مظاهر  
الطبيعية وفي مجال من مجالات النشاط الحيوي في الحقل  
أو في الصيد أو في غير ذلك .

تكشف تراث قارتنا الفن والفكرى .

وليكن لنا من التعرف القريب التاضج على  
الفنون الإفريقية والتفكير الإفريقى، مورد جديد من  
موارد دراستنا وأبحاثنا ، لتتلاقى الأفكار فى سبيل  
الحياة وأسباب التخلق والتجديد .

هذه لمحات عن الفن الإفريقى الأصيل فى بعض  
نواحيه .

وإن واجبتنا اليوم أن نتعرف على حقائق الفكر  
الإفريقى . . .

وأن تكون الفنون الإفريقية مجال دراسات عميقة



# ديك سقراط

## للكاتب الإسباني ليوبولدو آلاس

### ترجمة الأستاذ فوزي سمان

[ ولد ليوبولدو آلاس المشهور باسم كلارين عام ١٨٥٢ في رامورا بإسبانيا ولكنه أمضى معظم حياته في مدينة أوليفو حيث شغل كرسى الفلسفة بالجامعة . يعتبر من عبادة نقاد عصره وقصاصيه وكتابه . وقد نشرت هذه القصة ضمن مجموعة تحمل الاسم نفسه في برشلونة عام ١٩٠١ ، السنة نفسها التي توفي فيها ] .



سقراط

بعد أن أسبل كريتو عيني سيده وأخلق فـه ، ترك بقية التلاميذ المجتمعين حول جثمانه ثم غادر السجن وقد صمّم على أن ينفذ آخر وصايا سقراط التي ربما أعلنها له من قبيل المزاح ، ولكنه على أية حال قد عقد النية على تنفيذها . ومن يلوى فقد يكون سقراط جاداً فيما أوصى به .

وبينما كان سقراط يزفر آخر أنفاسه أشاح العباة التي كان يغطي بها جسده ليخفي عن تلاميذه ومريديه منظره المؤلم وهو يعاني سكرات الموت ، ثم تعلق بأختر كلماته :

— كريتو ! نحن مدينون للإله إسكيولايوس بديك ، فلا تنس أن ترد له هذا الدين .

لم يزد سقراط عن ذلك حرفاً ، وتلقّى كريتو هذه الكلمات واعتبرها تكليفاً مقدساً . إنه لا يريد لها تحليلاً أو مناقشة ليعرف ما إذا كان سقراط قد أطلقها فخره المزاح والسخرية أو لأنه قد صبر بها عن آخر وصاياها ورغباته . ألم يكن سقراط يحترم العبادة الشعبية والدين الرسمي دائماً بغض النظر عما كان يوجهه له كل من أنتيوس وميليتوس من اتهامات كاذبة ؟ الحق أن سقراط كان يعطى الأساطير طابعاً رمزياً فلسفياً .

سامياً ومثالياً ، وإن يكن كريتو لم يقبل تسميتها بأساطير بطبيعة الحال . ومع كل لغوه الشاعرى العلوى فثمة حقيقة لا يمكن إنكارها ، وهي أنه كان يحترم عقائد



الغبية التي لا يسبقها عقله ، فلا شيء يحول بينه وبين الاعتقاد في الخزعبلات الصيبانية . فما أن التقى كريتو بالدريك مصادفة حتى رأى فيه مشيئة الآلهة .

ومن الخجل أن الدريك لم يكن يشاركه هذا الرأي لأنه ما أن أبصره يطارده ، حتى أخذ يجري ويرفرف بجناحيه ويقف مقدماً الدليل على ما ألم به من ضيق شديد . ولم يلبث أن عرف مطارده ، فكثيراً ما شاهده في حديقة سيده محدثه طويلاً عن الحب والفصاحة والجمال وغير ذلك من موضوعات ، في حين كان الدريك يغرى مئات القراخ ويضلل بها في دقائق معملات ودون استعانة بمثل هذه الفلسفة المستفيضة .

ثم أخذ الدريك يفكر وهو يتأهب للطيران : « إذن لقد ساءت الأمور . وأقبل أولئك العقلاء الذين أزرعهم ليضعوا أيديهم على » ، عائلتين بذلك كل القوانين والنواميس الطبيعية التي كان يجب عليهم أن يعرفوها بها .

يا له من شيء رائع ! أبعد أن اعتقت نفسي من عبودية لا تطاق لدى جورجياس ، أفع هكذا سريعاً فريسة بين يدي هذا الشيطان التمس ، هذا المفكر الذي يتعاطى الأفكار السلفية الموروثة رغم أنه أقل ليناساً من سيدى السابق الثرثار ؟ ! .

لقد ظل الدريك يجري والفيلسوف في أعقابيه . وما أن أوشك على الإمساك به حتى أخذ يضرب بجناحيه ، يقفز تارة ويطيح أخرى ، مدفوعاً بقوة الخوف حتى استقر فوق رأس تمثال ، وأى تمثال — أئينا إلهة الحكمة .

صاح الفيلسوف وقد استبد به هياج مثل هياج قضاة محاكم التفتيش المتعصبين ، ومعذرة لهذا الخطأ التاريخي — : « يا لك من ديك وقح ! »

وبعد أن أخرس ضميره المحترم بسفاسة ، غلقت بورج زائف ، حين قال له : « لا تقتل هذا الدريك » ، عاد يفكر : « إنك الآن تستحق القتل بعد أن دنست

الإغريق التي تمثل فيها دينهم الإيجابي ، دين الدولة . وتشهد بذلك حادثة وقعت خلال آخر حديث ألقاه .

( لاحظ كريتو أنه حل الرغم من طريقة الحوار التي كان سقراط يتبعها ، فإنه كان ينسج محدث في بعض الأوقات ويسطرده في الكلام بالمسلوب منق ) .

ولقد رسم سقراط عجائب العالم الآخر في دقة متناهية ، أكثر ملاءمة مع الفكر التقليدي منها مع المنطق الجفاف والفلسفة الصارمة .

لم يقل سقراط أنه لم يؤمن بكل هذه العجائب ، على الرغم من أنه لم يؤكد حقيقة ما وصفه باقتناع المتعصب العنيد . وهذا أمر لا يدعو إلى الدهشة لو عرفنا أنه ، حتى فيما يتعلق بأرائه الخاصة التي بسطها دفاعاً عن خلود الروح ، قد اعترف — بعد أن نحى الوهم والتكر جانياً — بأن الأشياء ربما لم تكن على الصورة التي تخيلها على أساس من الاحتمال الميتافيزيقي .

وباختصار ، لم يدُرْ بخلد كريتو أنه بسلك سيلاً يخالف منهج أو أسلوب سيده وأستاذه ببعته عن الدريك ، ليقدمه في أقرب وقت لإسكيلولايوس ، إله الطب .

ويبدو أن العناية قد شامت أن تتدخل في هذا الموضوع ، فما أن ابتعد كريتو مائة خطوة عن السجن حيث رقد سقراط حتى أبصر بدريك بديع الشكل ، له ريش فاخر ، يعتل سور فناء صغير ، كان قد قفز إليه من حديقة مجاورة ، ثم همّ بالزول إلى الشارع . وكان الدريك غطو مسرعاً كما لو كان يريد أن يخلص نفسه من أسر تعس .

وتكهّن كريتو بنيت الطائر ، فانتظره حتى يشب إلى الأرض ليمتكن من مطارده والإمساك به . ولم يلبث أن خامرته اعتقاد بأنه هو الدريك الذي يريده إسكيلولايوس ذبيحة ولا ديك سواء . والواقع أن الإنسان إذا ما تسرع في اعتناق الأفكار والمشاعر



موت سقراط

قال الفيلسوف : اسكت أيها الديك ! طبيعتك تأمرك بالصمت .

قال الديك : أنا أنكلم . أما أنت فتفتق « بفكرة » اصغ لي . أتحدث إليك لا بلذن من فكرة النوع الذي أنتهى إليه وإنما بقدرة ذاتية بوصفى فرداً . ومن كثرة ما سمعت عن موضوع « البلاغة » التي هي فن الكلام من أجل الكلام ، فقد تعلمت شيئاً من هذه الصناعة .

قال الفيلسوف :

وهل ترددين سيدك بالحرب هكذا من جانبك ، تاركاً بيته ، ناكراً سلطانه ؟

قال الديك :

جورجياس -- سيدي -- رجل غيول مثلك ، ولو أنه أكثر لطفاً . ما من أحد يقدر على العيش معه . إنه يحاول أن يثبت كل شيء ، وهذا أمر متعب ومُرّيك معاً . إن كل من يحاول التبدل على كل شيء في الحياة يتركها غواء . ومعنى أن تعرف علة كل شيء هو أن تحصل على هيكل الأشياء دون أن تحصل

المقدمات وانتهكت الحرمات . سوف تكون لي ، ولابد من التضحية بك .

عندذاك هبّ الفيلسوف واقفاً على أطراف أصابعه ، ومطاً نفسه عالياً قدر المستطاع ، وأخذ يقفز على نحو مضحك يستلفت الأنظار ، لكن بشير جلوى .

وقال الديك بلغة يونانية فصيحة جديرة بجورجياس :

— يا صاحب الفلسفة العقلية المصنوعة ادعك من هذه الثقيلة ، فليس في وسعك أن تطير كما يطير كتكوت . ماذا ! هل أصابك الدهشة إذ تراني أنكلم ؟ ألا فلتعلم إنني ديك من حظيرة جورجياس . أنا أعرفك ، فأنت إلا ظل رجل ميت . هذا مصير التلاميذ الذين يبقون على قيد الحياة بعد وفاة أساتذتهم . إنهم يعيشون من بعدهم كالأشباح ليخفوا الأطفال . ويمضى الحلم الملهم غلغلاً وراءه تلازمة مهضى الجناح ، يعملون من المثل الأعلى الشرعى للخيال الرفيع مجرد سبب آخر للخوف ، وكرب يضيفونه إلى ما لدى العالم من كرب ، وغرابة متحجرة .

معنى أكثر كرمًا ، معنى لا يؤدى إلى سفك  
الدماء ، أو يدفع إلى الوقوع في الزلل . أما أن تسفك  
دمى رغبة في تهديّة وإرضاء إله لم يؤمن به سقراط ،  
فبعثه أنك تهين سقراط والآلهة الحقيقيين ، ففها عن  
أنك تنزل في ضرراً لحد له مع أنى مرح ويرى ،  
وليس لدى جنسنا فكرة عن الأحرار والمصابب التي  
قد تكمن في الموت ؛ ذلك السر الغامض .

قال الفيلسوف :

ولكن سقراط وزريوس يريدانك ضحية .

قال الديك : لاحظ أن سقراط كان يتكلم منكهاً  
بسخرية العبرى الصافية ، الخالية من العنف والمراوة .  
كان قلبه الكبير قادراً على أن يلهو دون خطر بلعبة  
سامية ، قوامها الترفيق بين العقل والأوهام الشائعة .  
ولشمل أن سقراط وكل الذين أبدعوا حياة روحية  
جديدة إنما يتكلمون بالرموز . إنهم أهل بلاغة ، فإذا  
ما أمطوا اللثام عن الحجب وعرفوا ما تخفيه من  
أسرار واحترموا مكنونها الذى لا يوصف ، منحوها  
قالاً شريفاً . إن الحب المقدس للمطلق يلجأ إلى هذا  
الأسلوب في مخاطبته الروح . انظر إليهم وهم ينزلون  
عن هذه الرياضة الممجدة ليعلموا العالم كيف تكون  
دروسهم صابرة موجزة ، وكيف تحلوا أحكامهم  
ونواميسهم الأخلاقية من الهزاج العقيم الذى لا نفع فيه .

قال الفيلسوف :

اسك لساتك عن الكلام يا ديك جورجياس  
ومت .

قال الديك :

يا لك من تلميذ غير جدير بالانتساب لأستاذه !  
اذهب ولتُذ بالصمت . فلنصمت إلى الأبد . كلكم  
سواء يا معشر تلامذة الباقرة : شهود صمّ وعميان  
لا تتركون صوت الضمير العلوى . ومن خلال أوهامه  
وأوهامك تظن أنك قادر على تخليد جوهر روحه حيناً

على مادتها . إن تنزيل الحياة إلى مرتبة المعادلات الجبرية  
معناه تركها بدون رأس وبلا قدم . فلتذهب في  
طريقك ، فأنا قادر على ترديد هذا النوع من الكلام  
سبعين يوماً وسبعين ليلة . وأذكر أنى ديك جورجياس  
السفطاني .

قال الفيلسوف :

ما دمت ديكاً فسفطانيّاً ، وحيث إنك  
انتهكت المقدسات ، ولأن هذه إرادة زيوس ؛ فلا بد  
لك من الموت . هيا سلم نفسك !

قال الديك :

لن أسلم ولو قُطعت رأسك . لم يولد ،  
بعد الفيلسوف العقل الذى يستطيع أن يمد يده نحوى .  
لكن علام كل هذا ؟

ما هذه القسوة ؟ لم تلاحقنى هكذا ؟

قال الفيلسوف :

لأن سقراط قال لى وهو يحتضر أن أضحى بديك  
إسكيولايوس ذبيحة شكر ، لأن إسكيولايوس  
قد منحه الصحة الحقيقية حين خلّصه من علل الحياة  
بالموت .

قال الديك :

هل قال سقراط كل هذا ؟

قال الفيلسوف :

لا . بل قال إننا مدينون لإسكيولايوس  
بديك .

قال الديك :

ثم تخيلت أنت الباقي .

قال الفيلسوف :

إذن ماذا يمكن أن يكون لهذا الكلام من معنى ؟  
آخراً ؟

قال الديك :

دم ذبابة ، فما بالك بدم ديك — فجرد مسابقة العامة .  
قال الفيلسوف :

تعال الآن ! سألزم ما قاله سقراط .

وبحث كريتو عن حجر سدّده إلى رأس الديك  
ثم رماه به ، فقال الدم من عرفه .

سقط ديك جورجياس مغشياً عليه وهو يصيح :

ليتمّ القضاء ، ولكن لإرادة المحايين !

ومن فوق جبين أثينا لإلهة الحكمة سالت دماء  
الديك .

تضمخ تعاليمه بالعقائد المخدرة وبالقوانين . لكي يكون  
لك معبود ، لا بد لك من أن تحيل جسده إلى مومياء .  
إنكم تنسبون في تحجر الفكرة ، وتستخدمون الرأي  
السديد سلاحاً لسفك الدماء . أنت رمز الإنسانية  
الحزينة المنقسمة على ذاتها . وما أنت تريد أن تستنيط  
من الكلمات الأخيرة التي نطق بها حكيم وقديس حكماً  
تستريح به دم ديك . لو أن سقراط ولد ليؤيد خرافات  
شعبه ، لما قبل أن يموت من أجل القضية التي مات من  
أجلها ، ولما أصبح قديس الفلاسفة . لا لم يكن سقراط  
يومن بإسكولاپوس ، ولا كان في مقدوره أن يسفك

ARCHIVE



## كسيلة

عربية مسلمة يقدسها المسيحيون الإسبان  
بقام الدكتور الطاهر أحمد مكي

- ١ -

هذه القصة تاريخ لا صلة له بالتاريخ !

لم تدون في كتاب ، ولم تكتب في مدونة ، وإنما انقلت مكانها من فواكر العامة ، تنقص وتزوى ، ويتناقلها الناس شفاهاً جيلاً بعد جيل . فلم يكن عجباً ألا يشير إليها مؤرخ واحد عاصر أحداثها ، إسباني أو عربي ، وليس بغريب أيضاً أن تُعرف القصة في كل إسبانيا : قراها ومدنها ، يتحاكونها في ليالي الشتاء القارسة حول هيج المدافئ ، ويسمرون بها في أمسيات الصيف الرطبة على شواطئ الجداول . ويتخذ منها عبّار الجبال وقطّاع المفاوز تسلية ولهواة ، ذلك أن الجماهير لا تطلب رأى الناقد عند ما تحكى ، ولا تسأل التاريخ المكتوب عند ما تسترجع ماضيها ، ولذا فقد فتحت قلبها للقصة لكي تتخذ منه ملاذاً ، يحميها من قساوة النقد ، ومرارة التكذيب .

ليس ثمة شك في أن للقصة أصلاً ، ولكن المؤكد أيضاً أن العقل الجماعي عمل فيها خلقه ، فطورها وتماها ، وعكس في أحداثها رغائب مجتمعه التي يريد أن يعبر عنها ، وحملها مثله العليا التي يطمح أن يراها واقعاً يعيش على الأرض ، ثم قدر لها أن تتخذ مكانها من القرى وبين عامة الناس ، وأن تصبح نبأً ثراً لكثير من الكتّاب ، فاغترفوا منها أحداثاً ، وصنعوا من واقعها قصصاً ، وسار بها كلٌّ كما يحب ، وأضفى

عليها الجو الذي يريد ، وأضاف إليها من تاريخ عصرها ، وألبسها ما يريد أن يقول عن وقائع عصره ، أو ما يحب الناس في عصره أن يقال .

ولم يقف بها الأمر عند إسبانيا وحدها ، وإنما أخذت طريقها إلى لغات أخرى ، تُرجمت إلى الفرنسية ونشرت في بلجيكا ، وإلى الإنجليزية وطُبعت في نيويورك ، وإلى البرتغالية ونشرت في البرازيل ، بل حمل المهاجرون الإسبان اسمها معهم إلى أمريكا اللاتينية . ثيمناً بتركها ، ثم أطلقوه على واحدة من مدن الأرجنتين الصغيرة . وظلت لغتنا العربية وحدها ، محرومة من قصة كل أبطالها عرب .

إذا كانت وجهتنا في معرفة الحضارة الأندلسية قد انجذبت إلى نشر المخطوطات ، وتحقيق النصوص ، وترجمة ما كتب في اللغة الأندلسية الثانية ، أغنى الإسبانية ، فقد أغفلت حتى الآن التاريخ الحي غير المكتوب ، تاريخ علينا أن نلتقطه من أفواه العامة ، وأن نصيده من عقول العجائز ، إنه التاريخ الذي يعكس حالة نفسية ولا يصور أحداثاً ، ويعطى رأياً ولا يقرر حقيقة . وعلينا أن نتدبر أمر ذلك ، قبل أن يزحف على هذه المصادر تيار المدنية الكاسح ، ممثلاً في المذياع الناطق والمرئي ، وفي الصحيفة والخيالة ، وما وراء ذلك كله مما يحل أذهان الناشئة ، ولا يفسح المجال لمعجز كفى تنتحي ركناً هادئاً ، تسند على

القديسة لها مقراً ، بتأليف كتاب حولها أسماه « حياة وموت ومعجزات القديسة كسيلة »

La vida, muerte y milagros de Santa Casilda.

ولسوء الحظ فإن هذا الكتاب الذى يشار إليه فى دوائر المعاجم ، وفى المؤلفات المعاصرة ، مفقود تماماً ، وبعيداً حاولت أن أجده لثراً فى المكتبة الوطنية فى مدريد ، وهى زائرة بالعديد من المؤلفات فى شتى اللغات ، أو فى مكتبة الجمعية التاريخية ، ولديها كثير من الذخائر التاريخية المطبوعة والمخطوطة ، من بينها عدد كبير باللغة العربية ، أو فى مكتبة بلدية برغش ، وكان الرد واحداً ، هو أنه لا يعرف من هذا الكتاب إلا اسمه . وأولئك الذين أوردوا اسم المؤلف ذكروه مقتضباً وهو Velandia ، بلا لقب ولا أب ولا معلم ولا بيئات ، مما يدل على أنهم جميعاً تناقلوا الخبر عن واحد دون أن يقع بين أيديهم نفس الكتاب .

أما التلويح الثانى للقصة فقد وقع بعد ذلك بسبعة وثلاثين عاماً . أبى فى عام ١٦٤٢ ، عندما قام رجل من طليطلة اسمه Repetidor Hidalgo بنظم قصيدة شعرية فى مدح كسيلة ، صوّنها بقصيدة بطولية قشتالية ، من حياة بيوت وانتقال الطراء المهيبة ، « القديسة كسيلة ، ملكة طليطلة الإمبراطورية »

Poema heroico, castellano, de la vida, muerte y translación de la gloriosa virgen Santa Casilda, Reyna de Imperial Toledo.

وهو شعر ركيك وجاف وناضب انخياط ، والقصيدة كلها لا تتجاوز بضعة صفحات من القطع الصغير ، ولا يكاد أحد من مؤرخى الأدب يعرض للمؤلف أو لقصيدته ، وإنما تأتى أهميته فى أنه قبل أن يعمل خياله ليصنع من المادة قصة شعرية ، صدر لنا كتابه بمجمل تاريخي لها ، متزج على التأكيد من أفواه العامة ، فالقصة كما قلنا ، وإن كانت من الأدب الشعبي النائع ، إلا أنها لم تكن قد دخلت بعد تاريخ الأدب المسطور أو المطبوع ، إلا فى ذلك

ركبتها الواهية طفلاً ناضراً ، تهدده وتقطع له من ماضيه وتاريخها حكايات وحكايات ، الكذب فيها أكثر من الصدق ، والخيال فيها أوضح من الواقع ، ولكنها فى كل أطوارها تقدم لنا صورة اجتماعية زاهية ، قليل من مؤرخى المصور الوسطى من غنى بها ، أو حاول أن يفيد منها شيئاً .

قرأت كل ما كتب عن « كسيلة » قصة أو رواية أو تحقيقاً ، ولكن شيئاً من ذلك كله لم يشف لي غليلاً ولم يرض لي فضولاً . لقد رأيتهم يسطون على خيال الجماعة فى تلقائيتها وسذاجته وشفافيته ، فيصنعون منه آخر ثقيلاً مصطنعاً ، ومن ثم أخذت وجهتى إليها فى أقدم المصادر ، التى صيغتها كما كان يتداولها الناس ، ثم انجذبت إلى العامة فى القرى ، وهناك حول مقام القديسة العربية ، سمعت لها أكثر من معجزة ، ورأيت تاريخها فى أكثر من لون ، ومع ذلك ، فقد أثرت أن أبداً القصة من أولها . فعدت إليها فى المطبوعات القديمة التى ترجع إلى فجر القرن السابع عشر ، والذنب إذ ذاك قريبة إلى العصر الذى وقعت فيه أحداث القصة ، فى التفكير ، وفى نمط الحياة ، لم أعتمد على رواية معينة ، ولم أترجم نصاً محدداً ، وإنما قارنت بين النصوص المختلفة وبين ما سمعت شفاهاً ، وأقمت من ذلك كله ، بناء القصة كما سأروىها فيما بعد .

أما المراجع العربية فقد التزمت لإزالة القصة صمتاً عيقاً ، فلم نشر إليها من قريب أو بعيد ، ولم تعرض لأسرة المأمون بن ذى النون ، ولم نتحدثنا عما كان له من بنين وبنات ، صمت سيظل استغهماً بلا جواب ، ربما إلى زمن طويل .

- ٢ -

أول تلويح كتابي للقصة تم فى مطلع القرن السابع عشر ، أو على وجه الدقة عام ١٦٠٥ عندما قام رجل من برغش Burgos ، عاصمة المقاطعة التى اتخذتها

وخوارق قامت بها القديسة العربية ، أشياء كثيرة أقرب إلى المستحيل منها إلى الممكن المعقول ، ولكنها تميزت بإشارات صريحة إلى أن حديث هذه القديسة كان مدفوناً في سجلات كنائس : طليطلة ، وبلد الوليد ، وإلثيا ، وليون ، التي ألفها البابا . ومن إirاده لأحداث القصة ، نقلا عن الوثائق الباقية بعد الإلغاء ، يفهم منه أنها اعتمدت في تسجيل الوقائع على ما يقول الناس ، وليس بين مصادرها واحد تاريخي يعتمد عليه ، فروايات الوثائق الكنسية على كثرتها ، وعلى الرغم من الحياة الاجتماعية والسياسية المختلطة التي كان يعيشها الإسبان المسلمون والإسبان المسيحيون في القرن الحادى عشر ، تبدو عاجزة تماماً عن إيراد الأسماء العربية لأبطال الحوادث بطريقة صحيحة أو قريبة الصحة ، « فلو التون » لقب الأسرة الحاكمة أصبح Canon ، والمأمون لقب والد الفتاة أصبح Aldemon أو Nomine ، ثم لا يلبث مرثى الكنيسة أن يعتذر عن نفسه لنفسه قائلاً : « يجب ألا نقسمة أسماء الملوك العرب في طليطلة ، لأنها مجهولة لنا تماماً »

وبما كان الشيء الوحيد الهام الذى أضافته هذه الروايات ، أنها ساعدتنا في رد اسم الفتاة إلى أصله العربي ، ذلك أن العامة هنا ، ومقامها في برغش ، والمؤلفات الحديثة التي كتبت عنها ، كلها تقرضها تحت اسم كسيلدا Castilda ، وهو اسمٌ قَلِبْتُ كل عوامل التحريف التي يمكن أن تدخل عليه لأردّه إلى أصله العربي فلم أحظ بباطل ، ذلك أننى - وأنا أحاول دراسة الاسم - وضعت أمام ناظرى القوانين الصوتية ، من طغيان حرف على آخر ، أو تطوره إلى قريب له في الفرج مشابه له في النطق ، ولم أفترض أن في الكلمة حرفاً زائداً ، فإلى زيادة حالة شاذة ، لا يحكم بها إلا في مقام الوثائق الداعمة لهذا الافتراض ، ولكن صاحب إسبانيا المقدسة كصفانا مؤنة هذا العناء ،

المؤلف الضائع ، وأحسب أن الكاتب الإسباني لم يقرأ ولم يعرف عنه شيئاً ، وإلا لأشار إليه ، أو على الأقل كان حديثه عن « كسيلدا » أكثر تفصيلاً ، ذلك أن الموجز التاريخي الذى أوردده الشاعر الطليطلى قصير جداً ، لا يكاد يتجاوز الصفحة والنصف من القطع الصغير ، وإن يكن على أى حال قد أورد لنا الخطوط الرئيسية لأحداث القصة ، كما سمعها هو ، وكما كان يتحاكما في عصره الناس .

وبالرغم من ذلك كله ، فإن وثائق الكنائس هنا نضم عنها أخباراً وافرة ، وهى أخبار كتيبت في اللاتينية الدنيا ، مما يجعل قراءتها وفقاً على المتخصصين ، فضلاً عن أن دور المحفوظات الكنسية لا تفتح أبوابها للعجائير في عصرنا هذا بله العصور الوسطى ، على أنها من جهة أخرى كانت مصدراً غنياً لكاتب جاء في مطلع القرن الثامن عشر وكتب تاريخ إسبانيا المقدس . أو كما أسماه هو إسبانيا المقدسة España Sagrada . وليس ثمة شك في أن كثيراً من الوثائق التي رجع إليها ضاع بعضها بفعل الزمن أو الجهل . أو غيابه المشرف عليها ، وبعضها أصدر البابا نفسه أمراً بإعدامه كما يشير إلى ذلك المؤلف . هذا الكتاب لا يعنى بالتاريخ بعامه ، وإنما يشير إلى الأحداث الدينية فحسب . ويقسم إسبانيا طبقاً للمطراتيات القائمة فيها ، ثم يبدأ في ذكر قديسي وقديسات كل واحدة منها ، وقد عرض للقديسة العربية في موضعين ، وهو يتحدث عن الذين ينتمون إلى مطرانية طليطلة ، وكان حديثه عنها في هذا القسم قصيراً مقتضباً . ثم عرض لها بين قديسات برغش حيث قضت بقية حياتها ، وحيث لها مقام يزار ويحج إليه الناس !

كان حديثه عنها في هذا القسم طويلاً ضم صفحات وصفحات ، ولكن مادته لا تصيف إلى معلوماتنا جديداً أكثر مما نعرفه من أفواه الناس ، فغالبه معجزات

المواصلات بين كل مقاطعة وأخرى ، فكانت إسبانيا أشبه بنول عديدة تديرها حكومة مركزية ، وهو أمر لا يزال ملحوظاً حتى الآن ، على الرغم من القطر والطيران وعابرات الفضاء !

كانت قصة كسيلة من بين المصادر الغنية التي استلهمها كتاب ذلك العصر ، فعرضتها كاتبة إسبانية مقلدة ، في قصة شيقة ، ذات أسلوب ممتاز دافق بالحياة هي : دولورس غومز دي قادس Dolores Gómez de Cadiz . وقد نشرت قصتها للمرة الأولى في مدريد عام ١٨٦١ ، وقد صورت خلالها واقع الأندلس خلال القرن الحادى عشر تصويراً آخذاً ، إلا أن مصادرها ، إذا كانت عن الجانب الإسباني دقيقة وصحيحة ، فقد كانت على جهل تام بالتاريخ العربى للأندلس ، حتى إنها لا تفرق بين طارق وطرفة ، وتجعل الثانى هو الذى دخل طليطلة فاتحاً ، حيث وجد بها مائدة سليمان ، فقمها إلى قصر الملك في مراكش ، وألحق هو أن طرفة بعد الحملة الاستطلاعية التى قام بها ، لا تلقاه في أحداث الأندلس مرة أخرى ، وأيضاً فلم تكن حتى ذلك التاريخ قد أنشئت مدينة مراكش وبالتالي فلم يكن بها ملك ، ولم ترسل إليه المائدة ، وإنما حملت فيما حمل من ثروات وغنائم أخرى إلى الخليفة في دمشق ، كما تفرد كتب التاريخ العربى الخالص ، أو العربى المترجم إلى الإسبانية أو الإسباني الأصيل ، ولو قد تحاشت المؤلفات مثل هذه الأخطاء ، لاستكملت قصتها كل عناصر الخلود .

بعد ذلك بعام واحد ، أى في سنة ١٨٦٢ ، عاود نشرها في مجموعة من الأقاصيص القصيرة ، أحد كبار كتاب ذلك النوع من القصص هو « أنطونيو تروبا » Antonio Truaba ، وكان قد تخصص في اصطلياد الحكايات من أفواه العامة ، فعرضها من جديد في بساطة وسهولة في كتابه « حكايات شعبية » Cuentos .

فأورد لنا إشارة بسيطة ذكر فيها صراحة أن اسم القديسة كسيلة ورد في وثائق الكنيسة إلى ألغيت ، والله وحده يعلم ماذا كانت تضم أكثر من ذلك ، في رسم « كسيلة » وهو الاسم العربى الصحيح ، ومعه لا يحتاج إلى بحث ولا تخاف التباس ، فالأميرة العربية تنحدر من أسرة بربرية ، ومنعرف فيها بعد أنها كانت أثرة لدى أبها المأمون ، فلم يكن مستبعداً ولا من غير المألوف ، أن يعطيا اسماً تعرف به أعز قبائل البربر في الشمال الإفريقى وأقوامها جاعاً ، وحمله أول نائل منها وأعنفه ، في أيام الإسلام الأولى ، وطليلة الحضارة العربية تسلك طريقها بجهد عسرة ، إلى أن تفهم البربر المقيمون خصائص العرب الوافدين ، فكان التمازج والوحدة ، وكان التعاون على دفع هذه الحضارة إلى ما وراء المضييق .

### — ٣ —

خلال القرن التاسع عشر تمت حركة هوية في إسبانيا ، هدفها تصوير عادات المجتمع في أدب ، وتسجيل خلائق العامة في قصص ، وتحويل واقع الحياة النابض إلى كلمات وسطور ، وكانت إسبانيا خلال ذلك القرن ، غلاء من القوة المادية والعسكرية ، تلتفها سبب كثيفة من القوضى السياسية والانحلال ، فلم يبق لهم من السلوان غير التاريخ ، يسترجعون أحداثه وأجسادهم ، ويسيطون وقائعهم وانتصاراتهم ، لكي يتنروا أمام بنينهم شعاعاً من الأمل المضى ، ولكنها من ناحية أخرى ، كانت طافحة بفيض من الشنون الشعبية ، كانت قد تلاشت في بلاد أخرى كثيرة ، وكانت تلك الشنون تتخذ لها لونا مغايراً في كل مقاطعة بحكم موقعها الجغرافى ، على البحر أو بعيداً منه ، على قمة جبل أو في سمح الوادى ، حيث المطر لا ينقطع ، أو حيث الشمس بشرقة حادة طول النهار ، وقد ساعد على تأصل ذلك كله وبقائه ، صعوبة



من ملوك الشمال ، يدفعون لهم الجزية أحياناً ، ويتلقون منهم المدد أحياناً أخرى ، يقاثلون به أشقاهم في الوطن والدنم والجنس ، وكانت أذكى سياسة اتبناها ملوك الشمال الإسبانى المسيحيون لتخظيم الدولة العربية ، هى أن يضربوا العرب بعضهم ببعض ، إذ تصالحوا حركوا بينهم روح الفتنة ، وإذا قاتلوا أذكوا بينهم نار الحقد ، وإذا ضعف منهم واحد أجهزوا عليه واستولوا على ملكه .

كانت هذه الدويلات كثيرة ، وقائمة في كل ركن من الأندلس ، في قرطبة وإشبيلية وغرناطة وطليطلة ومالقة ومرسية ودانية وشاطبة وبطليوس وغيرها ، وبين هذا السيل من الدول كانت طليطلة أوسعها في الرقعة ، وأنبها في التاريخ ، وأقواها إذا قيست الدول بعداد السكان وأعداد الجنود ، وأهمية موقعها الجبرى .

كانت طليطلة من نصيب بنى ذى النون ، قيادة من هوارية وكان أقوى ملوكها الأمير يحيى بن إسماعيل ، وقد حكم بين عامى ١٠٤٣ و ١٠٧٥ ، متخذاً لنفسه لقب المأمون ، على عادة الصغار من ملوك ذلك الزمان ، وقد اتسعت مملكة طليطلة في عهده حتى وصلت إلى حدود بلنسية ، وأضحت من أعظم دول الطوائف الإسبانية رقعة وموارد ، ولكن المأمون جرياً على سنن رفاقه ، كان على أشد النزاع مع ابن هود صاحب سرسطة ، وابن عبّاد أمير إشبيلية ، وقد ارتضى لنفسه ولخلفه أن يستعين عليهما بألدّ عدو لهم جميعاً في الشمال ، ففقد أواصر الود مع قرنانلو الأول ملك قشتاله ، وأقر بسيادته ، بل تعهد بأن يدفع له الجزية ، وقد ساعده فعلاً ضد رفيقيه في المنبت والوطن والدين ، ولكنه فعل ذلك ريثما يضعفون جميعاً . ومن ثم فلم يكد يستشعر ضعف المأمون ، حتى بدا هو نفسه يفر على طليطلة ويفيق عليها الحصار ،

populares استجمع فيها عناصر الأقصوصة دون أن يجمع به الخيال أو يخرج بها عما يحكيه عامة الناس .

وأخيراً فإن كاتبة معاصرة ، تخصصت فيها وتعرفت عليه بين الأدباء الإسبان « بديب المادات » هى « كونتشا إسبينا » Concha Espina أدبية ذات شهرة عالمية ، وعديد من روايتها وقصصها مترجم إلى أكثر من لغة ، أرادت ، وقد تقدمت بها السن ، أن تحم حياتها الأدبية بقصة عن « القديسة كسيلة نشرت طبعها الأولى في مدريد عام ١٩٤٠ » ، وإذا كان أسلوبها أقل بهجة ورونقاً من زميلتها الأولى ، إلا أنها كانت أوسع منها ثقافة ، فجاء رسمها للأحداث المنترعة من التاريخ صحيحاً وديقاً .

ذلك تطور الأقصوصة وتلك أحداثها في عالم الإسبانية ، فلنحاول نحن من جانبنا أن نطلى لها جوراً تاريخياً مبسطاً ، يعين على تفهّم مغزاها وأحداثها .

#### — ٤ —

لم يكد المنصور العظيم يلفظ أنفاسه بعيداً عن العاصمة قرطبة ، عام ١٠٠٢ في مدينة سالم في الشمال الشرق لإسبانيا ، عائداً من إحدى حملاته الحربية ، حتى بدا الصرح العظيم الذى أقامه : دولة متحدة قوية ، يتعرض لحزات عنيفة ، لم يكن بد من أن تؤدى إلى نتائجها ، فأنهار صرح الخلافة وانتثر عقدها ، وتمزقت الدولة العربية في الأندلس إرباً ، توزعها المطامع ، وتقسّمها القنن ، فقام في كل ركن منها أمير ، ونشأت في كل كورة منها دولة ، وكانت في مجموعها أمة عظيمة ودول ضعيفة ، وقد ورثت هذه الدويلات مجداً من الثقافة والقوة ، أخفت تبوه في سرف وحمق ، وكان ملوكها ، وما أكثرهم ، وأنفهم ، نشوى من الرّف والبدخ والرّاء ، يتقاتلون فيها بينهم ويتصارعون على الحقر من جاء الحياة ، ويستيتون على تخطيم بعضهم بعضاً بأعدائهم

لقد حاصر طليطلة حصاراً عنيفاً ، كان يهجم على مزارعها فيحرقها ، ويترصد برجالها فيقتلهم ، ويتصيد حيواناتهم فيستولى عليها ، ولم تقاوم المدينة طويلاً ، فثار سكانها ، وما أكثر ما كانت تثور طليطلة ! ولم يكن أمام أميرها القادر ، وكان ضعيفاً عاجزاً ، ما يفكر فيه غير الاستسلام .  
وقد كان ! . . .

وسقطت طليطلة عام ١٠٨٥ بلا طلقة واحدة ، ومع أنها لم تكن أول مدينة إسبانية عربية تسقط في يد المسيحيين من ملوك الشمال ، ولم يكن سقوطها نتيجة انتصار حربي ، أو عقب معركة هزم فيها العرب ، إلا أنه أحدث دويّاً هائلاً داخل إسبانيا وعبر حدودها ، وأحدث موجة من التشاؤم القانط الحزين ، يعبر عنها ابن الفسّال الشاعر في أبيات قليلة يحفظها لنا التاريخ :

يا أهل أنطلس حشواً مطيعكم  
فما المقام بها إلا من الغلظ

الثوب يفسل من أطرافه وأرى

ثوب الجزيرة مفسولاً من الوسط

ونحن بين علو لا يفارقنا ،

كيف الحياة مع الحيات في سقطة !

• • •

ذلك جو القصة ، وتلك هي مقدمتها . والآن فلنعرض للقصة نفسها ، الجوهر والخطوط العامة ، ذلك أن التفاصيل ترتدى في كل مقابلة ثوباً ، وتكتسب في كل عصر لوناً ، وتعكس ثقافة الحاكم والمستمع على السواء .

(للكلام صلة)

ولكن الأجل لم يمتد به طويلاً ليستولى عليها .

ولكن طليطلة أيضاً لم يدم بها الزمن لتبقى عربية ، وإنما سقطت بعد ذلك بقليل ، ولسقوطها قصة لا بأس أن تروى ، فيها عبرة وعظة ، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، ذلك أن ألفونسو السادس كان على خلاف مع أخيه ملك قشتالة ، فالتجأ إلى بلاط المأمون في طليطلة ، فأكرمه هذا وأمن إليه ، وتقول الرواية العربية إن ذلك الإسباني اللاجئ كان ذات يوم يجلس في حديقة قصر الأمير المظلة على نهر تاجه ، وعلى قرب منه بعض من قواد المأمون يترضون ملء إهابهم الشباب والزهر والقوة ، فقال قاتل منهم ، وقد سرح بصره إلى القضاء يستطلع الماضي ويتأمل الحاضر ، ما أروعها من مدينة محصنة ! . . . الجبل والنهر ، إنها أمنع من أن يقتحم أبوابها جيش غاز ، ولو كان جنده مركة الجن ، ولكن أنها لا تثبت أمام أي حصار طويلاً ! . . .

سمع ألفونسو الدرس جيداً ووعاه تافهاً ! . .

ودارت عجلة الزمن سريعاً ، ومات أخوه ، وسنحت له الفرصة ليعود إلى المطالبة بحقه في العرش من جديد ، وتضيف الرواية أيضاً ، أن المأمون ، بعد فوات الأوان ، أدرك الخطر الماحق الذي يمثل ذلك الأمير الإسباني لو عاد إلى وطنه ، فقد عرف كل خبايا الدولة وخططها ، ولكنه أفلت قبل أن يقبض عليه ، وهناك في قشتالة خصام وزاحم وقاتل ، ثم أصبح أميراً ، وبعد أعوام استقر له الأمر ، ودانت له الدولة ، فقرر أن يضع نظرية القواد العرب موضع التنفيذ ! . . .

## النبؤ بالمواصف والأنواء

من تسجيلات أمواج البحر وهزات القشرة الأرضية  
بقلم الدكتور محمد جمال الدين الغدني

طليقة بحيث تحتفظ كل مجموعة منها بصفاتها أو خواصها المميّزة . ومعنى ذلك أنه في مقدورنا أن نجد لكل عاصفة تفتح البحر حزمها الموجية الخاصة بين أفواج الموج وخليطه مما يند على أى نقطة على الشاطئ تقع على مسار هذه الأفواج .

وعند ما نحصل على تسجيلات مستمرة للموج نستطيع أن نفرق بين الأمواج العادية والأمواج الطويلة التي تقبل من أى عاصفة بعيدة على البحر . واستخدم العلماء لإيجاز ذلك طرقاً شتى من وسائل الإحصاء والتحليل الرياضي ، انصب أغلبها على تعيين توزيعات التردد والزمن الموجي للتسجيلات المتتالية ، وهذا الأخير هو الزمن الذي يمضي بين أوج أو حضيف موجتين متتاليتين . وصادف العلماء صعاباً كثيرة في هذا العمل ، نظراً لأن الأمواج التي ترسلها العواصف عن بعد تضيق معالمها تحت تأثير أمواج البحر القصيرة ، ولذلك عمدوا إلى محاولة الفصل بين أفواج الموج المختلطة من أجل الحصول على تفصيلات أقرب للفهم ، وتوضيحات أسهل في التطبيق ، واستخلصوا في سبيل ذلك آلات دقيقة تقيس سعة كل موجة من الأمواج التي تمر بجهاز التسجيل .

وعندما استخلصت هذه الأجهزة في السنين الأخيرة أمكن الحصول على ما قد نسميه « طيف الموج » على الشاطئ ، وهو يضاهي إلى حد ما طيف أمواج

لعل أكثر الناس خبرة بالبحر وأمواجه هم أهل السواحل والبحارة الذين يقضون أغلب حياتهم في السفن إلا أن القليل منهم جداً ، هم الذين يحاولون فهم لغة الموج فهماً علمياً سليماً . وهما يكن من شيء فإن علماء الرياضة هم أقرب الفئات فهماً للموج وأكثرهم استعداداً للتعبير عنه ، لأنهم يبادرون إلى صوغه في قالب المعادلات الرياضية ، إلا أننا للأسف الشديد نجد فرقاً شامخاً واختلافاً كبيراً بين ما قد يسوقه لنا الرياضيون من نظريات وما ترتب عليه المفن والهيضات وتجمعه من مشاهدات مما لم يصل العلم بعد إلى إدراك كنهه وتفسيره !

ولقد أدت الحاجة الماسة إلى جمع معلومات سليمة عن سطح البحر ، إبان الحرب العالمية الثانية إلى صنع الأجهزة الدقيقة التي تسجل أمواج البحر من حيث أطوالها وسعاتها وأزمانها ، من أجل إجراء البحوث في هذا الصدد . وبذلك أمكن الحصول على نتائج لها قيمتها النظرية والتطبيقية . ولقد أصبح من اليسر الآن أن تسجل الأمواج بواسطة أجهزة تثبت في عرض البحر على بعد ميل أو أكثر من الشاطئ .

ومن الجائز أن يقول قائل — من وجهة نظر ديناميكا الموائع — : إن أفواج الموج التي تقبل من الأجزاء المختلفة للعاصفة الواحدة ، أو حتى تلك التي تقبل من العواصف المتباعدة ، إنما تنطلق حرة

هذه المسافات توقرت فرصة الفصل بين النوعين من أفواج الموج :

وإذن فأول ما يستدل به على وجود الأمواج الطويلة في طيف للموج الذى يرصد على مسافة كبيرة من العاصفة ، هو ظهور حزمة ضيقة من هذه الأمواج ناحية الأمواج الطويلة من الطيف . وباستمرار عملية الرصد نجد أن هذه الحزمة تزاح تدريجياً تجاه الأمواج القصيرة كما يزداد عرضها أو اتساعها في نفس الوقت . وبمعرفة سرعة المجموعة والأزمة المقبسة التى ينتهى عندها ورود أفواج الموج المتابعة يمكن تحديد المنطقة التى تولدت عليها هذه الأفواج أو التى انبثقت منها . وهكذا يمكن تتبع خط سير العواصف والأعاصير في عرض البحر أو المحيط ، وخاصة حين يتعذر جمع الأرصاد الجوية بواسطة السفن .

ولقد نحت هذه الطريقة في السنين الأخيرة وألقت بنتائج باهرة كان لها أكبر الأثر في سلامة كثير من العمليات الملاحية وصيد الأسماك ونحوها من أوجه النشاط التى تنوقف على طبيعة سطح البحر وأمواجه وأنواله . وأتاحت الدقة العظمى التى استخدمت في تتبع فوج من الموج في هذه الأيام ، ومن ثم التعرف على مواطن الاضطراب الجوى ، فرصة استخدام أمواج الساحل في دراسة نظرية هامة تتعلق بأسباب وطرق تولد موج البحر . ونحن عندما نصير أكبر سرعة وصلت إليها الرياح في أشد أجزاء العاصفة عنفاً هي س عقدة ، نجد أن أزمة أفواج الموج التى ترسلها العاصفة آنئذ هي على وجه التقريب ثلث من ثانية . ومعنى ذلك أن عمليات رصد أطوال الموج ، يمكن أن تعين في تحديد أكبر سرعة تصل إليها الرياح في الأعاصير التى يحتاج البحار . وبالمثل يمكن أن نستخدم القوس التدريجي الذى نلاحظه في الزمن الموجى المرصود في طيف الموج في عمليات حساب بعد العاصفة .

الأكبر التى ترسلها الشمس وتصل إلى الأرض . وبمضاهات ههنا الطيف مع ما قد يسجله رجال الرصد الجوى من معلومات في عرض البحر ، وجد أن هناك توافقاً بديعاً بين ظواهر الجوى ، وما يدل عليه الطيف .

فقد ثبت مثلاً أن الأمواج الطويلة التى ترسلها الأعاصير المختلفة من عرض البحر أو المحيط ، تتوقف النهايات العظمى لأطوال أمواجها على سرعة الرياح في تلك العواصف . وعندما قورنت الأزمة المقبسة التى بدأت عندها أفواج كل موجة معينة في الخروج لتصل إلى نقطة الرصد مع الأزمة المقدرة من خرائط الطقس ، التى بدأت عندها تلك الأمواج في الانطلاق ، ثم الأزمة التى انتهت عندها عمليات تولد تلك الأمواج في العاصفة ، وجد أن أفواج الموج التى تنساب في اتجاه بالذات ، إنما تنطلق حركة بسرعة تتفق مع أزميتها الموجية . وفى العادة تبلغ سرعة ( المجموعة ) في المياه العميقة نصف قيمة السرعة التى يمكن أن تنطلق بها موجة منفردة خلال مسافة محدودة . ويرجع السبب الرئيسى في هبوط قيمة السرعة إلى النصف على هذا النحو ، إلى أن الطاقة التى تنطلق فعلاً مع ( المجموعة ) هي نصف الطاقة الموجية . ولهذا السبب نفسه نجد أن جهة أفواج الموج إنما تتلاشى تدريجياً باستمرار الزمن والتقدم بمضى الوقت ، بينما تتولد جهة جديدة ، وهكذا تستمر هذه العملية ...

وتناسب سرعة المجموعة مع زمن الموجة ، وهى عندما تقدر بالقدرة تبلغ قيمتها في المياه العميقة ثلث زمن الموجة محسوماً بالتأخير . وهذا هو السر في أن الأمواج الطويلة التى تتولد عندما تبلغ العاصفة أوجها يمكنها أن تلحق بالأمواج القصيرة التى سبق انبثاقها من العاصفة في مراحل تكوينها الأولى : ويتم ذلك على مسافات متباينة من العاصفة . وبطبيعة الحال كلما كبرت

تظهر آثار العواصف قرب الشواطئ الجاورة بساعات عديدة ، وكما هو الحال في خليج البنغال مثلاً . ونجم عن هذه الحقيقة أن نبئت فكرة جديدة فحوها أن تلك الهزات هي من الظواهر التي تلازم مياه الأعماق ، وأنها تنتقل عبر قاع البحر .

وعندما درست تلك الاهتزازات على طول شواطئ الولايات المتحدة الممتدة على الخليج الأطلسي تبين أنه يمكن أن تصل إلى الأوج ثم تنحى آثارها تدريجياً قبل أن تدرك العاصفة الشاطئ . وعملت محاولات لتعيين الاتجاه الذي تقبل منه الهزات الموجية في كل مرة . ومن هذه الطرق قياس الفرق في الزمن بين لحظة وصول موجة واضحة إلى ثلاث محطات تبعد كل محطة منها عن الأخرى عدة أميال . وكلت هذه الأعمال كلها بنجاح باهر ، مما حمل العلماء على تكوين شبكة من محطات الرصد الثلاثية هذه من أجل تتبع الأعاصير والأنواء كالتورنادو والملايكيين وأنحوهم .

وعندما جمعت النتائج وقورنت ببعضها البعض أمكن الجزم بأن أغلب هزات القشرة الصغيرة ، إنما تنجم عن العواصف التي تحتاج مناطق المياه العميقة من البحار ، كما تنبئ لنا عمليات تسجيل هذه الذبذبات وتحليلها طريقة مثل تتبع الأعاصير والأنواء والنبوء بها . وأصبح من اليسير تحديد مناطق الأعاصير الشديدة عندما تتواجد على بعد نحو ألف ميل من محطات الرصد الثلاثية .

وقد دلت الأرصاد والتسجيلات التي جمعت في أوروبا على أن أغلب هذه الذبذبات الصغيرة إنما تحدث بالقرب من الشواطئ . وعمد العلماء إلى استنباط طريقة لتحليل أفواجها التي تتجمع من آن لآخر على خراطم التسجيل ، وذلك باستخدام وسائل تشابه وسائل تحليل أفواج موج البحر الذي سبق ذكره ، وفصل

وعلى الرغم من أن المعلومات الجوية التي نستقيها عن طريق موج البحر لا تكون عادة حديثة بالنسبة للبحر نفسه ، إلا أنها تكون ولا شك عظيمة الفائدة من حيث التنبؤ بحالة البحر وانتشار الأمواج . فمثلاً نجد أن ملاحظة الموج الطويل الذي قد لا يزيد طوله على عدة بوصات يمكن أن تستخدم كدلالة على قرب هياج البحر أو قرب انتشار الأنواء العالية ، التي تقبل بعد ذلك خلال مدة تختلف من عدة ساعات إلى ٢٤ ساعة . ومثل هذا التنبؤ له قيمته العظمى في كافة العمليات البحرية ، وخاصة الدقيقة منها .

أما من حيث هزات القشرة الأرضية الصغيرة ، تلك الهزات التي لا نحس بها ، ولكن تسجيلها من يوم لآخر أجهزة الرصد الدقيقة ، فقد أتاحت لنا طرق تحليلها فرصة استخدام هذه الهزات في الكشف عن معالم العواصف الجوية النائية ، ومواطن تولدها على البحار تماماً كما تستخدم أمواج للحر في هذا الصدد . ولقد كان المفهوم خلال فترة طويلة من الزمن أن هزات الأرض التي تراوح أزمته ذبذباتها بين ١٠.٤ من الثواني ، والتي يتغير مدى السعة فيها من يوم إلى آخر على خراطم أجهزة التسجيل الموجودة بالمرصد — كمرصد حلوان مثلاً — لها صلات وثيقة بالعواصف التي تحتاج البحار الجاورة . وغالباً ما لجأت بعض المراسد إلى استخدام ازدياد نشاط هذه الهزات الصغيرة جداً وظهورها بوفرة ملحوظة على خراطم التسجيل في بعض الأحيان كدليل على اقتراب العواصف .

ولقد عمد العلماء أول الأمر في تفسير هذه الهزات إلى الصاقها بأفواج الموج التي تنطلق من العاصفة عندما ترتطم بالسواحل ، خصوصاً بالسواحل الصغيرة العظيمة الانحدار . وباستمرار عمليات الرصد الدقيق اتضح بعد مضي فترة من الزمان أن أغلب تلك الهزات التي تنتاب القشرة الأرضية إنما يتم تسجيلها قبل أن

في الضغط ، ذبذبتها ضعف ذبذبات الموج الأصلي ، ولا ينحني أثرها بسهولة على أبعاد كبيرة . والأصل في ذبذبات الضغط هنا هو ينشأ من تغيرات في كمية الحركة للماء في الاتجاه الرأسى . وهى التى تعطى ذبذبات الضغط الواقع على قاع البحر .

وقد يقول قائل إنه لا يمكن أن تولد هذه الأمواج تماماً في البحر ، إنه ليس من شك أن أمر تولدها لا يختلف كثيراً عن أمر تولد الأمواج الشبيهة بهذه الصورة المثالية ، ذلك الأمر الذى لا يتطلب أكثر من تلاقى فوجين من الموج الذى تتساوى فيه الأزمنة الموجبة والذى يكون منطقاً في اتجاهين متضادين . وهذا هو عين ما يحدث في حالات الانخفاضات الجوية التى تتحرك بسرعة ، أو في حالات أفواج الموج المرتد من الشواطئ عظيمة الانحدار .

وتتوقف مهمة موجة التضاضع عند التقاع على حاصل ضرب ارتفاع الفوجين اللذين تولد عنهما أمواج التضاضع هذه . وقد وجد أن هذه السعة تكفى في أغلب الحالات لتولد هزات في القشرة الأرضية يمكن رصدتها وتسجيلها . وتبين كذلك أن الأثر الذى يحدث ارتفاع معلوم من الموج يزداد بازدياد عمق المياه ، وذلك بسبب ما يحدث من تجاوب أو توافق كالترنين سواء بسواء .

ولعل أهم ما يسترعى الانتباه في هذه النظرية هو أن أزمنة هزات القشرة الأرضية تصل إلى نصف الأزمنة الموجية ، بمعنى أنه إذا حدث أن انتشرت أفواج من الموج حرة طليقة ، كما هو الحال في أمواج البحر ، فإنه يمكن تمييز الذبذبات الصغيرة التى تولدها الأفواج التى يختلف فيها الزمن الموجى .

وهكذا استطاع العلماء بعد جهد عن طريق تحليل مثل هذه الهزات من التثبت من صديق هذه

الذبذبات الصغيرة التى تقبل عن بعد عن غيرها من الذبذبات ذات السعات الكبيرة التى تتولد قرب الشاطئ ، فوجد أن هناك توافقاً ظاهراً بين أزمنة ذبذبات القشرة الأرضية وأزمنة أفواج موج البحر الذى يقبل من العاصفة .

ولقد أدى هذا الاكتشاف الخطير إلى صوغ نظرية حديثة تفسر لنا كيف تتولد هزات القشرة الأرضية الصغيرة . والحق أنه لم يكن هناك أدنى شك في أن الطاقة اللازمة لتولد تلك الهزات الصغيرة إنما تنجم من الطاقات المنبثقة من الأعاصير في أعالي البحار والمحيطات . أما الطريقة أو الوسيلة التى تنتقل بها تلك الطاقة إلى قاع البحر ، فإنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنشاط الموجى الذى تحدثه العاصفة .

ومهما يكن من شيء فإن الثابت علمياً أن انتقال تلك الطاقة لا يمكن أن يتم عن طريق موج من الموج العادى ، والسبب في ذلك هو أن ذبذبات الضغط التى تحدث تحت فوج يتقدم في اتجاه معين تناقص شدتها تناقصاً سريعاً بازدياد العمق ، بحيث تصبح عديمة الأثر على مسافة لا تزيد كثيراً على طول عدة أمواج ، وكذلك لأن أطوال موج البحر تكون عادة صغيرة بالنسبة لأطوال هزات القشرة الأرضية . وعلى ذلك تصبح ذبذبات الضغط تحت أفواج هذا الموج عديمة الأثر . ولا تختلف طرق انتقال الطاقات من موج البحر إلى الشاطئ الصخري عن طرق انتقالها إلى القاع في شيء .

ولقد تضمن صوغ النظرية الحديثة هذه الاعتبارات كلها ، فأرجعت هزات القشرة الأرضية أو ذبذباتها التى تتراوح أزمنتها بين ٣ ، ١٠ من الثواني إلى تغيرات الضغط الكبيرة نسبياً التى تحدثها الأمواج الواقعة ، وهى الأمواج التى تتولد عن طريق عمليات التداخل بين فوجين من الموج يسيران في اتجاهين متضادين . ولقد ثبت أنه تحت مثل هذه الأمواج الموقوفة تتولد تغيرات ثانوية

تعيين مكانها بسهولة عن طريق تسجيلات محطات الرصد الثلاثية . أما إذا تواجدت ذبذبات ضعيفة مختلطة بأخرى قوية نسبياً فإنه يلزم استخدام طريقة تحليل الطيف الموجي .

وليس من شك أن احتمالات استخدام الهزات الأرضية بغية الحصول على المعلومات اللازمة الخاصة بالأعاصير ومناطق الاضطراب الجوي في عرض البحر هي احتمالات تشر بالنجاح العظيم ، خصوصاً وأن هذه الهزات إما تنشر خلال القشرة الأرضية بسرعة متوسطها ٢½ من الأميال في الثانية ، ولذلك فهي تصل قبل أن ترد أمواج البحر المتولدة معها في العاصفة نفسها التي على بعد ألف ميل مثلاً بما لا يقل من ٢٥ ساعة . وهذا كسب زمني عظيم له قيمته لدى الملاّحين والصيادين ومن على شاكلتهم .

النظرية من الوجهة التطبيقية . ولقد دلت مجموعات الطيف الموجي التي سجلت حديثاً على أفواج متناقصة الشدة من موج البحر ، متوسط أزمئتها الموجية عشر دقائق ، على حين أن دلت تسجيلات اهتزازات القشرة الأرضية في الوقت نفسه على نشاط متوسط زمنه الموجي ٤.٥ ثانية . وعلى العموم وجد أن الزمن الموجي فزات القشرة الصلبة المنطلقة من أى عاصفة هو نصف الزمن الموجي لأفواج الموج الناجمة عنها .

ويرى العلماء — بعد ما اكتسبوا من خبرة في هذا الميدان الجديد — أن المعلومات اللازمة الخاصة بموج البحر وأنوائه وعواصفه يمكن أن تستقى كلها عن طريق تسجيلات هزات القشرة الأرضية فإذا كانت العاصفة قريبة ونشطة في الوقت نفسه فإنه يمكن



# نقد مسرحية (شفة للإيجار)

بقلم الأستاذ فؤاد دؤارة

رضوان ، بأن اللغة العامية تصلح لغة للحوار المسرحي ، بل هي أصلح اللغات للمسرحيات التي تعالج مشكلاتنا المعاصرة .

وقد أدخل المؤلف على المسرحية كذلك تعديلات أخرى وإضافات قربتها من طبيعة العرض المسرحي .. وبقيت مع ذلك عدة أشياء تحتاج إلى تدبر ومناقشة .. فلا شك أن المسرحية على خشبة المسرح شيء آخر يختلف تماماً عنها بين دفتي كتاب .. والمسرحية لا تكتب حياتها الكاملة ، ولا تظهر كل مزاياها وعيوبها إلا بعد تجسيدها على المسرح ونفث الحياة في شخصياتها وأفكارها ..

...

في الفصل الأول نلقى بمشهد كبير من الشخصيات الغريبة المتنافرة .. « زهران » صاحب المنزل الذي ظلت إحدى شققه خالية شهوراً طويلة .. و « عبد الحفيظ » البواب الشاعر الساخر من كل شيء .. و « نهدات » البانينة الجميلة التي تريد تأجير الشقة ، فينازلاً كل من « زهران » و « عبد الحفيظ » ثم تصرف فيحبها « زهران » ، وما يلبث أن يتبعها « عبد الحفيظ » أيضاً ..

يخرجون تاركين « الشيخ طولان » المصلح الديني الذي لا يتكلم إلا بالعصبي ، والذي يريد تأجير الشقة ليصلها مقرأ لجمعية الذليلة . ويأتي « مملوح » الشاب المتوتر الأصحاب ، وتتهم أن البوليس السياسي يطارد ، وأنه يريد تأجير الشقة لحذف فوري سري .. ثم يأتي « مازكو » التاجر الأجنبي وثابه ، إنه يريد تأجير الشقة ليستخدمها مخزناً للمواد اللادوة ليعاير بها في السوق السوداء ، ومن حديث تهم صلاته الوثيقة الحربية بوزراء ذلك العهد وكبار رجاله .

ويظل « عبد الحفيظ » البواب حائراً بين هؤلاء المستأجرين ، حتى يأتي « عزت بك » المؤلف الكبير الأخرى ، فيندق عليه ، ويوافق على قبة الإيجار المطلوبة دون مناقشة .. فيغزو بالشقة ، ويهزم أنه

حينما صدرت مسرحية « شفة للإيجار » للأستاذ فتحي رضوان في شكل كتاب في يونيو عام ١٩٥٩ كانت تحمل تجربة جديدة في لغة الحوار المسرحي ، فقد كتب المؤلف أجزاء منه باللغة العامية الدارجة ، وأجزاء أخرى بالفصحى العربية وقال في مقدمتها : « يدور أكثر الحوار في نصف هذه المسرحية باللغة العامية ، ويدور باقي الحوار فيها باللغة العربية الفصحى ، وأنا مسئول عن الحوار الذي جرى باللغة العربية الفصحى ، أما بقية الحوار باللغة العامية ، فضع على أبطال المسرحية ذاتها » .

وقال كذلك كلاماً آخر كثيراً دلعاً من استعمال اللغة الفصحى في المسرح وفي جميع مجالات الحياة . وهو كلام قريب مما تردد بعد ذلك على لسان « الشيخ طولان » في الفصل الأول من المسرحية في حديثه مع الفتاة الخالصة « نهدات » لأنها لم تفهم حديثه باللغة العربية الفصحى .

وحينما كتبت عن المسرحية في ذلك الوقت لم أستطع أن أويد هذه التجربة الجديلة ، ورأيت أنها أفقدت الحوار المسرحي وحدة نسيجه وانتظام إيقاعه ، وحولت بعض المواقف الجادة إلى مواقف تثير الضحك أو الابتسام في أحسن تقدير ..

وها هي « فرقة المسرح القومي » تقدم مسرحية « شفة للإيجار » بعد أن عدل كاتبها عن تجربته الأولى ، وفي ذلك وحده انتصار لحركتنا المسرحية المعاصرة إذ كسبت إيمان كاتب جاد عميق بالأستاذ « فتحي



الأول ، وأدجت الحقائق والصور التي قدمت فيه في بقية الفصول لكان ذلك أدعى إلى نجاح المسرحية ، وتحقيقها لأهدافها . ولكن حالت دون ذلك رغبة الكاتب في الرمز بالشفة الخالية إلى مصر الحاضرة الباحثة عن قائد وأنجاه ..

ولا نستطيع أن نتفق مع القائلين بأن من حق الكاتب المسرحي أن يخرج على تقاليد البناء المسرحي ووحدة الموضوع الذي يعالجه ؛ ليقدم لنا استعراضاً للمجتمع الذي يصوره . ونخدم الفكرة التي يعرضها .. قد نقبل هذا الخروج على التقاليد المسرحية إذا استطاع الكاتب أن يقدم لنا شكلاً جديداً متكاملًا للمسرحية ، ولكن أن يخرج على هذه التقاليد في أحد الفصول ، ثم يعود ليعالج بقية الفصول داخل الإطار التقليدي فذلك ما ينبغي على النقاد أن يناقشوه ، ويشيروا إليه ، بدلا من أن يتكروا أنه أسماء جديدة لم يسمع بها أحد من قبل .

وهي آخر .. إن كبار كتاب المسرح في أوروبا وأمريكا ممن يقرب بهم المثل على الخروج على تقاليد المسرح المتوارثة ، هؤلاء الكتاب لم يستطيعوا أن يحققوا ذلك إلا بعد أن استنفدوا أساليب المسرح التقليدي ، ووقفوا على قمة تطور طويل من الأعمال المسرحية الناضجة ، فأصبح من حقهم أن يخرجوا على تقاليد عرفوها جيداً وعضموها تماماً .. وهم في خروجهم يتعرضون على كل حال إلى هجوم كثير من النقاد وما زالت أعمالهم تؤخذ بشكل عام على أنها تجارب لم تستقر لها بعد تقاليد فنية مقبولة .

أما بالنسبة إلينا ، ونحن الذين لم نكد نعرف أصول الكتابة للمسرح ، ولا نستطيع أن نزعم أننا استوعبنا تراث الإنسانية في المسرح بحيث نستطيع أن نقف على آخر تطوراتها .. أعتقد أنه ليس من السهل بالنسبة لكاتب مسرحي عربي ، أن يزعم أنه قادر في هذه المرحلة

بمستلها ثلاثة أو أربعة أيام كل شهر كوكبر للملأته وزواته .. وينصرف سيداً بإتمام الصلقة ، في حين تتفارب الجول والأهواء بين كل من « عبد الميث » و « الشيخ طولان » و « ممدوح » ، وتتفق عوامل الثورة في تقوسهم على الأوضاع القاسية السائدة في المجتمع ، ويعرض عليهم « عبد الميث » الاستفادة من الطبقة في الأيام التي لا يحضر فيها « عزت بك » واتخاذها مقراً لاجتماعاتهم .

\*\*\*

ومن الممكن أن نأخذ هذا الفصل على أنه prologue أو مقدمة لموضوع المسرحية الذي سيعرض علينا في الفصول التالية ، وإن كان من الإصراف الواضح أن تستغرق مقدمة المسرحية فصلاً كاملاً دون أن تتضح الخيوط الأولى للمشكلة الأساسية التي ستعالجها المسرحية ..

وليس باستطاعتنا قبول هذا الفصل على أنه عرض للشخصيات ، فكل الشخصيات التي ظهرت فيه اختضت تماماً من بقية فصول المسرحية باستثناء « عزت » و « عبد الميث » و « ممدوح » الذي يظهر في النصف الأخير من الفصل الرابع . وكان في النص المنشور لا يظهر بالمرء . ويبدو أن المؤلف قد أحسن بانقطاع الصلة بين الفصل الأول وبين بقية فصول المسرحية ، فجعل « ساء » الشاب الذي يسوى « اعتدال » ويرغب في الاقتران بها هو نفسه « ممدوح » الشاب الوطني الثائر .. ولكن هذا التعديل لم ينجح وحده في ربط الفصل الأول ببقية المسرحية في وحدة فنية متماسكة البنيان .

إن المبرر الوحيد المقبول لوجود هذا الفصل في المسرحية هو أنه يقدم صورة مختصتنا للمهار قبيل الثورة ولتيارات والانجماهاات المختلفة التي كانت تتجاذب أفراد هذا المجتمع . ولكن أما كان من الأفضل عرض هذه الصورة من داخل المشكلة التي تعالجها المسرحية ومن خلال نسيجها الدرامي الملمس ؟ . أعتقد أن ذلك كان ممكناً وقد وفق الكاتب فيه توفيقاً لا يستهان به في الفصول الثلاثة الأخرى .. ولو حذف الفصل

من مراحل تطورتنا على خلق شكل جديد للمسرحية .  
على أن هذا ليس غلقاً لأبواب التجديد والابتكار ،  
وإنما هو طبيعة التطور الفني ومقتضياته ، ولن يستطيع  
الخروج عليها ! إلا يعبرى فذ ، فالعقريات تحطم كل  
القواعد والقوانين ، ولا أعصد أن أحداً ممن يكتبون  
لمسرحنا قد بلغ هذه المرتبة بعد !

\*\*\*

تبدأ مسرحية «ثقة الإبحار» الحقيقية من الفصل الثاني  
فترى «عزت» يلقى من هزته ليلواجه حياته كلها .. إن مأساة الفتاة  
الساقطة «اعتدال» تزه من أمهاته ، وتوقفه من غفوة اللطولة .  
لقد كانت فتاة شريفة كسائر الفتيات ، كاهنه وبقية الناس  
الشرفاء . ولكن أباهما مات وهي طالبة في التوجيهية ، وأصبح  
عليها أن تواجه مسئوليات أسرتها ، وتحقق أمنية أمها في سترها في  
الحياة والمآلات .. ولا تجد «اعتدال» وسيلة شريفة لكسب الفرق  
في هذا المجتمع المنفلت ، فتضطر إلى السقوط . وتسهر  
لتشترى لأهلها الكفن ..

ويحاول «عزت» أن يفرق ضميره من كنوس الخمر المخلقة ،  
ولكنه ما إن يفيق حتى يذكر تلك المأساة الدائمة ولا يستطيع إلا أن  
يعتبر نفسه أحد المسئولين عنها .. إنه يقضي حياته على ألا ينطق  
ولا يقدم لجمعه أي عمل نافع .. ويحاول أن يرضى صهره عزيم طريق  
منحة مالية كبيرة سيجب «لاعتدال» .. ولكنها تثور وترفض  
إحسانه ، وتواجه بحقيقته وبحقيقة تصرفاته قزيمه أزمته إحتداماً .  
وفي اللحظة نفسها التي يستيقظ فيها ضمير «عزت» يحاجم  
البوليس السياسي الثقة ، ويهش على منشورات ثورية وآلة  
«دولبو» .. ويقبض على «عزت» بتمه الاشتراك في جمعية  
سياسية سرية تعمل على قلب نظام الحكم .

ويسبب «عزت» بالتمه الخطيرة ، وهو الذي بدأ يحس معنى  
تفاحة حياته وقذارتها ، وراه في الفصل الثالث في السجن ، وقد زاد  
احتكاكه بالسجونيين - من أفراد الشعب المضطهدين والمتفنيين  
المشتغلين بالسياسة - من حدة ثورته ، وإحسانه بالتمه القاسية التي  
تلقى البلاد .. إنه حائر لا يعرف الطريق الذي ينتهجه ، وخاصة بعد  
أن ثبت برأته وتقرر الإفراج عنه .. ثم «واحد يهزبه ويمتعه  
بعض الفتى في الحياة ، ذلك هو الحب البنوي البريء الذي تمنحه له  
«اعتدال» بعد أن هجرت حياتها الماضية ، ووجدت عملاً شريفاً  
تعيش به .. فإذا كان الفصل الرابع وجدنا «عزت» يحاول علاج  
مشكلته والتكبير من حياته السلبية الماضية عن طريق تكوين جمعية  
خيرية تنمي المستشفيات والمدارس .. ولكنه لا يلبث أن يكتشف  
أن أعضاء الجمعية من كبار الأثرياء ليسوا سوى منافقين محادين ..

وماذا يحس نشاط هذه الجمعية أو غيرها في مجتمع منهار الأساس  
مخمل البنيان ؟ إن الأمر يحتاج إلى علاج جذري شامل يقضي على  
كل الأوضاع القاسية ، والظروف القاسية التي تطعن حياة الشعب  
وتجلبها إلى مأساة .. ويظهر «مدوح» الذي تحول إلى محرر اقتصادي  
في إحدى الصحف ، يكتب ما يطلبونه منه كتابته لا ما يريد هو أن  
يكتبه .. إنه يحس بالمأساة هو الآخر ، ولكنه لا يدرى أين الحل ..  
إنه يتصور أن زواجه من «اعتدال» قد ينقذه من حيرته وضبابه ..  
ولكن «اعتدال» ترفض بإصرار «لأنها لا تستطيع أن تنسى ماضيها ،  
وهي تخشى أن يطاردها عارها ويصم أولادها .. وهي تؤكد لمدوح  
إنه لا يريد الزواج منها إلا كهروب من الأزمة النفسية التي يعانيها ..  
ولكنه مهرب مؤقت ، ولذا يلبث أن يلقى على حقيقة مأساة التي تلف  
حياة الشعب كله .. ويحاول مدوح الانتحار لتطيش رصاصته  
وتصيب «عزت» ، وتكون هذه الرصاصة بمثابة الشرارة التي تقضي  
لم الطريق .. يسبحر «عزت» الجمعية الخيرية ويسبب جريئة  
ثورية يكتب فيها «مدوح» كل ما يرغب في أن يقوله .. ولن يمانعوا  
من السجن أو التعذيب في سبيل غايتهم الوطنية الكبرى .

\*\*\*

واضح من هذا التلخيص السريع أن المشكلة التي  
تعاملها المسرحية جادة وحساسة إلى أبعد حد ، وقد نجح  
المؤلف إلى درجة كبيرة في تصوير طبيعة المأساة التي  
كانت تلغ حياتنا ، ولكنه لم يحقق ذلك عن طريق  
تتابع الأحداث في بناء درامي متكامل ، بقدر ما حققه  
عن طريق العرض السريع الذي أشرنا إليه في حديثنا  
عن الفصل الأول ، ثم عن طريق الحوار الخطابي  
الطويل الذي أنطق به كلاً من «عزت» و «عبه الميث»  
و «مدوح» . والأول منهم بصفة أخص .

لقد بدأت أزمة «عزت» في الفصل الثاني ،  
واستمرت طوال الفصل الثالث حتى بلغت قممها الأولى  
وبدا لنا في أول الفصل الثالث أنها قد انتهت إلى حل  
سريع ما يبدو لنا زيفه ، فتعود الأزمة إلى قممها من  
جديد ، وقد اتخذت شكلاً أكثر موضوعية ووطنية  
ثم ما تلبث أن تنحدر سريعاً إلى الخلل السعيد الذي  
توصل إليه بإصدار الجريدة .

ونعتمد على أن اهتمام المؤلف بعرض مأساة  
«اعتدال» وعلاقتها بمملوح قد أثر إلى حد ما على

« عزت » أو « دوح » إلى الارتباط بمثل هذا العمل الجامع لزال عنه الإحساس بالضيق والتخبط ولكان من المؤكد أن توثق جهوده أطيب الثمار .

أنا لا أقول إنه كان من الضروري أن تنتهى المسرحية إلى هذا الحل العام ، ولكنى أعتقد أنه كان من الأفضل أن يشير إليه المؤلف ولو مجرد إشارة ليوضح حقيقة المسألة التى طحنت أبطاله ، بل وطحنت الشعب كله .

...

لقد تميّزت مسرحيات « فتحى رضوان » السابقة بحرفى فكرى خالص يغلب على كل مواقفها ومشاهداتها ، ويسبغ عليها جواً قريباً من الرمزية ، فتبدو لأول وهلة بعيدة عن الواقع ، وإن كانت ترتبط به فى الحقيقة أقوى ارتباط ، وتعالج مشكلاته من زاوية إنسانية عامة عميقة الأغوار ، سامية الأهداف والمراعى .

ونجمل إلى أن هذا النوع من المسرحيات يتكلم مع مواهب الأستاذ « فتحى رضوان » وتكوينه الفنى أكثر من هذا اللون الواقعى المباشر الذى تمثله مسرحية « شقة للإيجار »

ولعل مما يؤيدنى فى هذا رأى أن أقوى عناصر هذه المسرحية هو حوارها الملىء بالآراء الخصبية والتشبيهات القوية الموحية ، وبخاصة فى تلك المواقف التى يناقش فيها الأبطال المبادئ العامة والأفكار المجردة ، وأن من أبرز عيوبها ضعف بناء شخصياتها ، وتطورها بصورة سريعة غير مقننة فى كثير من الأحوال . وهذا عيب لا يمكن أن يبرز على هذا النحو فى المسرحيات الذهنية التى تجسد فيها الشخصيات أفكاراً معينة ، أو ترمز إلى جانب من جوانب الصراع ، دون حاجة إلى دقة فى تحديد سماتها الواقعية ، وتكوينها النفسى المقنع ..

...

وضوح الخط الرئيسى فى المسرحية ، كما أن شغل جانب كبير من الفصل الرابع بعرض فساد الجمعيات الخيرية قد أوقف نمو الخط الدرامى دون مرور فنى كاف ، لقد تطورت أزمة « عزت » فى الفصل الثالث من أزمة شخصية إلى أزمة عامة ، وكان التطور الطبيعى لهذه الشخصية يقتضى أن نراها فى الفصل الرابع ، وقد نزلت إلى ميدان الكفاح السياسى الفعلى ولا بأس من أن نستمع فى هذه الحالة إلى عبارات فى الحوار تشير إلى فشل محاولات « عزت » فى ميدان الإصلاح الاجتماعى .

...

ومن المفهوم أن تظل شخصيات المسرحية حائرة منسحقة لا تدرى طريق الإصلاح السليم ، فقد كانت تلك طبعة الغالبية العظمى من شخصياتنا فى ذلك العهد . شخصيات يعذبها الإحساس بالظلم والفساد ، وتريد الإصلاح وتوقد إليه ، ولكنها لا تدرى الطريق . أقول : إن هذا مفهوم باللسة لشخصيات المسرحية ، ولكنه غير مفهوم بالنسبة إلى كاتب ناضج الوعى كفتحى رضوان ... فالحل الذى انتهت إليه المسرحية بإصدار جريدة وطنية ليس إلا جزءاً ضئيلاً من الحل الضخم الذى كانت محتاجة البلاد فى تلك الفترة ... نعم ، إن ذكر الثورة الشاملة قد تردد على ألسنة أبطال المسرحية أكثر من مرة ، وقد تكون الجريدة الوطنية الصادقة التى سيصدرها « عزت » إحدى وسائل التمهيد لهذه الثورة ... ولكن السبب الحقيقى لتأزم أبطال المسرحية ، وفشلهم فى محاولاتهم الإصلاحية ، لم يرد ذكره فى المسرحية كلها ولو بمجرد إشارة عابرة ... فمن الواضح أن الفساد المستشري الذى كانت تعاني منه بلادنا لم تكن تجدى معه أى جهود فردية .. وكان الأمر يتطلب عملاً جماعياً يشترك فيه كل الخطمين المؤمنين بوطنهم ... ولو وفق

بصورة مقنعة .. بل اضطر إلى مزيد من المبالغة ،  
دفعت الجهور إلى الضحك في بعض مواقف الجد  
الغنيف والمأساة .. وإن كان واجب الإنصاف يقتضينا  
أن نشرك كلاً من المؤلف والمخرج في فشل تنفيذ  
هذه الشخصية ..

إننا لا نختلف جميعاً في أن مسرحنا العربي على الرغم  
من مرحلة الانتعاش التي يعاصرها مازال ماضياً في طريق  
المحاولات والتجارب .. وفي طريق المحاولات والتجارب  
لا بد من أخطاء وانحرافات قبل أن نعرف الطريق  
السوي . ومسرحية [ شدة الإيثار ] تمثل خطوة هامة جادة  
على هذا الطريق .. تؤكد أن كاتبها سيسهم في  
تقلعنا المسرحي بخطوات أخرى وخطوات .. وإذا  
كنّا قد أخذنا عليها بعض الملاحظات فيما يتعلق  
بشكلها وبأبطالها ، فلا شك أن مضمونها الإنساني السليم  
وهنقها الوطني الجاد ، يغفران لها كثيراً من هذه

### الملاحظات

وبعد ، هل لنا في حاجة بعد ذلك إلى أنؤكد أن  
كاتب هذه المسرحية يحفل من نفسه مكانة الأخ  
الكبير الذي أعز بصلى به وبتابعي لكل ما يكتب ؟  
الواقع أنني لم أكن في حاجة إلى شيء من هذا ، لو أن  
أخلاقيات النقد الأدبي وقيمه الخالصة الشريفة مازالت  
تهتز في بعض النفوس بحيث نحتاج دائماً إلى أن نؤكد  
بين الحين والآخر أن نتناولنا لعمل أدبي بالنقد  
الموضوعي الخالص ، لا يمكن أن يؤثر بحال أو يتأثر  
بصلتنا الشخصية وتقديرنا الإنساني لمؤلفي هذه الأعمال .

وبذل « نيل الأثني » جهداً طيباً موفقاً في فهم  
النص ، وتنفيذه وبث الحركة والحياة في سطره ..  
ورسم الشخصيات رسماً مقبولاً ، واختار لها الممثلين  
المناسبين ، واستعان بديكورات بسيطة جميلة ، لم  
تبد متكلفة أو مبالغاً فيها بصورة تسيء إلى تتبع  
الجهور المسرحية يقوم الحوار فيها بدور البطولة ..  
واستعمل الموسيقى التصويرية بإحساس في صلح بدت  
معه كجزء متم لبعض فقرات الحوار الحامسة ..  
ولا آخذ عليه إلا صجره عن إقناع الممثلين بالبعد  
عن الأسلوب الخطابي في الأداء في كثير من  
المواقف ..

ولن آتي بجديد حيناً أقول إن كلا من « حسين  
رياض » و« سناء جميل » و« شفيق نور الدين » قد  
وفقوا إلى حد بعيد في أداء أدوارهم ، وخاصة  
الأخير الذي كان أكثرهم حفظاً وإحلاصاً لدوره ..  
وبرز « توفيق الدقن » في أداء دوره الصبر ، وتخلص  
من مبالغته في الأداء ، التي أساءت إلى فنه في أكثر من  
دور سابق .. أما « محمد الطوشي » فبالرغم من أنه كان  
مقنعاً في دور « الشيخ علوان » إلا أنني لم أرتح لأسلوبه  
في أدائه ، ربما لأنني أحسست أنه يؤديه بصورة  
توحى أن الدور أصغر منه ومن مواهبه ..

ولم يوفق الممثل الجديد « حسن الشريفي » في  
أداء دور « مملوح » ، فقد بدا متوتراً متعصباً بصورة  
مبالغ فيها طوال ظهوره على المسرح ، حتى لقد صعب  
عليه بعد ذلك أن يؤدي لحظات الانفعال الحقيقية



# نقد الكتب

مع الشعراء المعاصرين

## ديوان نار وأصفاد

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

١٨٠ صفحة - مكتبة الأنجلو المصرية - شركة فن الطباعة

ذات الزعجات الإنسانية التي تحمل في أطواشها بذور الخير البشرية كلها .

أكتب هذه الخواطر وأمامي أكثر من ديوان واحد لشعراء تخطتوا فجر الشباب إلى زهو الكهولة . وكأني بهم قد أخذوا على عاتقهم أن يكونوا امتداداً طيباً لمن سبقهم من الشعراء الكبار الذين جدّوا وروّق الشعر بعد نكسته الطويلة في عصور الانحطاط . وأن يكونوا امتداداً لتلك النفحات العبقية التي تركها البارودي والكاسمي وإسماعيل صبري وشوقي وحافظ والمطران . والرهاوي والرصافي وغيرهم وغيرهم من محوّل الشعراء الذين حافظوا على روّق الشعر القديم وجزالة ، إلى جادة معانيه التي تصوّر الواقع الذي نعيشه في القرن العشرين .

لقد برز إلى الساحة شعراء حملوا الراية نفسها ، وأخذوا يردّون تلك الأصداخ الحلوة العذبة بواقعية أدقّ وأساليب أرشق وصور أبداع ، وغلجات تلامس أفئدة الأمة العربية في كل بقعة من بقاعها ، من محيطها إلى خليجها .

أكثر من ديوان تحفل رفوف مكتبي لشعراء مطبوعين وقد يكون من الأمانة لتاريخ الأدب المعاصر أن نخصّ هذه الدواوين بكلمات تشير إلى هذه الوجهات التي نبضت بها أفئدة أصحابها .

وأبدأ بديوان « نار وأصفاد » للشاعر محمود حسن إسماعيل ، ويرمّز عنوانه إلى النيران المشتعلة في كل أرض عربية تزحف إلى التحرر ، وإلى الأصفاد التي

مرّت الأمة العربية في النصف الأول من القرن العشرين بفترات عصيبة من التضال المرير والكفاح الطويل في سبيل مقومات الذات وبناء الكيان المستقل . فكانت الانتفاضات والثورات وكلها ترمي إلى تحرير الإنسان العربي وتحرير الوطن العربي من مظلمة الجهالات ورقّ الميوديات ، ومن ظلم الطغاة وسيطرة العتاة الذين كانوا يتمتعون بحريات هذه البلاد دون أن يتبحروا لأبنائها التمتع بما أفادهم الله عليهم من خير وبركة .

وكان لابد للشعر من أن يصوّر هذه الانتفاضات والثورات والثورات ، وكان لابد للشعراء من أن يرتفع صوته ، وأن يرسموا نبضات الأفئدة وغلجات النفوس الشائرة المنطلقة إلى حياة حرّة كريمة ، وإلى مستقبل زاهر أفضل . .

وإذا المطابع ثقفت كل أسبوع أكثر من ديوان واحد لغير واحد من الشعراء الذين لم يتنكروا لعروبهم ، ولا لفهم ، ولا لعمو دالشعر ، فكانوا الصلة الوثقى بين ماضينا وحاضرنا . . وكأني بهم يرسمون للمستقبل هذه الخطوط الواضحة للجيل الصاعد ليظلّ متمسكاً بلغته ، وبقوميته وبعروبه

لا تزال تكبّل بعض الأقطار العربية بالمعاهدات  
والالتزامات والقيود !

وفي اختيار العنوان دليل على أن الشاعر يُحسُّ  
إحساس قومه ويريد من هذه التران المشعلة أن تحطّم  
هذه القيود ، وأن تحرق تلك الأصفاذ ، لتتم النفوس  
المعذبة . بطمانيتها ، والبلاد المضطهدة بحريتها وبأمنها  
ورخائها ، ولتصبح خيراتها وكنوزها بيد أهلها لا بيد  
الأغراب الذين استثمروها .

وأمرٌ مروراً سريعاً بعنوان القصائد فإذا في أجد  
الشاعر قد نسا عنه تلك الأنواب المهلهلة التي لبسها  
أنداده القدماء . فلا أفع على قصيدة مدح . ولا أنشودة  
ترتّل كاذب ، ولا أطياف ملق ونفاق ، ولا على  
روح ذليلة تستجدي ، ولا دمة حزن كاذبة على  
صديق لدود ! إن القصائد كلها — وقد خلت  
حتى من الإخوانيات — تصوّر واقع الأمة العربية في  
ماضها وحاضرها ، في نضالها وكفاحها تطوّرت  
أعجابه وفتحاتها الكبرى منذ عهد النبي الكريم محمد  
« ص » إلى يومنا هذا حيث وقفت تبحث عن « ذاتها »  
المنطلقة التي أعطت الدنيا ثمرات هدى وحضارة  
ما يزال أثرها باقياً إلى الآن .

فحرية الأمة العربية هي الشغل الشاغل لهذا الشاعر  
الذي جعل ديوانه قصائد في أربع مراحل .

أما المرحلة الأولى فخصها بنبي الحرية « الذي ألف  
القلوب على السلام والمحبة ، وشق في غياهب الوجود طريق  
النور » - النبي العرفي الكريم الذي من جبينه الخلق للسير  
فارتفع لله ، وظهره المقوس لطيفان فسواء الكرامة ، وبصره  
الصاروخ ظلم فأعلمه الحق ، وقبده الصافر قبض فأسأله أجراس  
حرية ، وكان قلب رسول رحمة وتوحيد .

وهي قصائد تحكي قصة الظلام ، وجناسة الوثنية ،  
ومعجزة المنكبات ، والفارس المختصر ، ونفث النار ، والقود  
المهاجر — وهي هجرة تطر في قلب الزمن أسطح برمان على  
انتصار العقيدة وقوة الإيمان .

سرى محمد تطوى الشمس رائته  
في موكب قبل هذا ما سمعناه  
يمشي وصاحبه الصديق وحدهما  
في مَهْمَةٍ تَفْرَعُ الأيام لقياه  
عقيدة جنبها الإيمان ، يحملوها  
صفوا ، وتغلا باليشري حناياه  
يمشي . . فتحبُّه الأقدار جارية  
لها من الغيب ما للغيب ترصاه  
مُبَشِّرٌ بضحي للكون ، يُنْقِذُهُ  
من ظلمة ، ليُلْها لَجَتْ خطابه  
ظلم وشيرك ، وقوم هاكفون على  
رب من الصخر مسكين عرفناه  
صخر ذليل يفاؤ الوحش جبرته  
ودرة الوهم لا ترضى بمشواه  
أتم (الشمس) يحمر لا ضفاف له  
من الفياض تروغ الشمس ضحواه  
مر من القائل ذاب العقل . واند  
حرت أطواؤه الشم في أعرار معناه

بعد أن يصوغ لنا الشاعر قصة « نبي الحرية » وهي  
قصة شائقة لا تخلُ ترديد نغاتها العذبة يقص لنا  
قصص « ممالك الحرية » : قصة القيود ، قصة الحرية مع  
الرق ، قصة الكرامة مع التسلط والاستبداد ، قصة  
النار والأصفاذ ، الدخان واللهب ، الظلمات والأضواء ،  
قصة النار المؤجبة بالإيمان والحق — قصتها مع الأصفاذ الناشئة  
في صدر كل حرب حر ، وفوق كل تراب حرب دنسته قدم  
مستمر : في ضفاف النيل ، في بردي ، في الفرات ، في شطآن  
الخليج ، في سفوح الأطلس وجبل الجزائر — في كل أرض أظلمها  
راية العرب — في جميع هذه البقاع نسمع صوت الشاعر  
يجلجل فلا يعبر عن « ذات نفسه » بقدر ما يعبر عن  
« ذوات نفوس » إخوانه العرب الأحرار الذين  
تضطرم في قلوبهم جلوة النار :

نَوَّرَتْ حَرِيَّةً .. وارْتَفَعَتْ  
 فِي سَمَاءِ النِّبْلِ شِهَاءَ الرَّهْرِ  
 أَيْقَظُ الشَّرْقُ ضَحَايَا .. فَعَدَا  
 رَكْبُهُ لِلشَّمْسِ وَثَابَ السَّفَرِ

الشاعر متفاعل مع الأحداث تَهْزُ وجدانه وتثير  
 ضميره فيفيض قلبه بنبرات من الشعر الحار الذي  
 يلامس قلوب قارئيه ، فليوم الخلاص حين رحل  
 آخر جندي من جنود الاحتلال عن أرض القناة  
 قصيدة ، وحين آمنت القناة قصيدة ، وللعودان على  
 بورسعيد أكثر من قصيدة ، ولوكب الوحدة قصيدة :

من جهة الشمس حيثُك المَنَارَاتُ  
 ورفرفرت لك فوق النيل راياتُ

وأقبل الدهر نشواناً ، براحتهِ  
 فَجَرَّ من الحُلْد ، صاغته السماوات

وفي الجبين سَطُورٌ ، راح يحملها  
 (فَوْحٌ) من الثُّور ، حطته النبُواتُ

دَمَشَقٌ لَهَا نَكِيدٌ ، ظلالاً شَجِيئَتُ  
 به العُصُور ، وغتته الحضارات

إلى أن يقول :

دار الزمانُ .. وعاد الثُّور .. تحمله  
 من العُروبة أرواح وراحات

نصرٌ أعادَ لِيَاةِ الشَّرْقِ .. كم ذهبتُ  
 له ضحايا .. وكم غُتَّتْ جراحات

ووحدةٌ بارك الأحرارُ مَدَّتْهَا  
 وظلَّلتُهَا من الله العنايات

تعاثتْ في هَوَاهَا عِزَّةٌ ، وجرتُ  
 على القلوب ، تُغَدِّبُهَا الحُشَاةُ

يجرى بها بِرَدَى والنيلُ ضَمَّتْهَا  
 ركبٌ له من أمانِ الله ضَفَاتُ

ويطول بي المدى لو رحت أقف عند كل

على الشرق نَارٌ وللشرق نَارُ !

...

على الشرق نَارٌ سَتَفِي الطُّغْيَانُ  
 وتأكُلُ من سَدِّ يَوْمًا خُطَاةُ

ومن قِيَدُوهُ وَصَدُوا ضَحَاةُ

...

وللشرق نَارٌ عرفنا مداه  
 إذا أَذْنَتْ للجِهَادِ الصَّلَاةُ

دَقْنَا مع الغاصِبين الحَيَاةُ .

...

على الشرق نَارٌ وللشرق نَارُ

ليس في الديوان كله ، كما قلت ، قصيدة أو  
 مقطوعة ذات أثر شخصي أو نزعة وجدانية -

لا شيء إلا ما يتصل بوجدان الأمة في كفاحها  
 ونضالها ، فإذا انتهت أغنياته في معارك الحرية أطلتْ

عليها قصائده في «فجر الحرية» ولكن اتصاله بهذه  
 المرحلة : «البحث» ، «طريق العباد» ، «شجرة الحرية» ،

«يوم الخلاص» ، «موكب الوحدة» . وتكاد تكون أكثر  
 هذه القصائد في ثورة مصر - هذه الثورة التي :

نبتت في كلِّ صلب نابض  
 فيه للأوطان جرحٌ وأثر

...

زأر الصوت الذي هزَّ الوري  
 ومضى للقيِّد حُرّاً .. فانكسر !

ومضى للبيِّتِ في معقِّله  
 فهادى مثل مسحٍ بالبصر

من كفاح النيل .. من أبطاله  
 ومن الروح القوى المدخَّر

أنبتَ الله لمصر دَوْحَةً  
 تسكبُ العِزَّةَ من قلب الثمر

قصيدة ، فيعد أن سجل معارك الحرية التي خاضها  
الأمة العربية ، ويعد أن وصف شروق فجر الحرية  
خص " المرحلة الرابعة بـ " أغانى الحرية " وهى أغنيات  
حلوة عذبة تنبع من نفس صافية يحتمها الشاعر  
بهذه الأنشودة التي ترددها الملايين من أبناء العرب  
وفى الله على النور خطانا

وأكثر قصائد الديوان ، بل كلها أغنيات  
حزينة ، حلوة نقص قصة كفاح الأمة العربية عبر  
العصور ، ولا سيما فى النصف الأول من القرن  
العشرين - قصة النار والأصفاد التي يلخصها الشاعر  
بنشيدته الحارّ الذى ينبض كل كلمة من كلماته بالألم  
والنشوة . ثم بالهزة والكرامة :

ولمّا تشاكى القيّد حوّل ، وأعوّت  
من الرّق أياى ، وضجّت سلاسل  
وأخرسَ جلاّدُ الطفلة <sup>قيلوبى</sup>  
وشلّ حديدُ المستبد أنامل  
ودوخ أرضى ظالم .. فحصادها  
بكفّيه ، أحزانُ الرّق والجداول  
ولجت حوالى الحياة .. فلمعة  
تقول لأخرى : ذاب فى التيه ساحل .  
وحُرّ على التّضبان غنى عذابه  
وأخر .. حرّ فى قيود المصاعيل  
وزقّ أقدام غريب .. فأصبحوا  
وهم غربة تشقى بحزن المنازل

وأطرق غالى من دُحول . وأوغلت  
أفأعى الأسمى .. ترى بِسْمُ المقاتيل  
تلفت .. فانساب الدُّجى من مزارى  
مزامير ليل .. عن سخط الفجر غافل  
تلفت .. وانتفتت من الليل ثورة  
وفجر بكفّيا جسد المساعل  
ويشترى أذان مرّ بالليل صحوه  
كما مرّ بالأعواد حبد الماجل  
يوحد أيام العروبة زحمته  
ويسقى من أوطانها كلّ وأغل ..  
قلّت لئارى .. أذن الفجر .. فارتدى  
وشدّى حل الأصفاد شدّ المقاتل  
وما مرّ محرّ الطيف .. حتى ترتج  
وذابت قيودى من عميق المفاسل

فكبرت .. جلّ الله ! .. عادت حقيقى  
ورفت أناشيدى .. وغنت بلابل !  
إن الشاعر الذى عاش مع الأحداث ، ورأى  
فجر الثورة ، ورأى فجر انطلاق العرب الكبرى -  
من حقّه بعدما مرّ بحرّ الطيف أن يترنح . وأن ترن  
أناشيده وتفتى بلابه ..  
وأناشيده فى ديوان " نار وأسد " هى غير أناشيده  
فى ديوانيه " أدب الكوع " و " مكنا أنى " .  
من أغان رومانتيكية تتحدث عن الحب والطهر  
والأحلام إلى أغان تنبئ حكائما من الومع والشر  
وضرام التران - تران الثورات التي أضرمها العرب  
فى وجوه المستعمرين





# الحياة الثقافية في شهر

## منبر ثقافي جديد

في الشهر الماضي ظفرت الثقافة الجادة بإقامة منبر جديد ليتعاون مع منابر الثقافة في هذا البلد على السير بالثقافة قدماً . هذا المنبر هو مجلة « الكاتب » التي ظهر العدد الأول منها في شهر أبريل الماضي ، ويتولى رئاسة مجلس إدارتها السيد صلاح سالم ، ويرأس تحريرها الأستاذ أحمد حمروش ويقوم بسكرتيرية التحرير الأستاذة رأفت الحياط ، تعاونهم طائفة من خيرة الكتاب .

ولقد هدف القائمون بأمر مجلة « الكاتب » إلى توكيد ثقافتنا القومية وإبراز دورها الإيجابي في بناء أمتنا وفي بناء العالم ، حين وجدوا أن من الأخطاء التي تهدد ثقافتنا تبيح شخصيتنا وإذابة حضارتنا القومية في تيارات أجنبية ، بهرجاء عارض ، وعصبتها واضحة ، بحجة تحللنا الثقافي .

وهذهوا - كذلك - إلى توحيد الثقافة الإنسانية ووحدة الضمير الإنساني بالأخذ والعطاء ، حين وجدوا أن من الأخطاء التي تهدد ثقافتنا عززلنا عن تيارات الفكر العالمي باسم « الاكتفاء الذاتي » .

ثم رأوا أن توكيد تكامل المعرفة الإنسانية والقيم الإنسانية هو السبيل إلى دفع خطر آخر يهدد ثقافتنا ، وهذا الخطر كامن في تفتيت الثقافة باسم

التخصص الذي يزيّن للعالم الأمية في الآداب والفنون ، ويزيّن للأديب والفنان الأمية في العلوم ، وينتهي بفصل الخبرة عن القيم ، وتجزئة الإنسان في المواطنين .

ورأوا أيضاً أن توكيد الماضي والتعهد للجديد باتخاذ نقطة الابتداء من الحاضر في البحث عن أمسا وغدنا على السواء ، هو العلاج لما يهدد ثقافتنا من تحطيم التراث باسم التقدم والتطور ، وشل التقدم والتطور باسم المحافظة على التراث .

كذلك رأى القائمون بأمر تلك الحملة أن ثمة خطراً يهدد ثقافتنا وهو القصاص القائم بين ما هو خاص وما هو عام ، وهو يتجلى في الانبذال وفي بغض الثقافة الرفيعة باسم الجماهيرية والشعبية من جهة ، وفي احتقار الثقافة الشعبية باسم الصفوة الممتازة من جهة أخرى . والحل عندهم لهذه المشكلة هو توكيد حق الثقافة العليا في حماية نفسها من عبث العابثين ، وتوكيد حق الجماهير في ثقافة الصفوة الممتازة . وهذاوا - في رسالة تلك الحملة - إلى أن تنقل الحملة الجامعة إلى كل بيت دون أن تبتذل الحقيقة في سبيل الأميين من قراء أو كتاب .

ثم جعلوا هدفهم الأخير القضاء على النفاق الفكري ، وعلى التسرّع على مشاكلنا من ناحية ، وعلى المبادرة إلى تسفيه كل جهد قائم مها كان نبيل الغاية ، نبيل الطريق من ناحية أخرى ، وذلك بمناقشة هذه المشاكل في

من حدود القوة الضيقة حاجزاً تقف عنده إصرارنا ، بل يجب علينا أن نثبت للملا أن الكنيسة وحدة مستقلة عن أية أمة من الأمم ، وأنها تتوسم الخير في نشأة أمة جديدة .

ويقول المطران زغبى إن نشأة أمة جديدة عن طريق الاستقلال إنما هي خير ، وليست فقط خيراً لها ، بل للمجتمع البشرى بأسره الذى تزوده بقيمة جديدة وثروات جديدة .

ولقد ضمن المطران زغبى كتابه بحثاً عن : الكنيسة تحارب النصرانية في الجزائر ، اللاعنصرية والمساواة ، اللاعنصرية والإخاء ، معنى الوطنية في نظر رجال الكنيسة ، الكنيسة تستنكر أساليب قمع الثورة الجزائرية ، حتى استقلال الجزائريين في استقلال أرضهم لمصلحتهم ؟ إلى غير ذلك من البحوث التى تدعو إلى منح هؤلاء المجاهدين حنهم في الحياة الحرة الكريمة ونشر مبادئ العدالة والسلام .

ويظهر هذا الكتاب متضمناً آراء رجال الكنيسة وتعددهم للدولة الفاضلة الغشوم وثيقة من الوثائق الجديدة بالاهتمام

## الكتاب العربى المخطوط

لون جديد من ألوان التأليف ، ذلك الذى حرصت جامعة الدول العربية على أن تقدمه للناس مصوراً ، فقد اجتمع لمعهد المخطوطات القائم بهذه الجامعة - والذى يشرف عليه الدكتور صلاح الدين المنجد ، مديره ، والأستاذ كمال حمادة ، وكيله - طائفة من المخطوطات النادرة ، قرأى المعهد أن يعنى بناحية لم يُعنى بها أحد من قبل ، وهى تأريخ الكتاب العربى المخطوط من حيث ورقه ، والمخطوط المختلفة التى كُتبت بها على مر القرون ، وعنواناته ، وفوائده وخواتمه ، وفصوله وتزويقه ، وتصويره ، وتجليده ووقته على خزائن الأمراء والعلماء أو على المكتبات

صراحة تامة وموضوعية تامة ؛ بعيداً عن الزيف أو التقدير الهدام .

من أجل هذه الرسالة النبيلة قام هذا المنبر الثقافى الجديد ليؤدى رسالة نبيلة ، وإننا إذ نرحب بالزينة والكتاب ، إنما نرحب بروح تعاونى قوى يساندنا في رسالتنا نحو خلق الوعى الثقافى الذى تعمل في ميدانه المجلبة ، وتشاركها في هذا التكفاح النبيل زميلات عزيزات كجلى « الشهر » و « الأدب » .

## آراء رجال الكنيسة في ثورة الجزائر

خلال المعركة الدائرة بين آباء الضيم من أبناء الجزائر ، وبين طغاة الشر من أبناء فرنسا ، يُنشر بيننا كتاب جديد أخرجه مؤسسة المطبوعات الحديثة عنوانه « ثورة الجزائر والكنيسة » كتب المطران إلياس زغبى وجمع فيه آراء طائفة كبيرة من رجال الكنيسة يرون في وحشة فرنسا في الجزائر عمالة لتعاليم الدين المسيحى وخروجاً على أصوله ، يقول المطران شبولي مطران أنجيه بفرنسا في المحاضرة التى ألقاها في مدينة « ليل » بتاريخ ٢ أكتوبر سنة ١٩٥٥ :

« الكنيسة إذن لا تستطيع الوقوف إلى جانب الذين يمتدحون الحالة الاستعمارية أمراً دائماً ، مستثنين في هذا الرأى الخاطئ إلى ما يعود به الاعتبار على الدولة المستعمرة من هيبة ومنافع مادية » . أو كقول الأب رنيه قوايوم بصدد المحالة في الجزائر : « هل يمكن للكنيسة أن تساند تصرفات لا يجوز لها المبالغة عليها ؟ وهل يجوز لكاهن يخدم النفوس أن يترك المسيحيين الذين كلف رعايتهم يتهمون بسبابة تتناقض مع الفسير الإنساني والمسيحي دون أن يساعد على أن يموا واجباتهم ؟ لا شك أن الكنيسة الذين سيرفون موتهم بالاحتجاج يلزمهم تجرد نفوسهم وولى نير وقلب معهم بالحبية للتلايمونوا رسالة يسوع المسيح التى عهد إليهم أن يبلغوها للعالم بدون تحوير » .

وقد ورد في رسالة أعضاء « الجمعية الكهنوتية الفرنسية » : « إننا نحن كنيسة الكنيسة الكاثوليكية التى أسماها السيد المسيح ليسج الأجناس بلا استثناء لجميع المدنات لا يمتنع لنا أن نجل



● أقيمت في الإسكندرية حفلة أدبية تذكارية بمناسبة انقضاء عشر سنوات على وفاة الشاعر الأديب المحقق الأستاذ خليل شيبوب .

وما يذكر في هذا الصدد أن ديوان شيبوب ما زال مخطوطاً ينتظر من يعثه إلى الحياة كما بُعث أخيراً ديوان عبد الرحمن شكرى .

وكان المرحوم خليل شيبوب قد نشر ديواناً منذ أربعين عاماً عنوانه « الفجر الأول » كما نشر جزءاً من معجم قانوني قام بتصنيفه .

● حصلت دار « بنجوين » الإنجليزية على أربع قدرها ٣٦٤,٥٨٨ جنياً في عام ١٩٦٠ من بيع قصة « عشيقه الليدى تشارلى » التى ألفها د . هـ . لورنس . ويقدر هذا المبلغ بثلاثة أضعاف مجموع ما ربحته تلك الدار في عام ١٩٥٩ . وبلغ ما بيع من هذه القصة حتى الآن مليوني نسخة .

● زار القاهرة في الشهر الماضى الأديب الأوكراني الأستاذ يعقوب العودات الذى ينشر مقالاته وكتبه باسم « اليدوى الملم » فكان موضع حفاوة كبير من الأدباء العرب .

وقد انتهز فرصة زيارته للقاهرة فدفع إلى المطبعة بأصول كتابين هما : « البستاني » ، « معرب الإلياذة » ، ومجموعة أقاصيص . وهو يعد الآن كتاباً عنوانه « الأدباء العرب في المهجر » يتحدث فيه عن جميع الذين هاجروا إلى العالم الخارجى بما في ذلك أوروبا .

● صدرت في بيروت مجموعة أقاصيص مترجمة عن الإيطالية عنوانها : « أطفال وعجائز » للأديب الأردني الأستاذ عيسى الناعوري .

وقد فرغ الأستاذ الناعوري من إعداد كتابين جديدين أحدهما عن المستشرقين الإيطاليين الذين عرفهم ، والآخر قصة مطوّلة تصوّر روحانية الشرق بإزاء مادية الغرب .

● اهتمت الموائر الأدبية في لبنان بكتاب « فلسفة تاريخ محمد » للمؤرخ المعروف الأستاذ محمد جميل بيهم . ففى الكتاب فصول متممة طريقة عن النبي محمد بن خصومه وأنصاره في الكتلتين الشرقية والغربية ، والأحداث الفكرية والاجتماعية التى مهدت للإسلام ، وتطوّر سياسة محمد تجاه الأديان ، وتطوّر علاقاته بأهل الكتاب ، وتطوّر علاقاته السياسية بالدول ، وشخصيته ، وأثر الإسلام في اكتساب الناس .

ويناقش المؤلف كذلك في كتابه كتباً وآراء للدكتور فيليب حقي والدكتور إسماعيل موسى الحسني والأساتذة عبد الباسط الفاخوري وجرجى زيدان وجبرائيل جبور ومحمد عبد الغنى حسن وغيرهم . كما يصبح كثيراً من الأخبار الخاطئة حول سيرة الرسول وانتشار الإسلام ، ويردّ على المتحاملين على الرسول الكريم ردّاً منطقياً عقلياً مع الاستناد إلى الواقع التاريخي الذي تؤيده أصح المصادر وأوثق الروايات .

● ظهر كتاب « الرد على الماديين » الذى تناول فيه مؤلفه الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى بسط نظريات المذهب المادى وآراء دعائه ، ثم ردّ على هذه الآراء ، بانياً ردوده على ضوء نظريات الإسلام .

وقد عرض الأستاذ خفاجى للموازنة بين أصول الإسلام الروحية والاقتصادية والسياسية وبين أصول المذهب المادى .

● شهدت منابر الرأى في مصر في السنوات الماضية كثيراً من مواقف الدكتور محمد بهى الدين بركات ليندلي بآرائه - عن طريق المحاضرة أو المقالة - في ميادين الاجتماع والاقتصاد والفقه الدستوري والثقافة والتربية والتعليم . وكانت آراؤه في كل هذه الميادين تسم دائماً بجملة التوجيه وصدق النصيحة وإصابة الهدف الاجتماعي .

ولا يزال موقفه المشرف من حركة رسم

المخطوطة والمطبوعة ، وأغلب المطبوع نادر مفقود .  
وقد يَسَّر الأستاذ عبد الكريم العثمان ينشر هذه  
الأبحاث على الذين يدرسون الغزالي طريق الدرس  
والبحث ، حين جمع هذه الدراسات التي أرخت للرجل ،  
وحين ضمّن هذا الكتاب أوسع دراسة قدّمة عن حياة  
الغزالي وبيته ومولفاته وتلاميذه وآراء العلماء فيه بقلم  
السيد المرقضى الزبيدي .

ولم يكنف بهذا ، بل وجد أن الواجب غم عليه أن  
يشير إلى بعض الملاحظات حول حياة الغزالي وأسباب  
خروجه من بغداد ، وهل سافر إلى مصر ؟  
وقدّم لهذا الكتاب الدكتور أحمد فؤاد الأهواني  
أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة . ونشرته دار  
الفكر بدمشق .

● « النثر العربي المعاصر في مائة عام » . دراسة  
أوفت على التسعائة صفحة قام بها الأستاذ أنور الجندي ،  
شملت آثار أدبائنا الباقين في الفترة من عام ١٨٤٠ حتى  
عام ١٩٤٠ وذلك بفلهور وفاق الطهطاوى ومدرسته .  
ويبلغ عدد هؤلاء الأدباء ١٢٥ أديباً من جميع الأقطار  
العربية ، وقد قسّمهم المؤلف على أربع فترات متداخلة  
كانت أبرزها فترة ما بعد الحرب الأولى حيث ظهرت  
طائفة كبيرة من الكتاب الذين كان لهم أبرز الأثر في  
نهضة النثر العربي من حيث الأسلوب والمضمون .

وقد تناول المؤلف هذه الشخصيات بعرض لتاريخ  
حياة كلٍّ منهم وثبت لمولفاته وتقديم نماذج من كتاباته .  
كما تضمّن الكتاب دراسة مطوّلة عن تطور النثر في  
خلال معركة المحافظة والتجديد التي كانت أبرز معارك  
الفكر العربي في هذه الفترة ، كما تناول معارك اللغة  
العريضة والأدب الخُلّي والتجديد وأدب التجزئة  
والوحدة . وتناول بالبحث كذلك النوافذ التي فتحت  
للحركة الأدبية وهي : البعثات والهجرة والترجمة  
والأزهر والجامعة والصحافة .  
ونشرت هذا الكتاب مكتبة الأنجلو .

الكلمات العربية ومن ترغّات اللاتينية الحرفية للأبجدية  
العربية يرثى صداه في الآذان ، فقد أحسن الدفاع عن  
الرسم العربي ، وطالب بالتجديد في غير مجافة للأصول  
والتقاليد . كما لا تزال تنبؤاته منذ ربع قرن في ميدان  
الحياة الاقتصادية والثقافة الإنسانية وتعليم البنات تثبت  
صحتها .

وقد جمع الدكتور بهي الدين هركات محاضراته  
ومناظراته ومناقشاته ومقالاته في كتاب جعل عنوانه  
« صفحات من التاريخ » راجياً أن تكون ذات  
فائدة لمن يريد أن يتبع التاريخ أو يبحث أحوال البلاد  
في حقبة من أحفل حقبة بالحوادث والتطورات .  
وقامت بنشره مؤسسة المطبوعات الحديثة وطبعته  
دار الهلال .

● صدر في لندن باللغة الإنجليزية كتاب « الجليلور  
الفكرية للحركة القومية في مصر » من تأليف الأستاذ  
جمال محمد أحمد .

● أصدر الدكتور فيليب حتى كتاباً ضخماً  
جديداً باللغة الإنجليزية عنوانه « الشرق الأدنى في التاريخ » .  
وقد سجّل في هذا الكتاب أحداث خمسة آلاف سنة  
من تاريخ العرب .

● « سيرة الغزالي وأقوال المتقدمين فيه » . هو  
كتاب قدّمه الأستاذ عبد الكريم العثمان بين يدي المؤتمر  
الذي أقيم في دمشق لمروور تسعة قرون على ذكرى  
الغزالي ، جمع فيه وحقق مجموعة من أبحاث رجال  
التاريخ والطبقات والسيّر التي تناول حياة الغزالي  
وعصره وما إلى غير ذلك .

وقد راعى الأستاذ عبد الكريم أن يكون من بين  
هؤلاء : المعاصر للغزالي كعبد الغافر القارسي ، والمتأخر  
قليلاً كابن عساكر ، وهكذا حتى القرن الثالث عشر  
الهجري .

وجمع هذه الأبحاث من عدد من الكتب

● صدر في كربلاء بالعراق كتاب في جزءين للأستاذ غالب الناهي عنوانه «دراسات أدبية» ، ترجم فيه مؤلفة للأدباء والشعراء الذين ولدوا في كربلاء .

● منذ أشهر أصدرت مكتبة مصر مجموعة من المسرحيات تحت عنوان «مكتبة الفنون الدرامية» يشرف على تحريرها الأستاذ عبد الحليم البشلاوي ، ظهر منها حتى الآن تسعة كتب يتناول كل منها ناحية من نواحي الفنون الدرامية تختلف عن الأخرى . كان أولها «الأحرار» للكاتب الأمريكي «سندى كنجزى» وهي نموذج للمسرحية التاريخية . ثم «الرجل المعجوز» للكاتب الروسي «مكسيم جوركي» ، وهي نموذج للمسرحية الواقعية الأصلية . و «بيت الديمة» للكاتب الروسي «هنريك إبسن» ، وهي نموذج لمسرحية الأفكار . ثم «النبوع» للكاتب الأمريكي «يوجين أونيل» ، وهي مزيج من التاريخ والخيال . ثم «قطعة على سطح من الصمغ الساخن» للكاتب الأمريكي «تيني ويليامز» عالج فيها الشنود الجنسي . ثم «الشائعة» للكاتب الإنجليزي «تشارلز مونرو» ، وهي مثال لمسرحية المشكلة . وكان الكتاب السابع وعنوانه «عيوب التأليف المسرحي» للتأقذ الأمريكي «وولتر كير» أول كتاب في النقد المسرحي يصدر في هذه المجموعة .

وحين وجد المشرف على هذه المكتبة أن التليفزيون قد أخذ نصيباً وافراً في مجتمعنا قصر الكتاب الثامن على «ثلاث تمثيلات للتليفزيون» للكاتب الأمريكي «بادي تشايسكى» .

وأخيراً صدر الكتاب التاسع وعنوانه «مسرحية في العصر» وهي ملهاة في ثلاثة فصول للكاتب الهجري «فيرينك مولنار» وقد قام بترجمتها الأستاذ محمد فتحي المستشار الثقافي للجمهورية العربية المتحدة في بون عاصمة ألمانيا الغربية .

● لم تكد تمضي فترة قصيرة حتى كانت دار إحياء الكتب العربية (عيسى الباني الحلبي وشركاه) قد قطعت شوطاً كبيراً في إخراج الموسوعة الأدبية القيمة ، التي نهض بمهمة نشرها وهي كتاب «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد ، الذي يقوم بتحقيق أجزاءه العشرين الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم . وظهر منها حتى الآن تسعة أجزاء ، ولم يبق على ظهور الجزء العاشر إلا أسابيع قليلة .

● بدأ الدكتور فؤاد صرّوف - الذي رأس تحرير مجلة «المقتطف» زمناً طويلاً بعد وفاة عمه الدكتور يعقوب صرّوف - تسجيل ذكرياته الأدبية تمهيداً لنشرها في كتاب كبير .

● كان الدكتور أحمد موسى قد قام خلال وجوده في ألمانيا بعمل فهرس مبوّب موسّع لهلة «المقتطف» ، ثم ظل يتابع هذا العمل بعد عودته حتى استوفى السنوات السبع والسبعين التي صدرت فيها تلك الهلة .

والآن ينتظر الشروع قريباً في طبع هذا الفهرس الضخم الذي أعدّه الدكتور موسى لإعداداً بديعاً بحيث يسر على الباحث عن أية مادة نشرت في الهلة الوصول إلى غايته دون عناء .

● «ابن الروي في الصورة والوجود» . دراسة موسّعة للدكتور علي شلق ، خالف في كثير من نواحيها ما ذهب إليه دارسو ابن الروي ، ولا سيما الأستاذ العقّاد .

وفي الوقت ذاته صدرت في بيروت ترجمة لكتاب المستشرق «روغن جست» عن ابن الروي ، وقد قام بهذه الترجمة الدكتور حسين نصار .

● يصدر قريباً كتاب جديد من مخطوطات المرحوم الأستاذ سلامة موسى عنوانه «ما هي النهضة ؟» أبرز فيه أهمية العقل والعلم والأسس الحضارية للجماعة .

## معارض الفن

بمقام الأستاذ محمد صديق الجباجنجي

● في ٢٩ مارس افتتح الفنان ميشيل كنعان معرضه الثاني بصالة العرض بدار الأخبار بشارع الصحافة .

ومعروضات هذا المعرض هي استمرار تقدي لمعروضات المعرض الأول الذي استبعد فيها العلاقات القائمة بين الفنان وما يراه أو يستشعره في وجوده وواقع حياته ؛ ليعيش في أوهام الفكر المطلق للا محدود .

ويقول الكاتب جورج حنين في دليل المعرض « إن ميشيل كنعان يزود مساهم لكى يسط المساحة ، يستعمل الخط لكى يملك المقد ، ويستخدم مصادر الخشب لكى يرى من خلالها كل شيء ، ويشيد من عيوب الحديد أسواراً . . . ليعمل المادة تبرز عما هو خامس بالإحسان وحده . . »

وبمثل هذا الكلام وغيره من الألفاظ التي استعملها الكاتب جورج حنين في تفسير فلسفة الفن مجرد ، الذي تدفعه الطاقة الماحقة المعادية لقوانين الجبال النوبعي الذي تؤمن به النفوس المادقة المستقرة المستقرة في تأملاتها الروحية أو العقلية ، نجد أصصاً في حيرة وقلق وشك في سلامة العقل البشري ، إذا اعتبرنا أن ما يقدمه الفنان كنعان فن يقوم على غير المألوف اللطيف والدعاية والابتكار في استخدام مواد مسهلّة ومتبينة كأنها أضغاث أحلام .

● وفي مساء يوم الأربعاء الموافق ١ أبريل افتتح الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة والإرشاد معرضين أولهما صالون « جمعية أتيليه القاهرة » الرابع واشترك فيه ٣٢ فناناً وفنانة من أعضاء الجمعية ببنّان وحسن لوحة وتمثالاً وهم : إسماعيل منشا وآشود زوربان وإلهام كاتلي عياد وأنجي أفلاطون وحسن البناي وخديجة رياض وراتب صديق وراغب عياد ورسميس يونان وسعد الحادم وسعد محمد كامل ومند بسطا وسيمون سامسويان وسيمون مسعود وصبري راغب وصديق الجباجنجي

وعبد الحادى الجزار وعفت ناجي وعلى كامل الديب وعائلة شحاته وفرانشكو ديلايكون وفؤاد كامل وفيسلا فريد وكال النحاس وليل عزت ومارجريت نخله ومير شريف وموريس فريد ونظير خليل ويوسف سيده ويولاندا موسكاتيلي . واستمر المعرض حتى ١٨ أبريل .

● وفي اليوم نفسه افتتح السيد الوزير بمتحف الفن الحديث معرض الفنانين الخمسة الذين انقضى على تفرغهم العام الأول وهم : تحية حليم وراتب صديق ورسميس يونان وصمويل هنري وعبي الدين طاهر . ويعبى المعرض ثمانين لوحة وتمثالاً غالباً تم في سنة التفرغ التي انتهت بنجاح ، وبعضه عرضه الفنانون لتعريف وجهات نظرهم الفنية ، ومع ذلك ما زلنا نجد روح التشاؤم تغلب على ثلاثة منهم ، لأن اللجنة العامة للتفرغ أصيبت بقرارها — بحضور تسعة أعضاء من بين سبعة عشر عضواً — بالتفرغ لسنة أخرى لاثنتين ، وهما المصور رسميس يونان والمثال عبي الدين طاهر . فلماذا إذن رفضت اللجنة استمرار تفرغ الثلاثة الآخرين ؟

هذا هو السؤال الحائر بين الفنانين التشكيليين الذين كانوا يأملون أن يزداد عددهم إلى عشرين أو ثلاثين بدلاً من أن ينقص إلى اثنين . وأن يكون التفرغ لمدة خمس سنوات على الأقل بدلاً من أن يكون لسنة واحدة ، على أن يقرر بعدها استمرار التفرغ بصفة دائمة ، طالما أن الفنانين يؤدون واجهم الفني كما ينبغي .

وفن رسميس يونان الذي يقلعه على تسع لوحات زيتية هو من النوع التجريدي الذي يحتاج إلى ثقافة فنية وأدبية عالية لإدراك المعاني الخفية التي تتضمنها تلك المحاولات الغامضة التي يلذ للمشاهد أن يشارك الفنان في الكشف عنها . وهذه التجارب التي لا تقدم نتائج حاسمة ، ولا تحمل أسماء لمسميات معلومة ، توحى بأن



لوحة من الفن التجريدى

الفنان ريميس يونان

كسيكة منسوبة من الذهب ، شكلتها يد الفنان بمهارة وحظ وذكورية في استعمال أدوات التلوين واستغلال كل الإمكانيات والخدعات التي جعلت منها صورة لطبيعة ثانية مستلهمة من عوالم خفية غير منظورة .

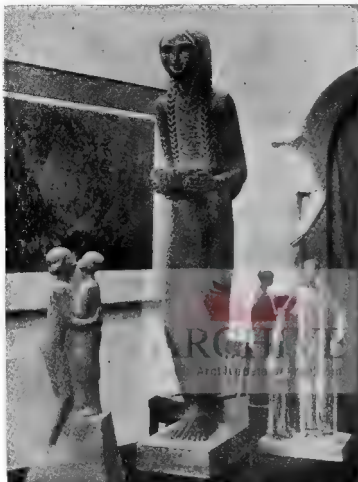
أما فن المثال محيي الدين طاهر فهو نقض فن المصور ريميس يونان ، فتجده يتمسك بالصورة الظاهرة وبهم بتفاصيل أعضاء الجسم في أرشق حركاتها . وهو لا يؤمن إلا بالشكل الذي يراه وينقل عنه بأمانة ، محاولاً أن يصوغ مقاييس الجمال في أقرب صوره الحسية التي يألفها الناس في الطبيعة . ولقد نال الفنان محيي الدين طاهر موافقة لجنة التفريغ بالإجماع على التفريغ لفنه لسنة ثانية . وملاحظتي على فنه أن نجاحه وتوفيقه في التماثيل الصغيرة المعروفة باسم Bibelots — وهي التي استحق عليها جائزة الدولة التشجيعية لعام ١٩٥٩ — لا يعنى أن يكلف نفسه مشقة عمل التماثيل الكبيرة .

ويتلخص فن المصورة تحية حلم في العناية بسطح

الأضواء والظلال تستطيع بنون تطيق على صور الإنسان أو الأشياء التي تعودنا رؤيتها ، أن تكون في ذاتها موضوعاً لأشكال ذات معانٍ معلومة في وجداناتنا .

والوجدان هو عِزٌّ ذكريات الطفولة ، ولا يكاد يتبينها العقل الواعي إلا إذا توفرت له فرصة التأمل ، لا مجرد الرؤية السطحية العابرة . وهذا التفاعل بين المجهول والمعالم . . بين المعاني الخفية والظواهر الشكلية ، لا يتم إلا عن طريق الرمز الذي يمكن الاستناد إليه في تجربة التأمل والتأويل والكشف عن خفايا النفس الباطنة . ويشير الفن التجريدى الذى يقدمه الفنان ريميس يونان بالتفاصيل الدقيقة لتكوينات خطية متشابكة لا حصر لها كأنها الأصداف ذات الشعب المتنوعة الأحجام والأشكال التي يخرجها البحر من جوفه في سكون الليل ، ليضهما على الشاطئ ، فإذا تأملتها وجدت فيها من الأشكال ما لا يحيط به بال ، واستعمل فيها مشتقات اللون البنى فبدت كل لوحة





مجموعة  
من التماثيل

للنحاتن  
محسن الدين طاهر

يلعب فيها الزخرف بإحساس شاعري عميق المعنى .  
ولضربات فرشاة ألوانها الجريئة أهمية في تأكيد ملمس  
اللوحة وتفسير معاني الأشكال والوجوه وحركات  
الأجسام التي تصورهما على طبيعتها الأولية .

ومن بين ما يقلعه المصور محمد راتب صديق  
ثلاث لوحات يبدو فيها شعوره العميق بالدراما ، وهي  
« لقاء سليمان بملكة سبأ » و « المشاء الأخير » و « قابيل وهابيل »  
وقد أعتمها في فترة التفرغ مع ثلاث لوحات

وملمس اللوحة عناية خاصة ، واستعمال الألوان التي  
تنتمي إلى فصيلة الألوان الرابضة الطبيعية ومزجها  
بمركبات لتساعد على التماسق فيها إلى درجة تبدو  
فيها قرينة الشبه من صور « القرسك » التي نشاهدها  
على الجدران القديمة . ويعززها في ذلك أسلوبها التعبيري  
الذي تضحى من أجله بالتفاصيل الواهنة التي قد  
تعوق تعبئة لوحاتها بالمعاني الإنشائية التي تجيش بنفسها  
فتبادر إلى إثباتها في خطوط أساسية صريحة صادقة

والحركات والأوضاع . ومثل هذا الاتجاه نحو معالجة مواضيع تاريخية يحتاج عادة إلى دراسة واعية لتفاصيل الأحداث والعوامل النفسية والمادية الدافعة إليها ، وهو أمر لا يشق على فنان مثل راتب صديق لما له من الثقافة والخبرة التي جعلته ينفرد بين زملائه المتفرغين بتسجيل الأحداث التاريخية .

أما المثال صمويل هنرى فنجدته إلى جانب اهتمامه بالمواضيع الاجتماعية والإنسانية في تمثال « السائل » و « حامل الجرار » . يميل أيضاً إلى الجانب الشعري في تماثيل « الطلقة » و « هم » و « قبله سائرين » .

ونجدته يعود إلى المصور البدائية في تقدير مقاييس الجمال في بناء التمثال بشعور قوى راسخ في تبسيط سطوح الكتل وتوزيعها وإبراز أهم الجوانب التي تعزز الموضوع الذي يستوي به . . وقد يكون حصاناً أو قطعاً أو وجهاً لإنسان .

والجداوة في الفن أساسها البساطة ، ورسوخ



تمثال صمويل هنرى .



تمثال نعمة حلم

النظار

أخرى . أما لوحة « ملحة الأبرياء » فهي إلى جانب لوحات ورسوم أخرى أتتها منذ سنوات تعزز أسلوبه الفني الذي يعالج به الأشكال التي لا تتركب من خطوط بل من ظل ونور . والألوان لا تجدها لمسات ذات وضع معين ، بل تبدو سابعة في بحر من الأضواء المشعة المختلطة بالظلال العاكسة . وثمة ظاهرة أخرى تؤكد ميله إلى الاتجاه الدرامي الذي يقوم على التعبير بالإيماءات



لفنان أحمد فتح الله

من المولد

نوحة تقدم بها : أحمد فتح الله وأحمد محمد الرشيدى  
ورفعت أحمد والدكتور رمسيس حبيب وسعد الدالى  
وعلى محمد صوفى ولىلى الصاوى وحسن حسين  
ومحمود عبد الرشيد ومحمود محمود قناوى ومبراد نسيم ،  
و ٣٥ تمثالا تقدم بها : إسماعيل وبصا وأمنية السيد وألفى مئى  
و ١ . بوجيخان وجلال قابيل وحسن رفعت وسيد  
أبو السعود وعبد المجيد شكرى وفايزة محمود لإبراهيم  
وفتحه عاتوف وفوزى أحمد عبدالله وفتحى هابيل  
ولاستيان ولىلى الأزهرى ومحمد مصطفى ومحمود  
بربرى ومجدية مجدى ومعالى عبد العزيز ووام شنوده ،  
وهم آخر دفعة من طلبة النظام القديم الذى كان يحوّل  
للطلاب الدراسة أربع سنوات ليتقدم بعدها إلى مسابقة  
مرسم الأقصر .

ويبدو فى جميع اللوحات والتماثيل المعروضة الرغبة  
الصادقة فى مزاوله الهواية الفنية بحب وإخلاص . ومن  
بين هؤلاء الشباب الموهب الموهظ بالتلقونات أو السكة

التكوين البنائى ، وتجنب التفاصيل الدقيقة ، وتركيز  
الاهتمام على جزء أو جزئين فى التمثال للتعبير عن  
المضمون ، كما نرى فى تمثال « النسيم » وقد برزت  
عيناه ومالت رأسه إلى الخلف وهو يروى عطشه بينما  
امتلاء جوفه بالماء حتى تكورت بطنه من الامام .

والفن البدائى نشأ نشأته الأولى فى كل مكان كما  
ينشأ الطفل ، ويتشابه عناصره مع عناصر الفن التعبيرى  
الذى غزا أوربا مع ربيع الشمال ليثبت وجوده فى ميدان  
الفنون الحديثة . . وهنا تتبادر إلى أذهاننا الرسوم التى  
تقدم بها المثال صمويل هنرى ، وجميعها من المنهج  
التعبيرى من حيث التكوين والتأوين ، أما الخطوط  
الرفيعة التى تسيل عنوية ، فهى تفيض القوة التى تم  
عنها تماثيله لتعوض شعوره المتكامل بالحياة .

● وفى مكتبة الفن بمتحف الفن الحديث نظم  
ثلاثون من شباب الفنانين من طلبة القسم الحر بكلية  
الفنون الجميلة المعرض الأخير لأعمالهم التى تبلغ ٢١

التصوير والنحت يجعلهم في حيرة بين وجهات النظر الفنية المختلفة .

وقد يكون هذا النظام أفضل للطلاب حتى لا يكونوا تحت تأثير واحد مباشر ، وحتى تبنياً أمامهم فرصة الاستفادة من كل أستاذ ، بدون تقليد أو اتباع .

والمعروضات في جعلها تدل على توفر الحفاصة والرغبة في مواصلة دراسة الفن دراسة واعية ، وأن هذه المواهب ما كانت لتظهر أو تنكشف إلا بتيسير هذه الدراسة الحرة التي أنشأتها وزارة التربية والتعليم في سنة ١٩٤٢ وألحقها بكلية فنون القاهرة ، بدون قيد أو شرط ، كما أجازت لمن يرغب بعد دراسة أربع سنوات التقدم إلى مسابقة مرسوم الأقصر الذي أنشأه الدكتور طه حسين - عند ما كان وزيراً للتربية والتعليم - ليكون عوناً للفنانين الناشئين على دراسة تراشهم الفني بين آثار طيبة القديمة .

وإذا كان الفن الصادق هو ما يصدر عن الهواية والحب فإن الفنانين الأحرار ، قد أثبتوا في معرضهم الأخير رغبتهم في مواصلة دراسة الفن ، الذي هو خير ما ينفعهم في أوقات فراغهم ، فخير الناس أنفعهم للناس ، ولا يتأتى هذا النفع إلا بالنفع الدافع إلى حب الجمال وحب الخير . أما أصحاب المواهب الفنية الذين حرمتهم ضرورات الحياة من أن يعيشوا لفنهم ويشاركوا في النهضة الفنية مشاركة فعالة ، فهم أحق بالرعاية والاهتمام ، طالما أننا لا ننكر الموهبة والاستعداد الشخصي في مجال الإبداع الفني . وأمام كلا الفريقين متسع للدراسة بالقسم الحر .

والدراسة الحرة هي علامة من علامات انتشار الوعي التام في قلوب أسبق وأرقى شعوب الأرض حضارة وفقاً ، فعلى أرض وادي النيل توالى الحضارات الفرعونية واليونانية - الرومانية ، ثم المسيحية والإسلامية في أكثر من ستة آلاف سنة ، ولا يكاد بلد في الإقليم



لفنان جلال قاييل

العامل

الحديدية أو مصلحة السياحة أو هيئة التليفزيون ، ومنهم الطالبة بكلية الآداب ، أو الحاصل على بكالوريوس طب قصر العيني أو ليسانس قسم الآثار بكلية الآداب . . فهل يليق أن تعدل لائحة القسم الحر لتحرم هؤلاء الفنانين من متابعة هوايتهم الفنية باقى المدة التي نصّت عليها اللائحة التي انضموا على أساسها إلى هذا القسم ؟

ويقول المسئولون إن الدراسة الحرة باقية ومستمرة ، ويقول الطلاب إن إعادة تقديم - وفقاً لنظام اللائحة الجديدة - يفوّت عليهم السنوات الدراسية السابقة التي تحوّل لهم الاشتراك في مسابقة مرسوم الأقصر ، وإن كثرة عدد الأساتذة المتدربين للتدريس في قسم



من وجى النيل  
العثان مراد فسيم

يلجأ إلى تصوير واقع حياته ومشاهداته ومشاعره بالنسبة  
لشئء معلوم يحدد الأوصاف .

وتخرج معظم هذه الانطلاقات من الوجدان المعبأ  
بالذكريات وفشحات عاطفية ، كلما حاول استغلالها  
وإثارتها ، تفجرت وازدادت وتكاثرت طاقاتها التي  
يتولد فيها الشر ويتحول إلى قوة دافعة متحركة تأتى  
الركود أو الاستسلام للتأملات الشاردة المضطربة لدوافع  
الإلهام والابتكار والإبداع .

ويجوز المعرض مائة اسم لائحة مختلطة في  
أحجامها وألوانها وأساليبها ، وتشترك جميعها في الدلالة  
على قدرة الفنان صلاح طاهر على تحريك يده عشرات  
المرات في تصنيف التعبير التجريدى في كل مجالاته  
واتجاهاته . وتتفرد كل لوحة منها بمحطات نجد منها  
ما لا تجده في غيرها .

والتجريد الإرادى يحده ذوق الجمال والنظام لعلم  
الأشخاص والأشياء ، يرى الفنان صلاح طاهر يتنقل  
مع مفاهيم تحدد معانيها فكرة شائعة بين الناس ، ليشترك  
فيها بعواطفه الإنسانية ؛ منها لوحة «الكونفر» الذى

المصرى يخلو من آثار تلك الحضارات التي هي الميراث  
الأول لحضارة الإنسان . فن البدرشين والجزيرة وميت  
رهينة وعين شمس واللاهون إلى آسيا وبنى حسن  
وتل العمارنة والأقصر ، ومن صا الحجر والبروم وأسبوط  
وجرجا إلى القسماط والقاهرة والإسكندرية والمنصورة ،  
تنشر الآثار التي يتكون منها تراثنا التاريخي والفني  
الجدير حقاً بالدراسة والبحث بما يلائم روح العصر  
الحديث . ولعل من أبسط ما يحقق هذا الغرض هو  
التوسع في تعميم المراسم الفنية الحرة في كل الأقاليم ،  
وهو أمر موكول إلى وزارة الثقافة والإرشاد إذا أرادت  
الأخذ به لتحقيق نهضة فنية لانتقل في أهميتها عن مشروع  
تفرغ الفنانين ، بل لعل مشروع التفرغ عند ما يصبح  
حقاً لكل فنان عامل يكون عدة هذه المراسم التي يمكن  
بها أن يحقق نهضة فنية إقليمية متميزة .

● وفي قاعة «الفن للجميع» قدم الفنان صلاح طاهر  
من ١١ إلى ٢٤ أبريل عرضاً لأعماله في الفن التجريدى  
الذى يجد فيه مجالاً لانطلاقاته المحررة من القيود  
وعبودية التقاليد التي كانت تحدد طريقه عند ما كان



لفنان صلاح ماهر

الكونتر

تستمد مادتها من المحصول الثقافي لتوضيح دوافع نفسية  
حسية .

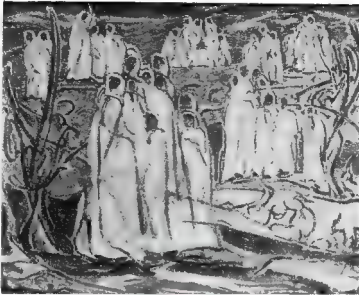
وهناك أمثلة من التجريد الهندسي نشاهدها في أكثر  
من لوحة ، نذكر منها لوحة «دردة» و«خطوات رصينة»  
و«نم حنسي» .

وهناك نوع من التجريد الجبري ، ويبدأ بالهمس  
الرفيق في لوحة «وجاء» و«طرب» ، ومن الترانيم  
الموسيقية الهادئة في لوحة «ترابط» و«حركة مرحة» إلى  
الصراخ في لوحة «الكونتر» ، والصياح العاطفي الذي  
تردد فيه نداءات ملوثة في لوحة «الهب الرافض»  
و«مشاركة وجدانية» و«كبت» ثم لا يلبث حتى يعود إلى  
البهجة في لوحة «انتحالي» و«طرح» و«ضخمة مجلبة» .

وهناك نوع آخر من التجريد الميتافيزيكي يضعف  
فيه جهوده للبحث عن جوهر جديد في لوحة  
«غولم بيضاء» و«من النوبة» و«جورقي» و«مكان مهجور» .

اضطربت لها حواسه ومشاعره فراح يضرب بفراشة  
ألوانه بقسوة تفسر بشاعة المأساة التي يعيشها الكونتر ،  
وتتألف عناصر الدراما العنيفة من بقع من الألوان  
الحمراء تتخلل مساحات من الخطوط السوداء الثائرة  
التي ترمز إلى شبح الخيانة الوطنية . وفي لوحات «الحباج»  
و«الجزائر» و«إفريقية» توضيح لصلوات الأفراد  
يلحسها روحاني بنائي تضامني .

والتجريد غير الإرادي يحدده الانفعال النفسي  
لعالم المفاهيم والقيم الفنية ، وأوضح مظاهر هذا التجريد  
نجدها في لوحة «ظلال لك» — التي خصها الدكتور  
ثروت عكاشة بإعجابه — وتتكون من ظلال سوداء  
متناثرة على أرضية اللوحة البيضاء ، وهي من فصيلة  
التجريد الرمزي لإحساس غامض يتأق عادة من غفو  
الخطاط ، ويعتمد على اللوح الجلي في تشكيل انفعالات  
تحلقها الحساسية التي لا تستند إلى دوافع حسية ، بل



الفنان صلاح طاهر

الحجاج

حتى يوم ٢٥ بجمعة أثليبه القاهرة . وبحوى المعرض ٥٣ لوحة وتماثيلان .

والفن عند رشيد خفاجى صادر عن هواية الى هي أصلى الدوافع الى إجادة التعبير عن الانفعالات ، والمشاعر والبيئة التي يعيش فيها ، عند ما يعزز هواية بالدراسة العلمية لتكنولوجيا العمل الفنى ، الأمر الذى دعا رشيد خفاجى الى أن يحاول بالتجربة العملية التطور بفنه بسرعه فى مراحل متباعدة - له فى كل منها أكثر من عمل متميز - منذ بدأ فى سنة ١٩٤٨ دراساته بالقسم الحر بكلية الفنون الجميلة . والدأب على البحث هو من سمات طموح الفنان الذى يأتى على نفسه الركود أو الوقوف ، بقية الكشف عن الأسلوب الذى يصدق حسه ويساعده على التعبير الصادق عن مشاعره وأفكاره . وفى رأى أن لوحة « رقص بلدى » هي بداية طريقه الجديد .

وفى التجريد غير الإرادى لا يمثل الفنان صلاح طاهر - عند بداية العمل - الصورة النهائية ، ولا يسعى الى هدف معين ، بل أراه يرسم الخطوط ويضع الألوان ، ويتولى عملية الحذف والإضافة مرات ومرات . ويظل يواجه بنفسه تجاربه الفنية ودراساته الأكاديمية الأولى ، وتطور علاقته بالعمل الفنى الذى يعتمد فيه على الفطنة والتلقائية والاسترسال فى مضاعفة حركات الخطوط والألوان الخالصة أو المشتقة أو المركبة بكافة درجاتها وطبقاتها ، حتى يرتفع البناء ويتخذ شكلا يرضى عنه فؤقه بتوفير عناصر توحى بمركب الأشكال ومركب المعانى ، التى تتيح للمشاهد فرصة تأمل حوامل جديدة .

● ومرة أخرى نلتقى مع المهندس الزراعى رشيد خفاجى ، لا فى الإسكندرية بل فى القاهرة ، حيث يعيد تقديم معرضه الأول الذى افتتح من ١٩ أبريل واستمر

« حازف الرماية » ومن « التربة » و « فلاحات » و « درع »  
 و « مريوط » و « قلط » وفيها استعمل الألوان الداكنة  
 بأسلوب راسخ البناء على عكس لوحة « المسد »

ولقد سئل المصور الفرنسي « أوجين كارير » الذي  
 كرّس حياته لتصوير الأمومة وحدد أسلوبه باستعمال  
 الفرشاة العريضة في توزيع درجات لون بني واحد  
 قريب الشبه من مزيج القهوة واللبن « كايوتشيونو » ،  
 ماذا يصنع لو طُلب منه تصوير بيفاء ؟ فأجاب إن  
 هذا ليس من اختصاصه .

ومن هذا القول نستطيع أن ندرك أهمية أسلوب  
 الفنان الذي تحدده ميوله وتجاربه .

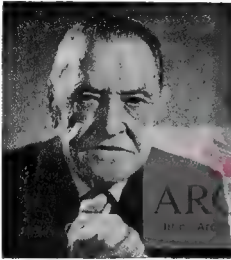
والفنانون المصورون هو أكثر الفنانين تطلّعا  
 وتطوراً واختلافاً في تقدير القيم الجمالية، وطريقة التعبير  
 عنها بالأسلوب الذي يروق لكل فنان ، تبعاً لكثرة  
 وتنوع المواد التي تستعمل في هذا الفن ، واختلاف طبيعة  
 عناصرها ، علاوة على اختلاف الأحاسيس الشخصية  
 والمواضيع التي يألّفها والمناظر التي تسويه ، لتصبح  
 عنصراً من عناصر شخصيته الفنية . وبهذه القوارق  
 الجوهرية يستطيع كل فنان أن يختار ويحدد نوع اللغة  
 التي يجيد التعبير بها بطلاقة .

ومن بين لوحات الفنان المهندس رشيد خفاجي  
 ما يحدد ذاته ووجهة نظره الجمالية في فن التصوير مثل





## مِنَ مجلَّات الشرق والغرب



سورست موم

### عرض وتلخيص

بقلم الأستاذ عبد النعم شمس

#### ● وجهات نظر «سورست موم»

نشرت مجلة ( الكتب والكاتب ) البريطانية مقالين متتاليين عن الكاتب البريطاني المعروف سورست موم ، جاء بهما معلومات طريفة عن حياة الكاتب وعن فنه تقول الحلقة إن موم مليونير ، وهو أغنى كاتب بين الأحياء . ويقيم في بيته المكون من ١٢ غرفة في الرفييرا الفرنسية ، ومعه سكرتيره الخاص (الآن سيول) وطيّاخ وثلاثة من الخدم . ويوجد دائماً في بيت الكاتب الكبير ضيوف ، بعضهم مدعوون لزيارته ، وآخرون قادمون بغير دعوة .

ويكتب موم مذكراته التي يطلق عليها اسم ( الخفية البالية ) وهي التي أوصى بنشرها بعد موته . وفي كل صباح يضيف إليها صفحات من ذكريات شبابه . أما مؤلفاته التي لم تنشر فقد أحرقها واستغنى عن نشرها .

لقد كتب موم من أجل الحصول على المال ، وبيته الكبير مليء بالتحف المتشقة بعناية تامة ، وهي تضم لوحات عالمية ، وقطعا نادرة من البورسلين والبرونز والعقيق .

وفي مطلع حياته الأدبية وجه إليه نقد شديد لصبره بقوله « إنني أبلئ الثمرة والمال . ولذا نجح موم

في تحقيق ما ابتغاه وصفه بعض النقاد وكثير من الكتاب المتألمين أو الأقل منه موهبة وشهرة بقولهم : « إنه كاتب تجارى » . وكان رده على ذلك : « لماذا يفضب الناس لأنني حصلت قديراً كبيراً من الأموال من طريق كتي ؟ إنها الحياة ! ... لقد كنت في حاجة ماسة إلى الاستقرار وراحة البال ، فهايتنفسى وهدئت لما الطريق .. إن الاستقرار يمنح الحرية »

وهذه الحياة القلقة غير المستقرة التي يشير إليها موم بدأت بمولده في باريس عام ١٨٧٤ . فقد توفي أبواه وهو في العاشرة ليتبناه أحد أعمامه . وكان ذلك

الم رجلاً قاسياً فظلاً لا ينبغي أطفالاً . وزاد من قلق موم في ذلك الوقت أشباح مرض السل التي كانت تراهى له وهو لم يعد بعد طفلاً صغيراً بالإضافة إلى إصابته بالتلعثم . ولم يكن موم في المدرسة الداخلية تلميذاً اجتماعياً متفاعلاً كبقية أقرانه ، بل كان ينسحب في سكوت لينزوي في قوقته العادته ، وحيداً يتأمل .

ولم يوفق في أول عمل اختاره لنفسه ، ألا وهو الاشتغال بالقانون والخلمة في السلك الدبلوماسي . فانتقل إلى دراسة الطب بالكلية الملكية في جامعة كبريدج ، ثم في جامعة هيدلبرج بعد ذلك .

وفي أوقات الفراغ كان يلجأ موم إلى كتابة مذكراته التي ضمها خبراته وآراؤه واستنتاجاته وهو يعتبرها بمثابة دائرة معارف خاصة يرجع إليها وقت الحاجة .

ويقول موم في مذكراته هذه : « بعد استحقاق الكتابة ظلت عشر سنوات لا يزيد دخل السنوي من مائة جنيه » ولم يبدأ دخل يرتفع بتدريج مرموقة إلا بعد أن نشرت مسرحيته الأولى « ليدو فردريك » وكان ذلك عام ١٩٠٧ هـ .

وفي مكان آخر من مذكراته يقول سومرست موم :

« إنني لم أكن أبداً إنساناً اجتماعياً .. لم يكن يلد لي الاستمتاع بصحبة الآخرين .. إنني لا أستطيع مطلقاً تبيان نفسي . والرجال من حيث هم كذلك ، لا يثيرون اهتمامي في شيء ، ولكنني أهتم بهم من حيث هم أفراد يمكن استغلالهم كأداة لكتابتهم .. .. إن نواحي القسوس ، والانتقالات المنيفة - وليست الشهرة - هي التي تثيرني ، وهي التي تعرضت لها في مؤلفاتي . إن حياة المشاعير والمظاهر غالباً ما تكون سطحية خالية من هذه المشاعر والانفعالات ، أما الرجل الباطني فهو لا يفتنى شيئاً من ذلك ، ومن الجدير التعرف على إنسانيته » .

وطاف موم العالم شرقه وغربه باحثاً عن شخصيات لقصصه . وهو في ذلك يقول :

« لقد سافرت كثيراً . أولاً لأنني أحب الأسفار ، وثانياً للبحث عن شخصيات وموضوعات كتابتي . ولم أذهب إلى الهند في

أول الأمر لاستقصي أن رديارد كيبلي قد تناول في قصصه كل ما يمكن أن يكتب عن الهند . ولكنني بعد أن زرتها أخيراً أسفرت أشد الأسف ، لأنني لم أفعل ذلك متعشرين عاماً مضت . لقد شاهدت هناك أشياء كثيرة .. كثيرة جداً .. لم تعرض لها كيبلي في مؤلفاته قط »

ومع أن سومرست موم يبلغ الآن السابعة والثمانين من عمره فهو لا يزال مفرماً بالأسفار والرحلات . ولم يطرأ أي تعديل على برنامجه الخاص بالكتابة . وفي كل يوم يسير موم ميلاً كاملاً داخل حديقته القسيحة ويطيب له كثيراً الاستحمام في حمام السباحة الفخم الملحق بمنزله ، وهو يدخن دون انقطاع ، ولكنه أقلع عن الخمر ولا يتناول سوى كأس واحدة من شراب « المارتين » قبل الغذاء .

وعندما سئل سومرست موم عن وجهة نظره في الأدب بصفة عامة ، وكتابته هو بصفة خاصة وعن رأيه في وصف النقاش له بأنه مجرد قصاص محترف أجاب يقول :

« إنني أليس في شيء . إن يقال عن إنني قصاص محترف . بل على العكس فإنني أفتخر بذلك ... إن الهدف الأساسي لقصتي في نظري هو تحقيق أكبر قدر من اللذة والقشعرور بالقلم ؛ لذلك فإنني لا أجد أية غشاشة في أن يحترف إنسان الكتابة طالما أنه يسهم في بلوغ هذه الغاية . أما من يكتب للنشر ذلك الهدف ، فهو غالباً لا يقرأ . ولا أفرق تماماً لماذا يكتب ! »

ويجيب سومرست موم عما إذا كان ينوي كتابة روايات جديدة فيقول :

« لقد فرغت من تأليف كتاب يتضمن عدداً من المقالات ولكنني أن أكتب قصصاً جديدة بعد الآن . لقد كانت آخر رواية كتبها هي كاتالينا Catalina التي نشرت عام ١٩٤٨ ... لا تنتظروا روايات أخرى حتى إذا بلغت المائة عام ؛ ذلك أنه من التادر أن يحصل المرء على أفكار جديدة بعد انقضاء سنٍ شبيه الأولى . وفي الواقع فإن كل قصصى تقوم على أفكار تعود أصلاً إلى أيام شبابه ... إنني أستطيع اليوم أن أقول إنني قد كتبت فعلاً كل ما أريد أن أكتب » .

ويتحدث سومرست موم عن علاقته بالخالق والكون فيقول :

من ذلك، فهي غالباً شخصيات ضعيفة تتضح في سلوكها كثير من نواحي النقص والتعرض للعديد من المشكلات أما شخصياتها من النساء فهن أكثر ضعفاً ، ضيقات الأفق يتميزن بالآتانية إلى أبعد الحدود

وعندما وجه النقد إلى موم على أنه إنسان لا يبحث إلا عن الجوانب المظلمة ويعمى عن رؤية الجوانب المشرقة في حياة البشر أجاب بقوله :

« لا .. إني لست كذلك ؛ إني لا أرى إلا بصور الواقع كما هو ، ولكن الناس هم الذين يبدون المروء من مرفة واقع انفسهم . »

وتزوج موم من الليدى جون هوب وأنجب منها ابنته الوحيدة ليزا ، وانتهت علاقته الزوجية بالطلاق منذ أكثر من ثلاثين عاماً . ومع أنه يعترف في صراحة بأن له تجارب كثيرة في الحب في مختلف أنحاء العالم فهو على حد تعبيره لم يخاطر بالزواج مرة أخرى :

« لقد كنت أنا دائماً هو الحب . ولست المحبوب . وبعد كل هذه التجارب إني أعتقد الآن أن أطول حالات الحب وأكثرها بقاء ، ودعوية هو ذلك الحب غير المتبادل .. الحب من جانب واحد . »

#### ● نذره حداد ... شاعر من حمص

كان نذره حداد شقيقاً لعبد المسيح حداد صاحب جريدة « السائح » .

وقد تناولت حياته عشرين سنة من القرن الماضي ، ونصف القرن الحالي ، فابتدأت على ضفاف العاصي وانتهت على ضفاف المدمس . وجاءت نهايتها تكله مؤثرة جداً لآخر قصيدة نظمها ثم ألقاها في عرس ابنة عمه ، وكان في تلك السهرة الحفافة مسرحاً فوق المعتاد بكثير . إلا أنه ما إن انتهى من إلقاء قصيدته حتى شعر بانزعاج مفاجئ ، فخرج من قاعة الاحتفال إلى غرفة مجاورة حيث ارتضى على مقعد يطلب الراحة ، ولكن الطيب الذى استدعى

« إن العالم ينتظر من رجل في مثل سى ، يخطو آخر خطواته نحو الغير ، أن يبد النظر في علاقته مع الخالق وينظره إلى الطبيعة والكون ، ولكن أعشى أن شيئاً من ذلك لن يحدث . إني كنت دائماً - وسأظل - إنساناً لا يؤمن إلا بالظواهر المادية الملموسة ، وفيها عدا ذلك فإني لا أعرف منه شيئاً ... وأرد أن أضيق هنا بأن الفضيلة الكبرى في نظرى هي الشفقة أو الرحمة .. أو كما يطلق عليها البعض : الخير . »

أما وجهة نظره سومرست موم عن فلسفة الهند التي تعرض لها في روايته « حد الموتى Razor's Edge » فهي كما كتب في مذكراته :

« إن فلسفة الهند تقوم على أساس أن الروح تنتقل من حياة إلى حياة لتظهر نفسها وتنفذ عنها الأخطاء والخطايا .. إلى أن تندمج أخيراً مع الروح الإلهائية . ولكنني لا أستطيع مطلقاً تقبل هذه الفكرة ويمتد فلسفة الهند بأن « الأما » أو الذات هي مصدر كل الشرور والآلام ، وهي السبب الرئيس في انعدام السعادة والإحساس بالسعادة . ولكنني أيضاً لا أستطيع الاعتقاد في هذا الرأي ، وإن كان ثلاثة أرباع سكان العالم يؤمنون بذلك . »

« وأذكر أنني تقابلت يوماً مع إحدى الشخصيات الهندية الهامة ، رئيس الوزارة ، عند ما كان يتلقى عاروف في جامعة أكسفورد . رساله لقد قصصت الآن فترة طويلة متصلة بالحفاة الغربية ، فهل ما زلت تعتقد حقاً في تناسخ الأرواح ؟ » وأذكر أن وجهه قد امتنع واعتراه تغيير مفاجئ . وقال : « عزيزي شاعر موم إني عالم أومن بتناسخ الأرواح فأول ما أن أتصور . »

#### ويغضى مستر موم يقول :

« إن العقيدة والسياسة من أهم الموضوعات التي يطول فيها الجدل والتفاحش . ولكن ليس من رأي أن يغفل الكاتب على قرانه بالحدث في السياسة والاجتماع وما إلى ذلك ؛ فاعتقادي أن الأدب ليس في رسمه دائماً المساهمة في الوصول إلى حلول فعالة . ولما كان الفنان أولاً وقبل كل شيء إنساناً مبدعاً خلاصاً فيجد به أن يول اهتمامه بالأفراد من حيث هم . وليس ضرورياً أن يتعمق نفسه في مشكلات السياسة والاقتصاد . »

ووليم سومرست موم ، الذى يرسم بالكلمات بدلا من الفرشاة والألوان ، لا يصور شخصياته أبداً في ألوان زاهية براقة . والجنس البشرى في نظره عبارة عن سلالة عجيبة متناثرة بعثرت هنا وهناك بنظام ، وشخصيات قصصه من الرجال لا تنتم بالروح البطولية أو المشاعر الإنسانية السامية ، بل على العكس

ود غيرى الصلاة لله في الجامع أوفى كنيسة أو كنيس  
وودت الصلاة لله في الروض بعيداً عن تلك الطقوس  
حيث لا أسمع الزنا يعمل عالياً يستغيث بالقدس

### ● آراء ستيفن سيندر في الشعر العالمي

شاعر في حوالى الستين من عمره مر بالقاهرة ،  
ومر ببيروت ... هذا هو ستيفن سيندر الشاعر  
الإنجليزى الشهير ، أحد العالقة الثلاثة أودن ،  
وماكيس ... ثم سيندر .

وقد تناول سيندر الشعر الألماني ، والشعر الفرنسى  
والشعر الأمريكى والشعر الإنجليزى في حفل أقامته له  
مجلة ( شعر ) البيروتية .

وقال سيندر :

في ألمانيا :

فكان الرتبة الشعرية الماسرة أن تكون مدونة ، ومع ذلك  
فقد كان شعر الألمان أثره الكبير على الحركة الماسرة في إنجلترا .  
وأهم من شارك هذا التأثير هو «ريلكه» الذى تأثرت به شخصياً ،  
وترجمت له المقالات الشعرية في فرنسا :

الرؤية الشعرية آسدة في التقهقر منذ عشرين عاماً ، فالشاعر  
الفرنسى يعتبر الشعر مهنة ، ومن هنا كان اهتمامه بالشجرة كثيراً  
ومن خصائص الشعر الفرنسى أنه متوثب دينياً يمكن لتفاحه مع  
كل القفون ، الرسم والتصوير والنحت .

ولكن القصيدة الفرنسية تتم بالشكل أكثر من اهتمامها  
بالمفردات ، وهي منذ أكثر من مائتي سنة عاقطة على هذا الاتجاه ،  
فهي تجمع إما إلى الشكلية الخالصة ، وإما إلى التلاشكية واللفظية .  
في إنجلترا :

القصيدة الإنجليزية تقوم على المفردات ، والشكل ضرورى  
فقط كوسيلة . والسبب الذى أدى إلى هذا الاتجاه . في إنجلترا  
هو النقد الذى يركز على المادة الشعرية ، لا على كيفية التعبير .  
والشعر في إنجلترا ليس مهنة ، لهذا فالقصيدة منحصرة في جماعة  
ضخيلة من الناس هي جماعة المهتمين بالشعر . وربما انحصرت في  
الشراء .

في أمريكا :

أما في أمريكا فالشعر ما زال مدرسياً ، ولكنه أفضل من سواء .

وتحدث سيندر عن ت . س . إليوت فقال :

في الحال ما جاءه بالراحة المرجوة ، وجاءه بها  
الموت في دقائق معدودات .

بهذه الكلمات ختم الكاتب الكبير ميخائيل نعيمة  
مقاله عن ندره حداد الذى نشره في صحيفة الديار  
الليبية .

وذكر الأستاذ نعيمة كيف تأسست « الرابطة  
القلمية » في نيويورك عام ١٩٢٠ . ثم فقدت عيدها  
جبران خليل جبران عام ١٩٣١ ، وكان أعضاؤها هم :  
رشيد أيوب ، وإلياس عطا الله ، ونسب عريضة ، ووليم  
كاتسليس ، ونندة حداد ، ووديع باسوط ، وعبد المسيح حداد ،  
ورليلا أبو ماضي ، وميخائيل نعيمة .

وللشاعر ندره حداد ديوان واحد أصدره في  
نيويورك عام ١٩٤١ بعنوان « أوراق الخريف » وقد  
شاء أن يرمز بهذا العنوان إلى خريف حياته . وهو  
حمصى الميث ، يكثر من الترحيب بحمص وعاصميا  
ومن ذكر صباه وشبابه فيها :

عذو إلى أرض حمص صحابى فإني بها لا أزال  
وقولوا إذا مت دون إياب براه الخمين ، وكوفى القوم

ويقول ميخائيل نعيمة :

إن كل مهاجر عنده حنين إلى مسقط رأسه ، مهما تكن حرفه  
أو مكانته . فكيف يخلو قلب الشعراء المهاجرين ؟  
لذلك صدق ندره حداد إذا ما سمعته يقول :  
لا زار جفنى الكرى ، لا هزى الطرب  
إن كنت يوماً لغير العسرب أنتصب  
فهو لا ينطق بما في قلبه وحده ، بل بما في قلوب الآلاف  
من إخوانه المهاجرين الذين ما أوتوا مثله مقدسة البيان الشعرى .

وفي ملاحظته الشعرية يقول ميخائيل نعيمة :

« إنه قد يبلغ به الزهد حد التشاؤم المطلق فينكر على الحياة  
أى معنى وأى قصد ، كما في قصيدته « أمام الجبل » :

حياة الناس واحدة ومكتوب لها القفل  
فأبقى ما بها عدم وأضجع ما بها أمل

إلا أن تشاؤم لا يبلغ به حد إنكار البرزخ الإلهية كما تشهد  
قصيدته التى عنوانها « الله » . وهو إذا تيرم بالدين ، فبالطقوس  
التي حولت العبادة من اتصال باطنى بالخالق إلى مجموعة مراسيم  
خارجية . وله في ذلك قصيدة دعاءا تحيات ، وما جاء فيها قوله :



برتول برخت

إن ظله ما زال يوجه الشعراء الخدثين . مع أنه لم يأت بمادة جديدة منذ عشرين عاماً ، وكان الأثر الذي تركه لآلوت عند الشعراء الشباب مضراً ، لأنهم حاولوا تقليده فقتلوا لأنه من الصعب تقليده شاعر كهذا .

### • برتولت برخت أشهر كتاب ألماني معاصر

يقول عن نفسه في إحدى قصائده :

أنا برتولت برخت من أبناء الغاية السوداء  
حملتني أمي ، فظننت أعيش داخل شرفتها الحربية  
في المدن . . وفي أعماق النابات  
وستظل معي دائماً حتى أموت

ولد برتولت برخت في مدينة أوسبورج البافارية في العاشر من فبراير عام ١٨٩٨ . وكان أبوه صاحب مصنع ورق ، وفي الحرب العالمية الأولى عمل برتولت طبيباً في الجيش الألماني . ومنذ اشتراكه في الحرب أصبح ضد الحروب . وحينما بلغ الخامسة والثلاثين كان هتلر في أوج قوله . فقتل الكاتب طوال خمسة عشر عاماً لا جنساً سياسياً في الدانمرك والسويد وفنلند وأمريكا ، وأخيراً ألقي عصاه في ألمانيا الشرقية حيث عاش بقية حياته . وتوفي عام ١٩٥٦ بعد أن أصبح أشهر كاتب في ألمانيا الشرقية والغربية على السواء .

وقد تناولت مجلة تايم الأمريكية حياة برتولت برخت وفته بالتعريف والتحليل فقالت : إنه المؤلف المسرحي الذي احتل مكان جورج برناردشو ، وإنه خليفة شكسبير وجوته وشيلر .

وفي وقت واحد مثلت روايتان من روايات برخت . إحداهما رواية (ثلاثة بنات) التي عرضت في نيويورك ، وثانيتهما رواية (شجاعة أم) التي عرضت في مسرح أوبرا برلين الشاعخة في برلين الشرقية .

وليست هذه هي المرة الأولى التي تمثل فيها روايات برخت خارج ألمانيا ، فقد مثلت خلال

السنوات الماضية في الأرجنتين والصين وتشيكوسلوفاكيا وفرنسا وإيطاليا واليابان والمكسيك وبولندة وإسبانيا والسويد وأمريكا وروسيا كما ترجمت كتبه وأعماله الفنية والنقدية إلى معظم اللغات العالمية .

سئل برخت مرة عن رأيه في معنى الدراما فقال :  
- أن تعلم كيف نحيا .

لقد غادر برتولت برخت لإمريكا عام ١٩٤٧ عائداً إلى وطنه وأقام في برلين الشرقية . وحين قامت ثورة ١٩٥٣ في المدينة كتب هذا الموهوب قصيدة قال فيها :

في الليلة الماضية رأيت في الحلم أصابع  
تشير نحوي  
إنها أصابع مجنوم . . كانت مقطوعة  
فصمت كاللنث . أنتم لا تملدون !

وكان برخت فاشلاً في حياته . وقد صنع من الفشل نجاحاً ساحقاً ، وكان هدفه الدائم أن يسيطر برواياته على النظارة . ويلقهم دائماً بالنقد اللاذع

أما الحوار فقد كان مثيراً واضحاً لا تقوى عليه موجبة إلا تلك الموجبة العبقريّة التي تضم الثقافة الثغية والشعور العميق في نفس واحدة .

لقد أصبحت رواية (أم شجاعة) التي استغرق تأليفها عشر سنوات نموذجاً قنياً إبداعياً .

### ● الأخطل الصغير ... والأخطل الكبير

بشارة الخوري الشاعر اللبناني الذي قال عن نفسه :

كذب التواشي وعساب من رأى الشاعر ثاب  
عصره فبر من الحب وليس من شراب

كتب عنه الكاتب اللبناني أحمد حيدر مقالاً قال فيه :

إن الأخطل الصغير يحاكي الأخطل الكبير في كل أوجوه ،  
في حمرة وفقره وسلاسته ورفقه ودينه وعصبيته : وحبه لوطنه ،  
ودفاعه عن أمه ووطنه . فتأمل كيف يمر الشاعر بالصحراء ،  
وبالبحر ، ويحس في تلك الأجواء :

بشهادة من جيل السرى من سوى شيخ طريب  
جلت له الصحراء (م) والتفت الكتيب إلى الكتيب  
وتفتحت زمر الجنادب من فوجيات الثقوب  
يتساءلون وقد رأوا قوس الملوح في شعوي  
والتمتمات على الشقاء مفرجات بالنسب  
تبكي لها قبل الصبا ويلوب فيها كل طيب  
يتساءلون من لفتي (م) العربي في زى الغريب  
صحراء يا بنت الساء (م) البكر والوسى الخصب  
أنا إن ذكرت ذكرت (م) أحلى وأنفاس وكوي  
أحسى الشعوب الذائبات أسام هيكلك الرقيب

ثم يحركهم إلى البكاء أو الضحك . وجعل من مسرحه تطوراً اجتماعياً .

وأدرك بفطرته الواعية حقيقة النفس الإنسانية التي لا يتبدل جوهرها ، وعن طريق هذا الإدراك نجح في فهم الإنسان . وكانت روايته (الرجل هو الرجل) تعبيراً رائعاً عن هذه الحقيقة في مجالها العالمي .

وكتبت صحيفة «لوموند» الفرنسية عن رواية (شجاعة أم) قائلة :

«من غير أن تعرف كلمة واحدة من الألمانية . تستطيع أن تفهم هذه الأم الشجاعة ، وترى رؤيتها تتحرك في جميع مشاهد الرواية . إن الكلمة الوحيدة التي يجب أن تعرفها هي كلمة (فرار) أي سيدة باللغة الألمانية . وبعد ذلك سترى وجه الأم للشحوت في حشب الغابة القوي ، الحبر . المله بالألم والسعادة في لحظات الألم والسعادة .

وكتبت مجلة «عالم المسرح» اللندنية عن تلك الرواية التي وصلت إلى وثبة العالمية :

«في كل وقت تظهر حربة الأم الشجاعة . تخرجها رسائل الحياة ، ومعها أطفالها يحرون هذه الحربة العجيبة التي طافت معتم سائح أوروبا .

إن وجه الأم هو وجه إنسان يتألم . ويهجره أصداؤه وحله ، ثم تلقى المفادير على كتفه حيلة تقعه الأم حول صحتها ثم تخرج حريتها التي هي بيتها وتستقبلها وحيلة أطفالها . وتسير بهذه الحربة نحو المجهول » .

وقالت مجلة (دي بونيون) التي تصدر في فيينا :  
«كتب برت برشت كلمات للكورس ، وأغنيات للألم هي من أعظم الشعر الألماني الذي عرف في أدب ألمانيا .

